المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة القصيم
كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية
قسم اللغة العربية وآدابها
ماجستير الدراسات الأدبية

أساليب عرض قصَّة مُوسى – عليه السلام- في القُرآن
دراسة بلاغية

رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير في
الدراسات الأدبية تخصص : (بلاغة)

إعداد :
خالد بن عبدالله بن محمد العُمري
الرقم الجامعي (٢٩١٩٠٠٠٨٤)

إشراف الدكتور :
السيد عبدالسميع حسونة
الأستاذ المشارك في قسم البلاغة والنقد

العام الجامعي
١٤٣٣/١٤٣٢هـ
٢٠١١م / ٢٠١٢م

عنوان الرسالة : أساليب عرض قصة موسى – عليه السلام – في القرآن (دراسة بلاغية) .
اسم الباحث : خالد بن عبد الله بن محمد العُمري .

تقرير اللجنة :

تمت الموافقة على قبول هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في الدراسات الأدبية تخصص : (بلاغة) .

لجنة تقرير المناقشة والحكم على الرسالة :

أعضاء اللجنة	الاسم	المرتبة العلمية	التخصص	التوقيع
المشرف	د . السيد عبد السميع حسونة	أستاذ مشارك	بلاغة ونقد	
المناقش الخارجي	أ.د . يوسف بن عبد الله الأنصاري	أستاذ	بلاغة ونقد	
المناقش الداخلي	أ.د . إبراهيم بن منصور التركي	أستاذ	بلاغة ونقد	

تمت مناقشة هذه الرسالة في تاريخ ١٨ / ٦ / ١٤٣٣هـ الموافق : ١٠/ ٥ /٢٠١٢م .

الإهداء

إلى من غمراني بالحب والحنان والرعاية الأصيلة :

والديَّ

إلى من تعبت لراحتي وسعت لإسعادي :

زوجتي

إلى رياحين قلبي : ريما ، سلمان ، مشاري

أبنائي

إلى من أحببتهم في الله ووقفوا بجانبي

أصدقائي

إليهم جميعاً أهدي هذا الجهد المتواضع

خالد

شكر وتقديـر

يسرني أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل الذين ساعدوني لإتمام بحثي ، وأخص منهم : الدكتور/ السيد عبدالسميع حسونة على ما بذله من جهد وتقديم نصائح كانت بمثابة النبراس الذي أضاء لي الطريق لإتمام هذا البحث .

كما أشكر العاملين بمكتبة الشيخ : سليمان الراجحي العامة ببريدة على ما قاموا به من جهد في توفير المصادر ، والمراجع.

المُقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين أما بعد :

"القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعيه وطريقة عرضه ، إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية ، والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء ، والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها ، شأنها في ذلك شأن الصور التي يرسمها للنعيم والعذاب ، وشأن الأدلة التي يسوقها على قدرة الله – تعالى – وشأن الشرائع التي يفصلها والأمثال التي يضربها ، إلى آخر ما جاء في القرآن من موضوعات" [(١)] .

وللقصة مكانتها بين الأنواع الأدبية الحديثة ، وتكاد تكون سيدة الأدب المنثور، حيث صارت من [(٢)] أكثر الأنواع الأدبية فعالية في العصر ؛ لأنها أكثرها جاذبية ؛ ولأنها تعطي اللذة الفنية والمتعة الجمالية التي يعطيها كل عمل فني إضافة إلى ما لها من خاصية أخرى تتصل بما يشغل الناس ويهمهم في الحياة ، والقصة المعاصرة لا تروي الواقع كما هو ، بل تؤلف من الواقع بناء يعمل فيه الخيال عمله .

وإذا قرأت الزائف منها تحس في نفسك بأشياء تسفل ، وإذا قرأت الصحيح منها أحسست بأشياء تعلو ، تنتهي الأولى فيك بأثرها السيء ، وتبدأ الثانية بأثرها الطيب [(٣)] .

---

(١) التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة ، ط : ١٨ ، ص١٤٣ ، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م .

(٢) ينظر : النقد الأدبي الحديث (أصوله واتجاهاته) ، د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، (د:ط) ، ص ١١٥ ، ١٩٧٦م .

(٣) ينظر: وحي القلم ، مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، ٢٥٨/٣ ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م .

والقصة أسلوب من أساليب التعبير القرآني ، ولكنه أسلوب متميز ، ورد كثيراً في كتاب الله – تعالى – حتى قلَّ أن تخلو سورة من سوره من قصة ، أو بعض قصة ، أو ملمح من ملامح القصة ، كالحوار والشخصيات وما شاكل ذلك .

وتأتي القصة في السياق القرآني أداة للتربية ، ومصدراً لتوجيه الأمة . لأن هذه القصص قطع من الحياة الماضية ، ينفخ فيها القرآن الحياة ، فإذا هي شاخصة تراها العيون ، ليزداد أولو الألباب عظة واعتباراً .

وتعد رواية القرآن لقصص الماضين رواية صادقة لواقع صحيح ، لا مكان فيه للخيال لقوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾[1] .

زد على ذلك أن القرآن ينفرد في عرض قصصه بأسلوب معجز ، ونظم بديع محكم ، وهذا يؤكد على سمو بيانه ، وذروة بلاغته .

وجدير بالذكر أن القصص القرآني يقوم على الغرض الديني المحض ، ولا يعتمد أبداً على اتجاهات القصة الحديثة ، فالقرآن كتاب دعوة قبل كل شيء ، وليس كتاب قصص فني .

(١) سورة طه : الآية ٩٩ .

أهمية الموضوع وأسباب اختياره :

لما كانت قصة موسى – عليه السلام – أكثر القصص وروداً في القرآن مع ما لتلك القصة من الأهميّة التي نبّه العلماء عليها . قال ابن تيمية : "هي أعظم قصص الأنبياء التي تذكر في القرآن ، ثناها الله أكثر من غيرها ، وبسطها وطولها أكثر من غيرها" (١) ، كان حرياً بالباحث أن يتوجه لدراسة هذه القصة العظيمة من جوانبها المتعددة ، في ضوء الدراسة البلاغية .

ومن اللافت للنظر التنوع في عرض هذه القصة في القرآن مع كثرة تكرارها ، فنجدها أحياناً تذكر طويلة مطنبة ، وأحياناً قصيرة موجزة ، ويطوى منها ويحذف في بعض السور ما يذكره في سورة أخرى ، وهي مع كل هذا التناسق لا اختلاف فيها ولا تعارض ، وهذا التنوع في العرض سر من أسرار الإعجاز في هذه القصة بل في القرآن كله . وبناء عليه رأيت أن يكون بحثي لاستكمال درجة الماجستير هو : (أساليب عرض قصة موسى في القرآن) "دراسة بلاغية" .

ومن هنا تأتي أهمية دراسة الموضوع استجلاء للأسرار البلاغية التي تكمن في ثنايا قصة موسى – عليه السلام – ، والتي تناولها القرآن الكريم مفصلة في أكثر من عشرين سورة .

والمتأمل في قصة موسى – عليه السلام – في القرآن يجد أنها تتسم بتنوع أساليب العرض ، إذ يتراوح بين أساليب عدة منها : الإيجاز ، والإطناب ، والمساواة ، والتكرار .

ففي سورة القصص – مثلاً – تقص القصة منذ ميلاده ، وإلقائه في اليم ، إلى أن التقطه آل فرعون ، إلى أن أوحي إليه ، ويشير القرآن في سور أخرى إلى القصة ذاتها في سورة : البقرة ، والأعراف ، والشعراء ، والنمل ، وطه ، والدخان ، والذاريات ، وغيرها من السور ، بأساليب عرض جديدة .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ، جمع وترتيب : عبد الرحمن بن قاسم العاصمي ، (د : ن) ، ط : ١ ، ١٧ /٢١ ، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م .

والأمر الذي يجب أن أنوه إليه أن الجانب التاريخي في هذه القصة لا يشغلني بقدر ما يشغلني الجانب البلاغي الذي تصوره القصة عبر أساليب : التكرار ، والإيجاز، والإطناب ، وغيرها من الأساليب التي تبرز الوجه البلاغي للقصة في القرآن .

وثمة بواعث حفزت الباحث على دراسة أساليب عرض قصة موسى في القرآن (دراسة بلاغية) ، وهي (طبيعة البناء الفني لشخصية موسى دون سائر القصص القرآني الأخرى) وذلك لعدة أسباب منها :

(١) تكرار قصة موسى عليه السلام بأساليب متنوعة أكثر من ثلاثين مرة [١] .

(٢) ولأن شخصياتها متنوعة فمنها البشرية بنزعاتها الإيمانية ، والدعوية ، والكفرية ، الأمر الذي سمح لي بمعالجتها من الداخل .

(٣) ولأن شخصية موسى- عليه السلام - ذات طبيعة متميزة ، تتقاطع فيها خطابات متنوعة ، مما يساعد الباحث على الوقوف على جوهر البناء المتنوع مع تنوع أفعال الشخصية .

(٤) ثم لأن قصة موسى - عليه السلام - تلم بين جوانبها جملة ألوان من فنون القصة ، ففيها صراع الفرد ضد الطغيان (فرعون) ، وصراع المرء ضد الظروف ، ثم صراع الجماعة في سبيل الحق ، ثم ارتباط الناس بما تعودوه ، لا يغيرون ما بهم مهما تغيرت أفكارهم وعقائدهم ، فضلاً عن أنها قصة من القصص المعجز .

وحسب المرء أن يتطلع إلى دراسة قرآنية يجلو بها بعض ميادين القرآن وأن يكشف بعض أسراره البلاغية ، وإن باب القصص القرآني لفسيح وساحته لرحبة تتسع لعشرات الدارسين والباحثين ، فما على المرء إلا أن يلجه ويحط بساحته مستمداً من الله – عز وجل – العون والتوفيق لخدمة لغة التنزيل .

---

(١) أعني بالتكرار هنا أن ترد القصة الواحدة مكررة في مواضع شتى ، ولكن هذا التكرار لا يتناول القصة غالباً ، إنما هو تكرار لبعض حلقاتها ، أو معظمه في إشارات سريعة لموضع العبرة فيها ، أما بناء القصة فلا يكرر إلا نادراً ولمناسبات خاصة في السياق .

أهداف الدراسة :

لعلّ عنوان البحث يوضح الهدف منه وهو هدف بلاغي في المقام الأول ، يتمثل في :

(١) استخلاص أساليب عرض قصة موسى في القرآن ، وتحليلها بلاغياً .

(٢) استعراض القصة في توافق بنائها وأساليبها مع مضامينها ومراميها.

(٣) عرض القواعد التي وضعها النقاد للقصة على قصة موسى – عليه السلام- وبيان ما يستقيم منها وما لا يستقيم ، وبيان ما يتضمنه من القواعد التي يمكن إضافتها إلى فن القصة الحديثة ، ذلك لأن التوجه إلى القصص القرآني بوصفه مورداً نستقي منه أسس فن القصة .

(٤) التأكيد على أن القصة في القرآن الكريم هي وسيلة من وسائل القرآن الذي يجعل من الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية.

(٥) إبراز ما في القصص القرآني من الروعة اللغوية والبلاغية ، وأن الدين والفن صنوان في التأثير في النفس وقرارة الحس ، كما يقول سيد قطب [١] .

(١) انظر : التصوير الفني في القرآن ، ص١٤٣ .

الدراسات السابقة :

ومن الجدير بالذكر أن قصة موسى- عليه السلام- درست من جوانب أخرى غير الجانب الذي أريد دراسته ، فمن ذلك :

(١) قصة موسى -عليه السلام-مع فرعون بين القرآن والتوراة ، دراسة مقارنة رسالة ماجستير للباحث نضال عباس جبر دويكات ، قدمت الأطروحة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في أصول الدين – جامعة النجاح الوطنية – نابلس بفلسطين ، وهي دراسة بعيدة عن مقصودنا البلاغي .

(٢) بلاغة التكرار في قصة موسى- عليه السلام - بين سورتي البقرة والأعراف ، دراسة مقارنة ، رسالة دكتوراه في جامعة وهران ، وموضوعها يختلف عن موضوعي ؛ حيث قصر جهده في سورتين فقط ، وفي مظهر واحد من مظاهر البلاغة ، أما رسالتي فستتناول القصة على مدار القرآن كله وبدراسة بلاغية شاملة لأساليب عرضها في القرآن .

(٣) منهج الحوار في إثبات أسس العقيدة في ضوء دعوة موسى - عليه السلام - رسالة جامعية مخطوطة بجامعة الملك فيصل للدراسات والبحوث ، وهي كما هو ظاهر من العنوان تركز على الجانب العقدي .

(٤) المفهوم القرآني والتوراتي عن موسى - عليه السلام - وفرعون ، د. زاهية الرجاني ، (د:ط). دار التقريب ، لبنان ١٤١٨هـ ، وهي دراسة تاريخية تركز على إثبات تحريف التوراة وصحة القرآن الكريم .

(٥) العبرة من قصة موسى- عليه السلام - في القرآن الكريم ، محمد خير عدوي ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، والرسالة لم تركز إلا على جانب العبرة التاريخية .

(٦) الدعوة والعقيدة في قصة موسى- عليه السلام - للباحث سليمان طلق الحازمي ، جامعة أم القرى ، كلية الدعوة وأصول الدين ، والرسالة بعيدة عن الدراسة البلاغية التي نحن بصددها ؛ لأنها في مجال العقيدة

(٧) قصة موسى- عليه السلام - في أعمال المفسرين ، دراسة نقدية ، مصطفى عبدالحليم متولي صقر ، جامعة الزقازيق ، الآداب ، اللغة العربية وآدابها ، ماجستير ، ١٩٨٤م ، وهي رسالة تركز على الجانب النقدي لتلقي المفسرين للنص لقصة موسى- عليه السلام - في القرآن ولم تمس الناحية البلاغية .

منهجي في البحث :

حاولت في هذا البحث أن أزاوج بين منهجين : بين المنهج الوصفي الذي يجمع بين الاستقراء والتحليل ، وأحياناً التركيب مع الموازنة والترجيح ، وذلك كله في ضوء بلاغة السرد المعاصرة من خلال دراسة بنية السرد في قصة موسى – عليه السلام - لرصد تقنياتها والكشف عن خصائصها داخل النص؛ لتحديد ملامح بنية السرد القرآنية، وتمييزها من غيرها من أنواع السرد الأخرى ، وأثر ذلك في عرض القصة وتنوع أساليبها في القرآن ، من خلال عرض آراء العلماء القدامى والمحدثين ومناقشتها .

خطة البحث :

بعد الاطلاع على كثيرٍ من الخطط التي سُبِقتُ بها ، وقراءة قصة موسى- عليه السلام – لدى المفسرين رأيت أن تكون خطة البحث مكونة من :

مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة فصول ، وخاتمة ، وذلك على النحو التالي :

المقدمة : وتتضمن العناصر التالية :

أهمية الموضوع ، وسبب اختياره ، وأهداف الدراسة ، والدراسات السابقة ، ومنهجي في البحث .

التمهيد :

ويتضمن مبحثين أساسين :

المبحث الأول : مفهوم القصة في اللغة ،والأدب، والقرآن الكريم .

تحدثت فيه عن نظرة علماء اللغة والأدب ، وحقيقة ورود القصة في القرآن من خلال تعقبي لأقوال العلماء في هذا الشأن .

المبحث الثاني : أسرار التنوع الأسلوبي لقصة موسى-عليه السلام- في القرآن

وتحدثت فيه عن الأسرار الكامنة وراء التنوع الأسلوبي لقصة موسى – عليه السلام – في القرآن من خلال اجتهادات علماء التفسير والبلاغة .

الفصل الأول :

قصة موسى – عليه السلام – بين الإيجاز ، والإطناب ، والتكرار .

وأركز فيه على المباحث التالية :

المبحث الأول : **الإيجاز** . ويشتمل على :

أولاً : الإيجاز عند البلاغيين .

ثانياً : الإيجاز في قصة مُوسى عليه السلام .

وتحدثت فيه عن أهميته عند علماء البلاغة ، ذاكراً المصطلح والمفهوم ، مبيناً الأقسام والأنواع ، مستشهداً بحلقات قصة موسى – عليه السلام – ، ومستقرئاً ، ومحللاً تلك الحلقات ، كاشفاً عن الأغراض البلاغية المقصودة من وراء استخدام أسلوب الإيجاز .

المبحث الثاني : الإطناب . ويشتمل على :

أولاً : الإطناب عند البلاغيين .

ثانياً : الإطناب في قصة مُوسى عليه السلام .

وتحدثت فيه عن أقوال علماء البلاغة فيه ، ومنزلته عندهم ، وما توصلوا إليه من حيث المصطلح والمفهوم ، ذاكراً أشهر أنواعه ، وحاولت الكشف عن مواطن ورود أنواع الإطناب في قصة موسى – عليه السلام – ، مبيناً ، ومحللاً الأغراض البلاغية الكامنة وراء استخدامها في قصة موسى – عليه السلام – من خلال الاستقراء .

المبحث الثالث : التكرار .

أشرت إلى أقوال العلماء من حيث وجود التكرار وعدمه في القرآن ، مشيراً إلى تعريف علماء البلاغة للتكرار ، كاشفاً للقارئ بعض مواطن تكرار الكلمات ، والجمل ، والعبارات ، والأحداث ، والأنباء ، متأملاً الأبعاد التي تقف وراء تلك الظاهرة من قيم بلاغية .

الفصل الثاني :

البناء الفني في قصة موسى عليه السلام .

وأركز فيه على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : البناء التصويري .

تحدثت فيه عن الجوانب الفنية التصويرية في حلقات قصة موسى – عليه السلام – ، وما فيها من تناسب وتناسق بين المواقف والأحداث ، مع إبراز الأبنية التصويرية من تشبيه ، واستعارة ، ومجاز ، وكناية ، وأثر تلك الأبنية على المتلقي .

المبحث الثاني : البناء التركيبي .

تحدثت فيه عن الأساليب البنائية التركيبية كالخبر ، والإنشاء ، والتقديم ، والتأخير التي استخلصتها من قصة موسى – عليه السلام – ، محاولاً الكشف عن أسرار تلك التراكيب الجمالية الفنية .

المبحث الثالث : البناء الإيقاعي .

تحدثت فيه عن البناء الإيقاعي بشقيه الظاهري ، والخفي ، دامجاً بين الإيقاعين من أجل الخروج برؤية شاملة عن الإيقاع في قصة موسى عليه السلام .

الفصل الثالث :

بلاغة السرد في قصة موسى عليه السلام .

وأتناول فيه ثلاثة مباحث رئيسة هي :

المبحث الأول : المشاهد والمواقف والأحداث .

تركز الحديث فيه على مرجعية الأحداث في قصة موسى – عليه السلام – ، والوظائف من حيث بروزها في ثنايا القصة ، كما أنني أشرت إلى مواطن البساطة ، والتعقيد في القصة اعتماداً على تقسيمنا للقصة إلى ثلاثة مراحل ، كما أنني درست بنائية الحدث ، واتجاه الزمن اعتماداً على بلاغة السرد ؛ لأحدد بذلك الشكل الذي اتخذته الأحداث من حيث التصاعد أو التداخل .

المبحث الثاني : الشخوص والنماذج البشرية .

تحدثت فيه عن شخوص قصة موسى – عليه السلام – ومدى العلاقات القائمة ، والأسرار الكامنة بين تلك الشخوص ، اعتماداً على حضورها في الأحداث أو غيابها ، مستخلصاً صفات تلك الشخوص من خلال سلوكها .

المبحث الثالث : الحوار والسرد في القصة .

تحدثت فيه عن الأنماط الشائعة الواردة في قصة موسى – عليه السلام – كالحوار الباطني والخارجي ؛ حيث حاولت الكشف عن خبايا النفس من خلال السرد والحوار المطنب والموجز ، وما الداعي إلى لجوء الشخوص لنمط دون آخر .

وفي خاتمة القول أسأل الله – عزَّ وجل – أن يبارك في الجهود ، وأن يجعلنا من خدمة كتابه الكريم ، وأن يوفقنا إلى بيان ما فيه من إبداع رباني ، علماً أن هذه الدراسة لا تعني نهاية المطاف ، بل الخير فيمن جاء بعدنا من الباحثين والباحثات . والحمد لله رب العالمين .

الخاتمة :

وفيها خلاصة البحث ، ونتائجه .

الفهارس : وتشتمل على الفهارس الآتية :

- فهرس الآيات القرآنية .
- فهرس الأحاديث النبوية .
- فهرس الأشعار .
- فهرس الأعلام .
- فهرس المصادر والمراجع .
- فهرس الموضوعات .

والله أسأل أن يوفقني للصواب ويعصمني من الزلل إنه سميع مجيب .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

التمهيد

المبحث الأول
مفهوم القصة في اللغة ، والأدب ، والقرآن الكريم

تُعد القصة منذ طوال التاريخ أداة من أدوات التخاطب بين الفرد ، والمجتمع ، وتعكس مظاهر الحياة وما فيها من آمال ، وآلام ، يتشربها جميع فئات المجتمع ، فهي بحق " غذاء ثقافي هام لمعظم فئات الشعب في كل المجتمعات الإنسانية" [1] .

وإذا كانت القصة بهذا القدر من الأهميّة لدى الكُتَّاب ، والقرّاء ، فلم يكن القرآن بمعزل عن هذه الأداة ، فقد جاء القرآن بأحسن القصص ، كما- قال تعالى -: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [2] . حاكياً بها الأزمان الغابرة بأساليب متنوعة ، داعياً بها إلى هدى بأساليب شيقة ، ورادعاً بها على ضال ، ومنكراً بها على جاحد .

وحريٌّ بنا قبل الدخول في إبراز جماليات أساليب القصة في القرآن إيجازاً ، وإطناباً ، وتكراراً أن نبيّن مفهومها ، من حيث اللغة ، والأدب ، والقرآن .

مفهوم القصة من حيث اللغة :

تحدثت كتب اللغة ، والمعاجم عن مدلول كلمة (القصة) ، ولكي أوضح هذا المدلول يمكننا أن نستطلعه من كُتب المعاجم .

جاء في اللسان لابن منظور عند حديثه عن مادة (قصص) : "والقِصّة معروفة. ويقال: في رأسه قِصّةٌ يعني : الجملة من الكلام ، ونحوُه – قوله تعالى- : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ ، أي : نُبيّن لك أَحسن البيان . والقاصُّ : الذي يأتي بالقِصَّة من فصِّها ويقال : قَصَصت الشيء إذا تتبَّعت أثره شيئاً بعد شيء .

---

(١) القصة بين التراث والمعاصرة ، د. طه عمران وادي ، إصدار نادي القصيم الأدبي ببريدة ، ط : ١ ، ص١٩٩ ، ١٤٢١هـ .

(٢) سورة يوسف : الآية ٣ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴿١١﴾ ﴾ [1] ، أي : اتبعي أثره ...

والقِصّة : الخبر وهو القَصَصُ ، وقصَّ عليَّ خبره يقُصُّه قصّاً ، والقِصَص بكسر القاف : جمع القِصَّة التي تكتب ... وتقَصَّصَ كلامه : يعني حفظه ، وتقَصَّص الخبر : تتبعه [2] .

وعند التتبع والاستقراء نلحظ أن المعنى اللغوي للقصة "أصل اشتقاقها يتلاقى مع المفهوم الذي قام عليه أصل التسمية للقصص القرآني" [3] .

فكما أننا قررنا سابقاً أن من معاني القص هو تتبع الأثر ، فالقصة في القرآن الكريم إنما هي عبارة عن عرض أحداث ماضية من خلال التتبع .

بعد هذا العرض السريع لمعنى القصة من حيث اللغة المتمثلة في المعاجم العربيّة ، نلحظ تعدد معاني (القصة) ، الذي يدور حول تتبع الأثر ، أو قول الأخبار إلا أن الشائع هو إطلاق القصة على الأخبار التي تقال .

ومع هذا نخلص إلى أن (القصة) لفظ واسع يحتمل معاني عدة .

مفهوم القصة من حيث الأدب :

القصة إحدى مفردات الحياة، وأكثرها ارتباطا بالإنسان، ولا تخلو منه ثقافة من الثقافات البائدة أو الباقية؛ لجأ إليه الإنسان للتسلية والتربية، ووجد فيها قناة من أهمّ قنوات التأثير .

وبما أنّ القص وسيلة حاضرة على مستويات متعدّدة فقد حاول كثير من النقاد أن يضع لها تعريفاً أدبيا .

وفيما يلي عرض لأبرز هذه التعريفات الأدبية :

---

(١) سورة القصص : الآية ١١ .

(٢) لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط : ٣ ، ١١/١٩١،١٩٠ ، مادة (قصص) ، بتصرف، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

(٣) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، عبدالكريم الخطيب ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط : ٢ ، ص٤٤ ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .

تعريف القصة عند محمد يوسف نجم :

"القصة مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب وهي تتناول حادثة واحدة، أو حوادث عدة، تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة تتباين أساليب عيشها وتعريفها في الحياة على غرار ما تتباين حياة الناس على وجه الأرض ويكون نصيبها في القصة متفاوتاً من حيث التأثير والتأثر" (١) .

ويضيف : "القصة حوادث يخترعها الخيال وهي لا تعرض لنا الواقع كما تعرضه كتب التاريخ والسير وإنما تبسط أمامنا صورة موهومة منه" (٢) .

تعريف فن القصة الأدبية في معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب :

"هي ، بعبارة عامة سرد لأحداث لا يشترط فيه إتقان الحَبْكَة ، ولكنه ينسب إلى راوٍ . وأهميتها تنحصر في حكاية الأحداث وإثارة اهتمام القارئ أو المستمع لا الكشف عن خبايا النفس والبراعة في رسم الشخصيات . ويستعمل هذا المصطلح للدلالة على قصص المغامرات المثيرة بصفة خاصة" (٣) .

مفهوم القصة في القرآن :

يعرض القرآن الكريم حقائق ماضية على مستوى الأحداث ، والشخصيات ، والأمكنة بأسلوب قصصي شيّق ،

ولقد ورد لفظ (القَصِّ) ، و(القصص) في القرآن الكريم ، كما- قال تعالى- : ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ (٤) .

---

(١) فن القصة ، محمد يوسف نجم ، دار صادر، بيروت ، ط : ١، ص٩ ، ١٩٩٦م .

(٢) المرجع السابق ، ص١٠ .

(٣) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبة ، كامل المهندس ، ساحة رياض الصلح ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط : ٢ ، ص ٢٨٩، ١٩٨٤م .

(٤) سورة القصص : الآية ٢٥ .

ومادة (قصص) قد جاءت مضعفة ، وغير مضعفة قريباً من ثلاثين موضعاً ، موزعة في اثنتي عشرة سورة [١] . والقصة وإن كانت تدل على تتبع الأثر -كما بينا سابقاً- من حيث المفهوم اللغوي فإن ذلك لا يمنع من وجود مرادفات دلالية لكلمة (القص) ومن ذلك على سبيل المثال : (الحديث)كما في - قوله تعالى -: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴿١١١﴾ ﴾ [٢] . أي : "لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم" [٣] ، و(التلاوة) في- قوله تعالى- ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [٤] . أي :"فإن نبأهما غريب ، وخبرهما عجيب " [٥] .وحيث إن المقام لا يتسع لذكر جميع هذه المرادفات فقد اكتفينا بما سبق .

ولقد نأى القرآن الكريم عن استخدام ألفاظ معينة كالرواية ، والحكاية ، والأسطورة ، والخرافة ، حيث لم يجعلها مرادفة للقصة ، وما ذاك إلاَّ لأنها "جميعاً تنحرف إلى منطقة الخيال ، والابتعاد عن الواقع في تشكيل نصوصها ، بينما الخطاب السردي للنص القرآني لا يعتمد إلاَّ على الحقيقة والواقع المعطى سلفاً " [٦] .

---

(١) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد الباقي ، دار الحديث ، القاهرة ، ط :١ ، ص ٦٠٤ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .

(٢) سورة يوسف : الآية ١١١ .

(٣) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ، ابن كثير ، علق عليه : محمد نسيب الرفاعي ، مكتبة المعارف ، الرياض ، الطبعة الجديدة (٥٠٥/٢) ، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م .

(٤) سورة القصص: الآية ٣ .

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، السعدي ، تحقيق : عبدالرحمن اللويحق ، الرشد الرياض، ط : ٢ ، ص٦١١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٣م .

(٦) بنية السرد في القصص القرآني وأثرها في بناء الشخصية ، (قصة موسى نموذجاً) ، د. السيد عبدالسميع حسونة ، بحث منشور في مجلة الدراسات العربية ، كلية دار العلوم ، جامعة المنيا،ص ٥، ٢٠٠٣م .

وممّا يؤيد ذلك ما جاء في القرآن ووصفه للقصص بأنها حق ، كما قال الحق - جلَّ وعلا- : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴿٦٢﴾ ﴾ [1] .

ومع أنها قصص حق جاءت لأهداف عدة كبيان حقائق المرسلين ، ومصير الأمم الغابرة ، ومع هذا كله إلا أن تلك القصص لم تخل من الجوانب الفنيّة -كما قال سيد قطب - ؛ ولكنها ليست كالقصة الفنيّة الحرة .

وهنا يُمكن أن نقرر مفهوم القصة في القرآن بأنها : "ليست عملاً فنيّاً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه ، وإدارة حوادثه ، كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة ، التي ترمي إلى أداء غرض فني ، طليق ، وإنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضهِ الدينية ، والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء ، والقصّة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة ، وتثبيتها " [2] .

• • • • •

(١) سورة آل عمران : الآية ٦٢ .

(٢) التصوير الفني في القرآن ، ص١٤٣ .

المبحث الثاني
أسرار التنوع الأسلوبي لقصة مُوسى – عليه السلام - في القرآن

إن القرآن الكريم كتاب عظيم ، انطوى على عددٍ من الأساليب لإقناع المتلقي أيّاً كان المستوى الذي ينتمي إليه ، ومن جملة هذه الأساليب التي انطوى عليها القرآن الكريم أسلوب القصص وهو أسلوب حاضر بقوة في كثير من سور القرآن ، سواء السور المكيّة منها أو المدنية ، ولأهمية هذا الأسلوب فقد انفردت سور قصيرة بهذا الأسلوب كما نجد ذلك في سورة (الفيل) ، وسُمِّيت إحدى سور القرآن (بالقصص) وصارت مفردة (قص) ومشتقاتها حاضرة في مطالع السور وخواتيمها على حدٍّ سواء .

على أن من يتابع حركة الأسلوب القصصي في القرآن الكريم يجده يثير كثيراً من الأسئلة التي تحتاج إلى مزيد بحث وتدبر وتأمل ، ومن جملة هذه الأسئلة السؤال عن سر تنوع أسلوب القصة الواحدة في القرآن الكريم . فنحن نجد على سبيل المثال قصة موسى – عليه السلام – قد عُرِضَت في القرآن الكريم ، من خلال (القص) بأساليب متنوعة ما بين إيجاز ، وإطناب ، وتكرار وغيرها ، فهي ما بين تمدد وانكماش وتكرار .

وكل هذا دفعني إلى البحث عن السر الذي يقف وراء التنوع الأسلوبي لهذه القصة في القرآن الكريم .

وفي سياق بحثي وقفت على عددٍ من الأسرار التي اجتهد علماء التفسير والبلاغة في بيانها محاولاً الوقوف على السر الذي يتلاءم مع قصة موسى – عليه السلام – ومن هذه الأسرار ما يلي :

١- مراعاة مقتضى الحال :

يراعي القرآن الكريم المواقف التي تتطلب الإيجاز أو الإطناب أو التكرار ، وكل ذلك خاضع إلى ما يتطلبه الموقف من هذه الأساليب " وإذا كان الموقف يقتضي اللمحة الخاطفة ، والإشارة العابرة ، كما في مقام الامتنان إذا كان الهدف من القصّ بيان أن الجزاء من جنس العمل ، نرى أن القصة القرآنية تميل إلى الإيجاز والإشارة الخاطفة تذكيراً للنبي – صلى الله عليه وسلم – بتلك المنن التي مَنَّ الله بها على رسله .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢ ﴾ [1] .

فليس الهدف هنا القص ، وإنما الهدف بيان رضا الله عن عبده ورسوله لإخلاصه ، فاجتباه ووهب له الرسالة واصطفاه نبياً ، وحباه بكلماته ، وزاده بركة بجعل أخيه هارون نبياً" [2] .

وهنا يظهر سر الإيجاز الذي استخدمه الله – سبحانه وتعالى – في هذه اللمحة السريعة .

٢- سياق السورة المكية والمدنية ، وعلاقتهما بأسرار التنوع :

يلحظ – القارئ الكريم – أن حلقات قصة مُوسى – عليه السلام – الواردة في السور المدنية يطغى عليها الحديث عن بني إسرائيل كما في سورة البقرة ، والنساء والمائدة ، والصف [3] . بخلاف السور المكية التي وإن ذُكِرت حلقة بني إسرائيل

---

(١) سورة مريم : الآية ٥١ – ٥٢ .

(٢) الجانب الفني في قصص القرآن الكريم ، د. عمر محمد عمر باحاذق ، رسالة ماجستير ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، ط : ١ ، ص٧٣ ، ١٤١٣ – ١٩٩٣م .

(٣) ينظر : سورة البقرة : الآية٤٠ ، سورة النساء : الآية ١٥٣، سورة المائدة : الآية ٢٠ ، سورة الصف : الآية ٥ .

فتذكر مع غيرها ؛ ولعلّ السر في ذلك يرجع إلى تركيز السور المدنية على كشف نوايا اليهود ، وفي ذلك يقول سيد قطب : " القرآن لا يعرض هنا قصة بني إسرائيل [يقصد سورة البقرة] إنما يشير إلى مواقف منها ومشاهد باختصار أو بتطويل مناسب

وقد وردت القصة في السور المكية التي نزلت قبل هذا ، ولكنها هناك كانت تذكر – مع غيرها – لتثبِّت القلة المؤمنة في مكة بعرض تجارب الدعوة وموكب الإيمان الواصل منذ أول الخليفة ، وتوجيه الجماعة المسلمة ... فأما هنا فالقصد هو ما أسلفنا من كشف حقيقة نوايا اليهود ووسائلهم ، وتحذير الجماعة المسلمة منها ... وبسبب اختلاف الهدف بين القرآن المكي والقرآن المدني اختلفت طريقة العرض" [(١)].

٣- سر المفاجآت في قصة مُوسى – عليه السلام – مع العبد الصالح :

يقول سيد قطب عن ذلك : " فمرة يُكْتَمُ سر المفاجأة عن البطل وعن النظارة حتى يُكشف لهم معاً في آن واحد . مثال ذلك قصة موسى- عليه السلام – مع العبد الصالح العالم في سورة الكهف " [(٢)] .

وهذا مما يدفع القارئ لمواصلة القراءة حتى النهاية بل يتشوق إلى النهاية ، وإذا بالقصة تظهر هذا السر المكنون بأجمل صوره وأروع بيان ، حيث قال – عزَّ وجل –:

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [(٣)] .

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة ، ط : ١٥ ، ٦٦/١ ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م . بتصرف .

(٢) التصوير الفني في القرآن ، ص١٨٣.

(٣) سورة الكهف : الآيات من ٧٩ – ٨٢ .

وفي النهاية "تتضح أسرار القصة وتبلغ منتهاها أروع ما تبلغ قصة منتهاها ، إعجازاً من الإعجاز ، ولا يقوله غير الله -جل وعلا- وسبحانه " [1] .

٤- مناسبة الأسلوب وعقلية الإنسان :

"لا جدال في أن القرآن الكريم قد أثار، في أساليبه القصصية ، أكثر من أسلوب، من أجل الوصول إلى عقل الإنسان وشعوره ، فيما يفكر به في قضايا العقيدة والحياة ليقتنع بالفكرة - الحق ، التي ترتبط بالله ، وبالطريق- الحق الذي يصل بالإنسان إلى الله في أجواء رائعة تتحول فيها العقيدة إلى قضية تمتزج بالإحساس والشعور ، كما تنطلق فيه المشاعر الروحية في أجواء فكرية واسعة لئلا تعيش العقيدة جفاف الفكر ، أو يستسلم الفكر لسذاجة العاطفة" [2] .

وما قصة موسى — عليه السلام — عنَّا ببعيد ، فهي تتنقل في القرآن ما بين إيجاز ، وإطناب ، وتكرار ، وغيرها .ليتلقاها المتلقي أيّا كان مستواه الذي ينتمي إليه

٥- إعطاء الحكم النهائي للحلقة من خلال أسلوب الإيجاز :

المتأمل لحلقات قصة موسى — عليه السلام — يجد أن الله — سبحانه وتعالى — قد أطنب في بعضها ، وأوجز في أخرى ، وسِرُّ المزاوجة بين هذين الأسلوبين هو السعي للوصول إلى الحكم النهائي في جزئية من جزئيات قصته — عليه السلام - .

فعندما كلَّف الله — سبحانه وتعالى — موسى- عليه السلام - لملاقاة فرعون نجد أنّ السياق ذكر تفاصيل هذا التكليف بشيءٍ من الإطناب ، كما نجد ذلك في سورة طه ، حيث يقول- تعالى- في مطلع التكليف : ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾ [3] .

---

(١) السرد القصصي في القرآن الكريم ، د. ثروت أباظة ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، (د.ط) ، ص ٧٦ ، (د.ت) .

(٢) الإعجاز القصصي في القرآن ، د. سعيد عطية علي مطاوع ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط : ١ ، ص٣٥ ، ٢٠٠٦م .

(٣) سورة طه الآيات ١٣ — ٤٧ ؛ نظراً لطول الآيات اكتفيت بآيتين .

حيث ذكر الله – سبحانه وتعالى – كل ما له علاقة بالتكليف و لم يقتصر على الأشياء الأساسية بل تطرق إلى الأشياء الفرعية والتي لها علاقة بهذا التكليف .

ومن ناحية أخرى نجد أن الله – سبحانه وتعالى – يذكر هذا التكليف ولكن بشيء من الإيجاز ، كما نجد في ذلك في سورة النازعات ، حيث يقول –جل وعلا : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ﴾ [1] .

وهذه السورة التي يظهر فيها الإيجاز غايتُها "إبراز خلاصة الحديث ، وكأنه الحكم النهائي الذي يستنبطه حكمة هذا كله" [2] . وهذا سر من أسرار المزاوجة بين الأسلوبين .

٦- الملكة البيانية :

إن من الأساليب التي حظيت بها قصة موسى – عليه السلام – أسلوب التكرار [3] ، وقد تكررت حلقات موسى – عليه السلام – في سور عديدة على نحو ما نجده في سورة البقرة ، والنساء ، والمائدة ، والأعراف ... الخ .

وإذا أمعنا النظر في سر هذا الأسلوب ، وما الفائدة منه لا يسعني إلاّ أن أقف عند كلام الزركشي ، حيث يقول : "بل الفائدة في إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنىً واحداً ، وذلك من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة ، وتقوى البلاغة ، ولهذا أعيدت كثير من القصص على ترتيباتٍ متفاوتة ؛ تنبيهاً بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله ، مبتَدَأً به ومكرراً" [4] .

---

(١) سورة النازعات الآيات ١٥ – ٢٤ . نظراً لطول الآيات اكتفيت بآيتين

(٢) الإعجاز القصصي في القرآن ص١١٣ .

(٣) سنشير لهذه المسألة عندما تتحدث عن أسلوب التكرار في قصة موسى- عليه السلام - وذلك في الفصل الأول وموقفنا من ذلك .

(٤) البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد الزركشي ، دار الفكر ، بيروت ، ط : ١ ، ٨٧/١ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

"إنَّ عرض الموضوع الواحد بأساليب مختلفة من القول دون أن تتغير معالمه ، ودون أن يضعف أسلوب عرضه هو من العسير الذي لا يقدر عليه إلاّ من كان ذا ملكة بيانية ، واقتدار بلاغي ؛ وذلك في حدود لونين أو ثلاثة من ألوان العرض ، فإذا جاوز ذلك اضطرب الأسلوب ، وبهتت المعاني ، إلا أن يكون ذلك من تدبير الحكيم العليم ، رب العالمين " [1] .

حقاً إنه القرآن الذي تحدى الله به العرب بأن يأتوا بسورة من مثله كما – قال تعالى– : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [2] .

وبهذا يتضح – للقارئ الكريم – أسرار هذا التنوع الذي حظي به القرآن عامة، وقصة موسى – عليه السلام – بصفة خاصة ، وما تنطوي عليه من جمال وكمال ، ولا يمكن أن نقول إلاّ أننا أمام كتاب ليس أيّ كتاب ، قد حشد فيه رب العالمين أساليب لا يمكن حصرها ، وأسراراً يصعب جمعها ، ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق .

*****

(١) القصص القرآني في منظومه ومفهومه ، عبدالكريم الخطيب ص٢٣١ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٣ .

الفصل الأوّل

قصة موسى – عليه السلام – بين الإيجاز ، والإطناب ، والتكرار

تمهيـــد

لا شك أن المفاهيم والمصطلحات في وقتنا الحاضر ، قد تداخلت وتغيَّرت ، ومما ينبغي علينا وقبل الدخول في أساليب قصة موسى- عليه السلام – في القرآن أن نجلِّي – للقارئ الكريم- مفهوم الأسلوب ، من أجل أن نضع قاعدة نسير عليها ، توصلنا للدخول إلى عالم الأساليب التي جاءت عليها قصة موسى – عليه السلام – في القرآن فكان السؤال التالي ما الأسلوب ؟

جاء في لسان العرب لابن منظور عند حديثه عن مادة (سَلَبَ) : "ويقال للسَّطر من النخيل : أسلوبٌ . وكلُ طريقٍ ممتدٍّ ، فهو أُسلوبٌ . قال : والأسلوبُ : الطريق ، والوجهُ ، والمَذْهَبُ ؛ يقال : أنتم في أُسلوب سُوءٍ ، ويُجمَعُ أساليبَ ، والأُسلُوبُ الطريق تأخذ فيه . والأُسْلوبُ ، بالضم : الفَنُّ ؛ يقال : أخذ فلانٌ في أساليبَ من القولِ أي أفانين منه" [1] .

ويتضح من خلال كلام ابن منظور أنه قد جاء في تعريفه للأسلوب معانٍ عديدة ، وهذه المعاني منها ما هي حسية ، ومنها ما هي معنوية .

ولابن خلدون كلام طويل عن الأسلوب قد ذكره في مقدمته [2] عندما تحدث عنه في فصل صناعة الشعر ووجه تعلّمه .

وقد علَّق / أحمد الشايب بعدما نقل كلام ابن خلدون بقوله : "والذي يعنينا هنا أن الأسلوب منذ القدم كان يلحظ في معناه ناحية شكلية خاصة هي طريقة الأداء أو طريقة التعبير التي يسلكها الأديب لتصوير ما في نفسه أو لنقله إلى سواه ..

---

(١) لسان العرب ، مادة (سلب) ٣١٩/٦ .

(٢) ينظر : مقدمة ابن خلدون ، للعلامة عبدالرحمن بن محمد ، اعتنى به مصطفى شيخ مصطفى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط : ١ ص٦٣٨ ، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م . ولعل سبب عدم نقلي له يرجع إلى أمرين : الأول : نظراً لطوله المفرط . وثانياً : لأني قد وجدت كلاماً للدكتور/ أحمد الشايب قد يغنينا عن هذا الطول .

بهذه العبارات اللغوية ولا يزال هذا هو تعريف الأسلوب إلى اليوم ، فهو طريقة الكتابة ، أو طريقة الإنشاء ، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير ، أو الضرب من النظم والطريقة فيه" (١) .

وعندما نتحدث عن الأسلوب ، لا يمكن أن نغفل أسلوب القرآن ، ذلك الأسلوب المعجز ، الذي جاء مشتملاً على أساليب شتى ، قد تحدى بها العرب الذين عُرِفُوا بالفصاحة والبلاغة ، فعجزوا عن مجاراته ، ولا عجب في ذلك إنه تنزيل من حكيم حميد .

وقد تناول القرآن جميع نواحي الحياة ، وعلى مستويات عدة (اجتماعية ، ونفسية ، أخلاقية) ، وسطَّر كثيراً من قصص القرآن ، كقصة آدم ، ونوح ، وموسى – عليهم السلام – في روعة من الأسلوب والبيان ، يقف القارئ متأملاً ومتعجباً من هذا الأسلوب الذي يحرك المشاعر ، ويشوِّق إلى مزيد من القراءة بحيث لا تملُّه الآذان ، ولا يبلى مع كثرة الترداد ، وما عسانا إلا أن نقول : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (٢) .

يقول الرافعي عن أسلوب القرآن : "إن القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه ؛ لأنه ليس وضعاً إنسانياً ألبتة ، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوباً من أساليب العرب أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد" (٣) .

والقرآن جاء بأسلوب قصصي رفيع ومما " لا شك فيه أن القصة القرآنية تُعدُّ أول قصة ملتزمة عرفها الأدب العربي ، فإذا تأملنا في الأسلوب الذي قدمت به ، وما له من تأثير نفسي وفني ، اتضح وجه تسميتها بالقصة " (٤) .

---

(١) الأسلوب ، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ، د. أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط : ٧ ، ص٤٤ ، ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م .

(٢) سورة النجم : الآية ٤ .

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي، دار الأرقم ، القاهرة ، ط : ٣ ، ص١٦٤، (د. ت) .

(٤) الإعجاز القصصي في القرآن ص١٨١ .

وبعد هذا كله يمكننا أن ندلف إلى أسلوب القصة في القرآن ، لنرى ما فيها من إيجاز ، وإطناب ، وتكرار وغيرها ، وما حظيت به قصة موسى – عليه السلام – من هذه الأساليب .

.....

المبحث الأول
الإيجاز في قصة موسى عليه السلام

أولاً
الإيجاز عند البلاغيين

إنَّ الإيجاز في البلاغة العربية له مزية ومنزلة رفيعة ، وإن الناظر والمتأمل ليجد أسلوب الإيجاز من أشد الأساليب البلاغية حضوراً في بلاغتنا العربية منذ العصر الجاهلي إلى عصرنا الحاضر .

ولقد صنفه علماء البلاغة تحت (علم المعاني) ، ونظراً لأهميته نجد أن صاحب (سر الفصاحة) [1] نقل عن بعضهم أنه قال : البلاغة هي الإيجاز والإطناب . ولقد أشاد العرب في العصر الجاهلي بأسلوب الإيجاز ، مما حدا ببعضهم إلى حذف الحرف، والجملة ، والجمل ، إذا وجدوا المعنى تاماً بدونها وهذا ما نلمسه من خلال كلامهم ، وأدبهم ، وأشعارهم المبثوثة في كثيرٍ من تراثهم العريق .

ومن أمثلة ذلك قول زهير بن أبي سلمى [2] :

فـــإني لـــو لقيتـــك واتجهنـــا ٠٠ لكـــان لكـــل منكـــرة كفـــاء

يقول ابن سنان الخفاجي عن ذلك : " مقصوده أنني لو واجهتك لكان عندي مكافأة لك على كل أمر يبدو منك أنكره ، فقد أورد المعنى في لفظ قليل ، وبهذا كان يوصف شعر زهير أنه كثير الإيجاز مع الإيضاح لمعانيه " [3] .

---

(١) هو : عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان ، أبو محمد الخفاجي ، شاعر ، أخذ الأدب عن أبي العلاء المعري ، له عدة كتب منها : (سر الفصاحة) ، عاش في الفترة ما بين (٤٢٣ – ٤٦٦هـ) .
الأعلام ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط : ١٥ ، ١٢٢/٤ ٢٠٠٢م

(٢) هو : زهير بن أبي سلمى ، ربيعة بن رباح ، كان أحد المقدمين على سائر الشعراء ، وهو من أشهر شعراء الجاهلية في إعطاء الحكمة وضرب المثل .
ديوان زهير بن أبي سلمى ، دار صادر ، بيروت ، (د . ط) ، ص٥ ، (د . ت) . ولقد وجدت اختلافاً بسيطاً في البيت . فقد ورد البيت في الديوان كما يلي :
وإني لو لقيتك فاجتمعنا .. لكان لكل مُندِيةٍ لقاءُ . **(الديوان ص١٤)** .

(٣) سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط : ١ ، ص٢١٣ ، ١٩٨٢م – ١٤٠٢هـ .

ولقد وقع الخلاف بين علماء البلاغة حول سر لجوء العرب في العصر الجاهلي إلى (الإيجاز) .

فمنهم من يرى " أن السر في اهتمامهم بالإيجاز راجع إلى ظروف مجتمعهم ، فقد كان مجتمعاً تشيع فيه الأمية ، وتندر فيه الكتابة ، ولهذا كان عليهم أن يعتمدوا على ذاكرتهم من ناحية في الإبقاء على أدبهم الذي يصور حياتهم ، وعلى تناقله عن طريق الرواية جيلاً بعد جيل من ناحية أخرى ، ولكن الذاكرة مهما كانت قوية فإنها لا تستطيع أن تستوعب كل ما يقال – ولا سيما – إذا كان طويلاً ، وإذا استوعبت ما قدرت عليه من الكلام المسهب فإنها معرضة لنسيان بعضه بسبب طوله . ومن هنا ولهذه الاعتبارات كما يبدو ، كانت الحاجة إلى الإيجاز " [1] .

ومنهم من يرى أن "هذا التعليل يبدو لأول وهلة منطقياً متسقاً مع طبيعة الأشياء ، إلاّ أننا إذا أمعنا النظر نجد الأمر على عكس ذلك ، فالعربية أولاً لغة الإيجاز وهو من صميم طبيعتها ، ومن صلب ذاتياتها ، فقد تعبر عن الكلمات الكثيرة بالعبارة القصيرة ...ثم إن الحافظة والذاكرة عند أولئك كان ينميها ويعين عليها عوامل كثيرة ، بيئتهم الطبيعة من جهة ، وبيئتهم الاجتماعية من جهة أخرى ... فعدم التعقيد في العيش ، ورواج الصناعة الكلامية ، وكونها هي البضاعة الرائجة ، وعدم معرفتهم بالقراءة والكتابة ... من شأنها أن تعمل على تنمية هذه الحافظة ... ومع هذا كان الإيجاز فيهم أمراً محموداً .

وأكرم الله العرب وغيرهم بالإسلام ، ونزل القرآن فيه من الإيجاز ... وفُضِّل النبي – صلى الله عليه وسلم – على غيره – حتى من الأنبياء عليهم السلام – بأمور منها أنه أعطي جوامع الكلم " [2] .

---

(١) علم المعاني ، د. عبدالعزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت ، (د . ط) ص١٨٨ ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

(٢) البلاغة فنونها وأفنانها ، علم المعاني ، د. فضل حسن عباس ، دار الفرقان ، ط : ٧ ، ص٤٧١ ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م . بتصرف

وأرى أن الرأي الثاني أقرب إلى الصحة ؛ لأن اللغة العربية تهتم بالإيجاز أكثر من غيره ، وهذا الأسلوب أكثر قياساً مع طبيعة العربي الذي يتنقل من مكان إلى آخر كل حين ويعيش حياة تقوم على الأدنى من كل شيء ، فناسب ذلك أن يكون كلامهم قائماً على حدّ أدنى من الكلمات ، يتضح به المعنى ويتم به المقصود .

ومع بداية الإسلام ، نرى أسلوب الإيجاز حاضراً مع بدايته ، والقرآن ينزل على محمد – عليه الصلاة والسلام – وفيه من الإيجاز البديع الذي لا تكاد تخلو سورة من هذا الأسلوب المعجز الذي يعد مظهراً من مظاهر معجزة القرآن الخالدة .

والناظر في أسلوب – القُرآن الكريم – يجد أنه يراوح بين الأساليب ، وإذا كنا نتحدث عن الإيجاز فإن " كتاب الله مملوء بالإيجاز البديع ، والاختصار اللطيف ، والحذف الذي يكون في موضعه أحسن من الذكر " [1] .

وإن مما يميز هذا العصر ، وما أضفى على أسلوب الإيجاز ما فضَّل الله – سبحانه وتعالى – نبيه – عليه السلام – بالكلام المعجز الموجز ، حيث أوتي جوامع الكلم ، التعبير عن المعنى الكثير بالكلمات القليلة الموجزة .

يقول – عليه الصلاة والسلام - : (فُضِّلتُ على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ...) [2] .

ومن أمثلة الإيجاز في القرآن قوله تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [3] .

---

(١) الإيجاز في البلاغة العربية ، د. سليمان المنصور ، رسالة ماجستير ، إشراف : د. عبدالستار زموط ، ص ٤١٣ ، ١٤٠٨هـ .

(٢) مختصر صحيح مسلم ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري ، تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط : ٦ ، ص٧٥ ، باب : جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً برقم {٢٥٧} ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢ .

يقول الخطيب القزويني [1] : " أي هدى للضالين الصائرين إلى الهدى بعد الضلال . وحسنه التوصل إلى تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه ، وإلى تصدير السورة بذكر أولياء الله تعالى " [2] .

وإذا ما وصلنا إلى العصر العباسي نلاحظ أن مفهوم الإيجاز أخذ يتبلور عند أرباب البلاغة ، وإن اختلفت صيغ التعبير عندهم ، إلاّ أن مفهوم الإيجاز يكاد يكون واحداً . فما مفهوم الإيجاز من حيث اللغة والاصطلاح ؟ .

المصطلح والمفهوم :

الإيجاز من وَجُز الكلامُ وجازةً ووجْزاً وأوْجَزَ : قَلَّ في بلاغة . وأوجزه: اختصره .. يُقال: أوجزَ فلانُ إيجازاً في كل أمر . وأمرٌ وجيز وكلام وجيز : أي خفيف مقتصر [3] .

ويُعد أسلوب الإيجاز من أهم خصائص اللغة العربية .

قال معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنهما – لصُحَار العبدي ، ما الإيجاز ؟ قال : أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ ... [4] .

ومن اهتمام البلاغيين في الإيجاز أن وضعوا له تعاريف وتقسيمات مما ترفع من شأن هذا الأسلوب .

فهاهو الجاحظ [5] يحدد مفهوم الإيجاز بقوله : "الإيجاز هو الجمع للمعاني الكثيرة بألفاظ قليلة" [6] .

---

(١) هو : محمد بن عبدالرحمن بن عمر ، أبو المعالي ، جلال الدين القزويني الشافعي ، ومن كتبه : "الإيضاح في علوم البلاغة" ، ولد سنة ٦٦٦هـ ، وتوفي سنة ٧٣٩هـ . الأعلام ١٩٢/٦ .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ، للخطيب القزويني ، تحقيق : عبدالحميد هنداوي ، مؤسسة المختار بيروت ، ط : ١ ، ص١٧٨ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

(٣) لسان العرب ، مادة (وجز) ٢٢١/١٥ .

(٤) الحيوان ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، لبنان ، (د . ط) ، (د.ت) ، ٩٠/١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

(٥) هو : عمرو بن بحر ، أبو عثمان الشهير بالجاحظ ، من المعتزلة ، ومن كتبه : (الحيوان) ، ولد سنة ١٦٣هـ ، وتوفي سنة (٢٥٥هـ) . الأعلام ٧٤/٥ .

(٦) الحيوان ٨٦/٣ .

ولم يكتفِ بهذا التعريف بل نراه يتوسع في المفهوم ، حيث صار الإيجاز عنده مرتبطاً بالحاجة التي يتطلبها المعنى سواءً كان بألفاظ قليلة أم كثيرة [١] .

ولقد تطرق أبو هلال العسكري [٢] لمفهوم الإيجاز ، فقال : "الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة ، وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل داخل في باب الهذر والخطل وهما من أعظم أدواء الكلام ، وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة" [٣] .

والإيجاز عند السكاكي [٤] " هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط ، والإطناب هو أداؤه بأكثر من عباراته ، سواء كانت القلة أو الكثرة راجعة إلى الجمل ، أو إلى غير الجمل " [٥] .

ولم يغفل ابن الأثير [٦] تعريف الإيجاز في كتابه (المثل السائر) وعقد له فصلاً وقال : " وهو حذف زيادات الألفاظ " [٧] . ثُمَّ قال : "حد الإيجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه" [٨] .

---

(١) ينظر : الحيوان ٦/٧-٨.

(٢) هو : الحسن بن عبدالله ، سهل العسكري ، عالم بالأدب ، له شعر جيد ، ومن كتبه : (التلخيص) . الأعلام ٢/١٩٦ .

(٣) كتاب الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، طبع برخصة نضارة المعارف برقم (٥٤) ، مطبعة محمود بك ، ص١٣٠ ، ط : ١ ، ١٣١٩هـ .

(٤) هو : يوسف بن أبي بكر السكاكي الخوارزمي ، أبو يعقوب ، عالم بالعربية ، ومن كتبه : (مفتاح العلوم) ، ولد سنة (٥٥٥هـ) ، وتوفي سنة (٦٢٦هـ) . الأعلام ٨/٢٢٢ .

(٥) مفتاح العلوم ، للسكاكي ، مصر ، المطبعة الميمنية ، ص١٢٠ ، (د . ت) .

(٦) هو : أبو الفتح نصر الله بن أبي بكر محمد بن محمد الشيباني ، المعروف بابن الأثير الجزري ، الملقب بضياء الدين ، له مصنفات عدة منها : (المثل السائر في أدب الكاتب الشاعر) ، عاش ما بين سنة (٥٥٨ – ٦٣٧هـ) . (وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان ، لأبي عباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط : ٤ ، ٥/٣٨٩ ، ٢٠٠٥م .

(٧) المثل السائر ، لابن الأثير ، تحقيق : د. أحمد الحوفي ، د. بدوي طبانة ، دار الرفاعي ، الرياض ، ط : ٢ ، ٢/٣٠٣ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

(٨) المرجع السابق ٢/٣٠٧ .

ولقد وقف الخطيب القزويني عند الإيجاز ، وقال : الأقرب أن يقال : "هو تأدية أصل المراد بلفظ مساوٍ له أو ناقص عنه وافٍ ، أو زائد عليه لفائدة" [1] ، وهو بهذا التعريف يجمع بين الإيجاز ، والإطناب ، والمساواة ، فالأول المساواة ، والثاني الإيجاز ، والثالث الإطناب .

ويمكن أن نقول بعد هذه الجولة السريعة مع التعريفات التي ذكرها علماء البلاغة والأدب لمصطلح الإيجاز نلحظ أن هذه التعريفات " كلها لا تخرج عن القول بأن الإيجاز هو التعبير عن المعنى بألفاظ قليلة تدل عليه دلالة واضحة " [2] .

أنواع الإيجاز[3] :

أشار علماء البلاغة في حديثهم عن أنواع الإيجاز منذ القدم إلى أنه ينقسم إلى قسمين :

أولاً : إيجاز حذف .

وثانياً : إيجاز القصر .

معتمدين عليهما في التنقيب عن أسرار الإيجاز في البلاغة العربية .

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ص١٧٣ .

(٢) معجم المصطلحات البلاغية ، د. أحمد مطلوب ، دار العربية ، بيروت ، ط : ١ ، ٣٤٧/١ ، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م .

(٣) **تنبيه** : للعلماء في نوعي الإيجاز آراء وتفريعات نكتفي بالإشارة إلى بعضها ؛ فمن العلماء من قسم الإيجاز إلى قسمين كما عند ابن الأثير في (المثل السائر) ، حيث جعلها إيجاز حذف ، وإيجاز بدون حذف . وأكثر من التفريعات ، وحيث إن ابن الأثير لم يتابع في ذلك ، وكذلك ما أحشاه من الإطالة لفصلت فيه القول .
ومن العلماء من أخذ يفصل في الإيجاز الخالي من الحذف ، ويقسمه إلى ثلاثة أقسام : إيجاز القصر ، وإيجاز التقدير ، والإيجاز الجامع ، كما عند الطيبي في (التبيان) . وقد نقل عنه السيوطي في (الإتقان في علوم القرآن ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط : ٢ ، ٨١٠/٢ ، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م) ، ولكني أعرضت عن هذا خشية الإكثار من التقسيمات ، واعتمد في تقسيم الإيجاز إلى إيجاز القصر ، وإيجاز الحذف ، كما جاء في كتاب (الإيضاح في علوم البلاغة) ؛ لما يحمل هذا الكتاب من أهمية في أوساط من يتعلم العربية .

أولاً : إيجاز القصر :

وهو تقليل الألفاظ وتكثير المعاني ، وقد عرفه الخطيب القزويني بقوله : "وهو ليس بحذف" [١] .

يقول عنه ابن الأثير : "إنه أعلى طبقات الإيجاز مكاناً ، وأعوزُها إمكاناً ، وإذا وُجِدَ في كلام بعض البلغاء فإنما يوجد شاذاً نادراً" [٢] .

وقال عنه أيضاً : " إن التنبه لهذا النوع من الإيجاز عسر ؛ لأنه يحتاج إلى فضل تأمل " [٣] .

ومن الأمثلة المشهورة في إيجاز القصر قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [٤] .

يقول الخطيب القزويني معلقاً على هذه الآية : "فإنه لا حذف فيه ، مع أن معناه كثير ، يزيد على لفظه ؛ ولأن المراد به : أن الإنسان إذا علم أنه متى قَتَلَ قُتِلَ كان ذلك داعياً له قوياً إلى ألا يقدم على القتل . فارتفع بالقتل – الذي هو القصاص – كثير من قتل الناس بعضهم لبعض ؛ فكان في ارتفاع القتل حياة لهم ، وفضله على ما كان عندهم أوجز كلام في هذا المعنى ، وهو قولهم : "القتل أنفى للقتل" من وجوه [٥] .

ومن إيجاز القصر قول الشريف الرضي [٦] :

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ص١٧٧ .

(٢) المثل السائر ٣٨٥/٢ .

(٣) المرجع السابق ٣١٢/٢ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٤٣ .

(٥) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة ص١٧٧ ، وفضلت عدم ذكر الوجوه خشية الإطالة ولمعرفتها يرجع إلى الصفحة ١٧٧ .

(٦) هو : محمد بن الحسين الرضي العلوي الحسيني الموسوي ، مولده وفاته في بغداد (٣٥٩ – ٤٠٦) . (الأعلام ٩٩/٦) .

مـالوا إلى ُشـعَب الرحـال وأسـندوا ٠٠ أيدي الطِّعـان إلى قلـوب تخفـق [١]

" فإنه لما أراد أن يصفهم بالشجاعة في أثناء وصفهم بالغرام عبَّر عن ذلك بقوله : " أيدي الطعان" [٢] .

ومن العلماء من جعل إيجاز القصر والمساواة أمراً واحداً كالرماني ، فقد جاء عند ابن رشيق في العمدة قوله : " والإيجاز عند الرماني على ضربين : مطابق لفظه لمعناه لا يزيد عليه ولا ينقص عنه كقولك : " سل أهل القرية ، ومنه ما فيه حذف للاستغناء عنه في ذلك الموضع ، كقول الله – عزَّ وجل – : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [٣] ، فأما الضرب الأول كما ذكر أبو الحسن فهم يسمونه المساواة " [٤] .

وخلاصة الأمر ما ذكره المراغي – رحمه الله – حيث قال :

"واعلم أن علماء البيان افترقوا فرقتين ، فرقة منهم تثبت واسطة بين الإيجاز والإطناب ، وهي المساواة ، وعليها درج السكاكي ومن تبع طريقته ، وقالوا : إنها ليست محمودة ولا مذمومة ، وفرقة – منها ابن الأثير – في جماعة ذهبوا إلى نفي الواسطة ، ومن ثمَّ قسموا إيجاز غير الحذف إلى قسمين : إيجاز تقدير ، وهو ما ساوى لفظه معناه من غير زيادة ، وهذا هو المساواة على الرأي الأول ، وإيجاز قصر ، وهو ما يزيـد معناه على لفظه . ومن هذا تعلم أن الخلاف بينهم في الاسـم لا في المسمى" [٥] . ومع هذا الخلاف إلا أن الطريقة الأولى هي الأشهر في علم البلاغة .

---

(١) ينظر : ديوان الشريف الرضي ، المطبعة الأدبية ، بيروت ٥٤١/٢ ، ١٢٠٧ ، وقد أثبت في الديوان كلمة (خروا) بدلاً من (مالو) .

(٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ١/ ٣٦٢ .

(٣) سورة يوسف : الآية ٨٢ .

(٤) العمدة ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق : الدكتور عبدالحميد هنداوي ، دار المكتبة العصرية ، بيروت ، (د . ط) ٢١٩/١ ، ٢٠٠٧م – ١٤٢٨هـ .

(٥) علوم البلاغة والبيان والمعاني والبديع ، تأليف : د. أحمد مصطفى المراغي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (ب.ط) ، ص١٦٦ (د.ت).

ثانياً : إيجاز الحذف :

لقد أشاد العلماء بفن الحذف وما يؤول إليه من أسرار وجمال وخاصة في كلام الله عز وجل ، فالحذف باب عظيم يحسن بقارئ القرآن أن يُعْمِل فكره ويتأمل في سر هذا الحذف ، والله – سبحانه وتعالى – أنزل هذا القرآن بلسان عربي مبين ؛ ليفسح لك المجال في التفكر والتأمل والنظر في الحذف والذكر لنصل إلى الحكمة ، والهدف من وراء هذا الحذف يقول الشيخ عبدالقاهر الجرجاني [١] عن هذا الباب العظيم :

"هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر ، أفصَح من الذكر ، والصَّمَت عن الإفادة ، أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبِنْ" [٢] .

ولإيجاز الحذف تعريفات كثيرة وهذه التعريفات وإن اختلفت في الصياغة إلاّ أنها تدور حول فكرة محددة .

يقول الخطيب القزويني عن إيجاز الحذف : "وهو ما يكون بحذف" [٣] .

وقال بعضهم : "أن تحذف جزءاً من الكلام الذي نُعبِّر به عن المعنى المراد ، وقد يكون هذا الجزء كلمة ، وقد يكون جملة ، وهذا المحذوف لا بد أن يستغني الكلام عنه أي : يفهم بدونه ، كما أن هذا الحذف لا بد من قرينة تدل عليه" [٤] .

وأدلة الحذف كثيرة لكن لا مانع من الإشارة إلى بعضها كدلالة العقل ، ودلالة العادة ، ومنها الشروع في الفعل ، وكذلك اقتران الكلام بالفعل [٥] .

---

(١) هو : الشيخ عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني ، أبو بكر ، واضع أصول البلاغة ، له شعر رقيق ، ومن كتبه : (أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز) ، توفي سنة ٤٧١هـ . (الأعلام ٤٨/٤) .

(٢) دلائل الإعجاز ، عبدالقاهر الجرجاني ، علّق عليه : محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جدة ، ط : ٣٠ ، ص١٤٦ ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة ص١٨٠ .

(٤) البلاغة وفنونها وأفنانها ، فضل عباس ص٤٧٥ .

(٥) لمعرفة المزيد عن هذه الدلالات التفضّل بالرجوع إلى كتاب: الإيضاح في علوم البلاغة ، للقزويني ص١٨٦ .

والمحذوف كما أسلفنا سابقاً : إما أن يكون كلمة ، أو جملة ، أو أكثر من جملة ، وسنضرب أمثلة لتوضيح هذا المحذوف ، وغرضنا من ذلك هو التمثيل لا الحصر .

أولاً : حذف الكلمة :

إما أن يكون المحذوف مضافاً ، كقوله تعالى : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [1] ، أي : أهلها .

وإما موصوفاً كقوله: **أنا ابنُ جلا وطلاعُ الثنايا**[2]. أي: أنا ابن رجل جلا.

وإما صفة ، نحو : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [3] .

أي : كل سفينة صحيحة ، أو صالحة ، أو نحو ذلك ...

وكذلك قد يكون المحذوف شرطاً كقوله تعالى : ﴿ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [4] .

أي : فإن تتبعوني ، وإما أن يكون جواب شرط نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ [5] . أي : لرأيت أمراً فظيعاً .

ثانياً : ما يكون جملة :

وهو إما مسبب ، ذكر سببه ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [6] . أي : اخترناك أو بالعكس ، كقوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ ﴾ [7] أي : فضربه بها فانفجرت .

---

(١) سورة يوسف : الآية ٨٢ .

(٢) هذا البيت لسحيم بن وثيل الرياحي ، وعجزه : متى أضع العمامة تعرفوني . أورده : محمد بن علي الجرجاني في الإشارات ، ١٤٩ ، نقلاً عن : الإيضاح في علوم البلاغة ص ١٨٠ .

(٣) سورة الكهف : الآية ٧٩ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ٣١ .

(٥) سورة الأنعام : الآية ٢٧ .

(٦) سورة القصص : الآية ٤٦ . ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة ص ١٨٤.

(٧) سورة البقرة : الآية ٦٠ . ينظر : المرجع السابق ، ص ١٨٥.

ثالثاً : حذف الجُمل :

أكثر ما يرد حذف الجمل في كتاب الله – عزَّ وجل – ، ومن هذا المنطلق تتجلى عظمة هذا الكتاب .

يقول فضل عباس عن هذا النوع من الحذف : "لا تكاد تجده إلاّ في كتاب الله – تبارك وتعالى– ؛ ذلك أن الجملة ذات فائدة مستقلة ، وحينما تحذف فإن ذلك سيحدث خللاً في المعنى ، ونقصاً في الغرض المقصود ، فلا يستطيع أحد أن يرتب كلامه . بحيث إذا حذفت منه جمل مستقلة يؤدي الغرض المراد ، لكن كلام رب العالمين يعطيك المعاني كاملة ، وإنك مع ذلك تجد حلاوة الإيجاز في هذا الحذف ناشئة عن روعة الإعجاز ، وذلك كثير في كتاب الله تعالى" [1] .

ومن ذلك قوله – سبحانه– : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [2] أي : فضربوه ببعضها فحيي ، فقلنا كذلك يحي الله الموتى [3] .

وبعد أن عرفنا في الصفحات الماضية الإيجاز ، وتعريفه ، ومواضعه ، لا بدَّ من الإشارة إلى أن الإيجاز له دواعٍ منها على سبيل المثال : سهولة الحفظ ، تحصيل المعنى باللفظ اليسير ، تقريب الفهم ، وغير ذلك من الدواعي التي يستدعيها الإيجاز .

• • • • •

(١) البلاغة فنونها وأفنانها ، علم المعاني ، ص٤٨٣ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٧٣ .

(٣) اعتمد على تقسيم إيجاز الحذف على كتاب (الإيضاح في علوم البلاغة) مع التصرف البسيط في بعض الأمثلة ص١٨٠ .

ثانياً
الإيجاز في قصة موسى عليه السلام

ينبني هذا الفصل في سياقه المنهجي على البلاغة العربية التي تتوجه إلى دراسة بلاغة اللفظ ، غير أنني سأتجاوز حدود البلاغة العربية بالإفادة من بحوث حاولت أن تبث دماء جديدة في جسد البلاغة [1] .

ومن هنا آثرت دمج إيجاز الحذف ، وإيجاز القصر في سياقٍ واحد لنقف على ظاهرة الإيجاز في قصة سيدنا موسى – عليه السلام – المبثوثة في سور عدة من كتاب الله – عز وجل – ووصولاً بذلك إلى إبراز الإعجاز البلاغي الذي تحدى الله – سبحانه وتعالى – العرب بأن يأتوا بسورة من مثله . فكانت هذه الوقفات .

قال تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ [2] .

يتحدث – الله عزَّ وجل – في هذه الآيات عن نعم الله الكثيرة على بني إسرائيل ، وتفضيله – عزَّ وجل – لهم على من كان في زمانهم ، وإذا تأملنا في ألفاظ الآية الكريمة نجد أن البيان الإلهي "لم يدع أهل الكتاب إلى توحيد ولا اعتراف بالخالق لأنهم موحدون ، ولكنه دعاهم إلى تذكر نعم الله عليهم" [3] .

---

(١) من أمثلة ذلك كتاب : أحسن القصص رؤية بيانية جديدة في قصة يوسف ، أ. ياسر محمود الأقرع ، تقديم : أ. عبدالإله الحوري ، دار الإرشاد ، سوريا ، ط : ١ ، ٢٠٠٩م .

(٢) سورة البقرة : الآيات ٤٠ – ٨٩ ؛ نظراً لطولها اكتفيت بآيتين .

(٣) تفسير التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، (د . ط) ، ٤٤٨/١ ، ١٨٨٤م .

ونلحظ هنا الإيجاز في القصة من خلال الدخول للغرض الأساسي المتمثل في تذكر نعم الله على بني إسرائيل .

وإذا تأملت – قوله تعالى – معاتباً بني إسرائيل : ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [1] ، فلعلك تتساءل عن حذف المفعول الثاني للفعل (اتخذ) فالسر في ذلك – والله أعلم – أنه في "حذف المفعول الثاني لاتخذتم لظهوره وعلمهم به ، ولشناعة ذكره ، وتقديره معبوداً أو إلهاً " [2] ، وقد أفاد الحذف عظمة الله – سبحانه وتعالى – فلا معبود إلاّ الله .

وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [3] ، ففي هذه الآية يذكِّر الله – عز وجل – بنعمه على بني إسرائيل وهي حصول التوبة وقبولها والفاء في قوله : ﴿ فَتَابَ ﴾ عطفت على محذوف إيجازاً ، أي : ففعلتم فتاب عليكم أو فعزمتم فتاب عليكم " [4] .

ولو أمعنا النظر في قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [5] .

حيث يُفهم من فعل الأمر ﴿ ٱضْرِب ﴾ أنه سيفعل الضرب ، ومنعاً للتكرار حصل إيجاز بالحذف ، وهذا من حذف الجمل الفعلية، وهو "عطف على مقدر ، أي:

(١) سورة البقرة : الآية ٥١ .

(٢) التحرير والتنوير ٤٩٩/١ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٥٤ .

(٤) التحرير والتنوير ٥٠٥/١ .

(٥) سورة البقرة : الآية ٦٠ .

فضرب فانفلق ، ويدل على هذا المحذوف وجود الانفجار ، ولو كان ينفجر دون ضرب لما كان للأمر فائدة" [١] .

ويضيف سليمان المنصور معلقاً على هذه الآية : "ولكنه لم يقل (فضرب) وإنما ذكر لنا النتيجة المنبثقة عن ذلك الضرب ، فكأنه قد أثبت لنا (الضرب) بطريقة غير مباشرة مع دليله وهو (الانفجار)" [٢] .

وعند التأمل في قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [٣] .

فبعد أن طرقوا الأسئلة ، وعقَّدوا المسألة وجدوها ولكن الله- عز وجل -لم يذكر (الإيجاد) ، وهذا من مواطن الحذف المعلوم ، فقد عطفت الفاء جملة "فذبحوها" على مقدم معلوم فوجدوها أو فظفروا بها أو نحو ذلك ، وهـذا من إيجاز الحذف الاقتصاري [٤] .

ومن مواطن الحذف الذي يتجلّى في قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [٥] .

تشير هذه الآية الكريمة إلى محذوف ، وغرض هذا الحذف هو الإيجاز .

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لأبي الفضل شهاب الدين السيّد محمود الألوسي البغدادي ، تحقيق : الشيخ/ محمد أحمد الأمد ، والشيخ/ عُمر عبدالسلام السلامي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط : ١ ، ١-٣٦٧/٢ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

(٢) الإيجاز في البلاغة العربية ص٤٤٣ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٧١ .

(٤) لم أجد ما يدل على مفهوم (إيجاز الحذف الاقتصاري) علماً أنني بحثت في (معجم المصطلحات البلاغية وتطورها). فلم يشر إلى ذلك ، وبهذا لا يرتقي إلى كونه مصطلحاً . التحرير والتنوير ٥٥٦/١ .

(٥) سورة البقرة : الآية ٧٣ .

يقول صاحب الكشاف : "أي : فضربوه فحي" [1] . مع ملاحظة أن الله – عزَّ وجل – في هذه الآية ، وما سبقها من آيات يعلم علم اليقين أن المحذوف لا يمكن أن يستفاد منه لو ذُكِر، بخلاف البشر القائم علمهم على التوقّع ، فقد يحذف في مكان الأولى ألاَّ يحذف فيكون هناك نوع من الفجوات ، والثغرات في النص .

ولم يقصر الإيجاز في مواضع قصة موسى – عليه السلام – على حذف كلمة بل تعدى ذلك الحذف إلى أكثر من كلمة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ... قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ... ﴾ [2] .

يقول صاحب الكشاف بأن قوله : ﴿ فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره:" إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده " [3] ، فانظر إلى البلاغة القرآنية ، وما تنطوي عليه من أسرار ، ويكفي من هذه الأسرار " الإيجاز " .

وعند الوقوف على بعض آيات القرآن الواردة في سياق قصة موسى – عليه السلام – نجد قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [4] ، نجد أن هذه الآية قد اختصرت قصة موسى ببضع كلمات "لأن القصة هنا قد حكي جميعها باختصار بجمل ﴿ بَعَثْنَا ﴾ ، ﴿ فَظَلَمُوا۟ ﴾ ، ﴿فَٱنظُرْ﴾" [5]. حيث جمع السياق أهم الأحداث المتمثلة في [التكليف والإرسال ، ثم التكذيب ، ثم الهلاك والدمار].

وفي موضع آخر من السورة نفسها يختصر حادثة الإغراق ، حيث يقول :

---

(١) الكشاف ، للزمخشري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط : ١ ، ١-٧٢/٢ ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

(٢) سورة البقرة : الآية ٨٠ .

(٣) الكشاف ١-٧٢/٢ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٠٣ .

(٥) التحرير والتنوير ٣٧/٩ .

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [1] ، فالفاء العاطفة تدل على الترتيب والتعقيب لتنقل الحدث مباشرة من الانتقام إلى الإغراق "ولا يفصل أحداثه كما يفعلها في مواضع أخرى من السور ، ذلك أن الجو هنا هو جو الأخذ الحاسم بعد الإمهال الطويل ؛ فلا يعرض لشيء من التفصيل ... إن الحسم السريع هو أوقع في النفس وأرهب للحس" [2] .

والمتأمل في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [3] .

فبعد أن منَّ الله – عزَّ وجل – على موسى – عليه السلام – بآية العصا التي تنقلب حية بإذن ربها تسعى ، نجد أن هذه الحية تسارع في التلقف ولكن لا بدَّ أن يكون هناك أحداث قد جرت ما بين الإلقاء والتلقف ، ولكن السياق القرآني بروعة بلاغته يُوجز في الآية إيجازاً لا مثيل له " فقد دل السياق على جملتين محذوفتين ؛ إذ التقدير : فألقاها فدبَّت فيها الحياة ، وانقلبت ثعباناً فإذا هي تلقف ؛ دل على الجملة الأولى الأمر بالإلقاء ، وعلى الجملة الثانية التلقف [4] .

ولعلّ الله – عزَّ وجل – يريد أن يعطينا درساً حسياً في الاستجابة لأوامره كما حصل من هذه الحية التي ما إن ألقيت فما كان منها إلاّ أن بادرت لأمر ربها .

وفي سياق حديث القرآن عن تهديد فرعون للسحرة جاء السياق القرآني حاكياً عن ذلك بقوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [5] ، نلحظ أن الله – عزَّ وجل – يجمل التهديد في هذه الآية الكريمة ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ وقصد فرعون من ذلك زيادة الرعب

(١) سورة الأعراف : الآية ١٣٦ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/١٣٦٠ ، بتصرف .
(٣) سورة الأعراف : الآية ١١٧ .
(٤) التحرير والتنوير ٩/٤٩ .
(٥) سورة الأعراف : الآية ١٢٣ .

في قلوب السحرة ؛ ليجعلهم يعيشون العذاب قبل وقوعه، وليكون الخيال جنداً من جنوده ، فلربما يكون وقت التهديد أصعب بكثير من معاينة العذاب نفسه فلعلهم يرجعون عن موقفهم ولكنه لم يفلح في ذلك فأصدر حكمه المفصَّل بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف .

ويأتي الجواب غير المتوقع من قِبَل سحرة فرعون ، بقولهم : ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [1] ، ولكن لا غرابة في ذلك لمن خالط الإيمان بشاشة قلوبهم ، "وقد جاء هذا الجواب موجزاً إيجازاً بديعاً ؛ لأنه يتضمن أنهم يرجون ثواب الله على ما ينالهم من عذاب فرعون ، ويرجون منه مغفرة ذنوبهم ، ويرجون العقاب لفرعون على ذلك " [2] .

وإذا تتبعنا سياق قصة موسى – عليه السلام – في القرآن وحديثه عن السحرة لكن هذه المرة في سورة يونس : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [3] . فكلمة (فلما) توحي بسرعة إحضار هؤلاء السحرة على وجه السرعة ، والذي يدل على ذلك هو العطف بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب ، ولم يكتفِ السياق بإغفال مجيئهم ، واختصاره كما جاء في السياق ، بل تجاوز هذا الموقف بالكلية في هذه السورة بالذات ، وهذا دليل على أن السياق يريد أن يسارع إلى بيان نتائج الموقف من خلال الاكتفاء بعرض حلقة "بالقدر الذي يكفي لأداء هذا الغرض" [4] المقصود من السورة وهنا نلحظ أثر أسلوب الإيجاز على بناء القصة .

---

(١) سورة الشعراء : الآية ٥٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٩/ ٥٥ .

(٣) سورة يونس : الآيات ٧٩ – ٨٠ .

(٤) التصوير الفني في القرآن ، ص ١٦٢ .

وإذا تأملت – قوله تعالى- في سورة إبراهيم : ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ﴾ [1] ، نجد أنَّ الله – عز وجل – قد اختصر أموراً كثيرة بكلمة (أيام) ، واكتفى بالتذكير فقط . وهذه الأيام المختصرة تشمل النعم والنقم كما جاء عند المفسرين ؛ لأن التذكير يقع بالأمرين جميعاً [2] ، فلما كان الغرض من ورود القصة هنا التذكير اكتفى بالإجمال ، وابتعد عن التفصيل الوارد في مواضع أخرى من الكتاب الكريم .

ويصف الله – عزَّ وجل – العذاب بعد أن ذكَّر بني إسرائيل بنعمه بقوله : ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [3] ، مهدداً ومتوعداً بني إسرائيل بالعذاب الشديد ، وجاءت هذه الآية موجزة إذا ما قورنت بقوله : (لأعذبنكم عذاباً شديداً) .

ويصف الله – عزَّ وجل – العذاب بعد أن ذكر ما أنعم الله على بني إسرائيل بالشديد ، حيث قال تعالى : ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [4] .

يقول ابن عاشور : " واستغنى بـ (إن عذابي لشديد) عن (لأعذبنكم عذاباً شديداً) ؛ لكونه أعم وأوجز ، ولكونه إفادة الوعيد بضرب من التعريض ، أوقع في النفس ، والمعنى : إن عذابي شديد لمن كفر فأنتم إذن منهم " [5] .

ويمكن أن نقول : إن العمومية التي يشير إليها ابن عاشور تتجلى في الحمولة النفسية التي نجدها في قوله تعالى : ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ ؛ ذلك لأنها تعطي بياناً لدرجة العقوبة التي تنتظر الكافر ، وهو ما يسهم في تفعيل حالة الانتظار عند المتلقي ، وبالتالي يدفعه هذا إلى التساؤل أبداً عمّا إذا كان ممن يصدق عليه هذا اللون من

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٥ .

(٢) ينظر : تفسير ابن عطية المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، للقاضي أبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي ، تحقيق : عبدالله بن إبراهيم الأنصاري ، والسيد: عبدالعال السيد إبراهيم ، ط : ٢ ، ٢٠٣/٨ ، (د.ت) .

(٣) سورة إبراهيم : الآية ٧ .

(٤) سورة إبراهيم : الآية ٧ .

(٥) التحرير والتنوير ١٩٤/١٣ .

العقوبة أو لا ، وعليه فإن هذه الآية القائمة على أسلوب الإيجاز تحتمل عقوبة نفسية قبل العقوبة الحسية التي ينتظرها الكافر بنعم الله ، وهذا ما لا نجده في هذه الآية لو تجاوزت أسلوب الإيجاز كأن يقال : " لأعذبنكم عذاباً شديداً " .

وعندما نتأمل فيما حكاه الله – عزَّ وجل – عن موسى – عليه السلام- وفتاه ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾[1] ، يرشدنا البيان الإلهي إلى روعة البلاغة القرآنية ، حيث إن القصة ابتدأت ابتداءً عجيباً في باب الإيجاز ، ويظهر ذلك من خلال كلمة (لا أبرح) ، إلاّ أن صاحب الكشاف أرجع ذلك إلى المعنى ، حيث قال : "إن كان بمعنى لا أزول من برح المكان فقد دل على الإقامة لا على السفر ، وإن كان بمعنى لا أزال ، فلا بدّ من الخبر ... وقد انحاز إلى المعنى الثاني أي بمعنى : لا أزال ، مستدلاً على ذلك بقوله : إن الحال والكلام يدلان عليه أما الحال فلأنها كانت حال سفر ، وأما الكلام فلأن قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ غاية مضروبة وتستدعي ما هي غاية له" [2] .

والذي يؤيد ما ذهب إليه صاحب الكشاف في نظري أنه من المعلوم أن الحرف (حتى) يأتي لانتهاء الغاية ، كما تقول " سهرت حتى الصباح " ، وعلى هذا المعنى تكون لا أبرح بمعنى : (لا أزال) ، ولا ننسى كلمة (أبلغ) الدالة على السير .

وهنا يأتي جمال الإيجاز الذي تستطيع أن تفهم هذه الحالة دون ذكرها ، ولم يقف الإيجاز في قصة موسى – عليه السلام – مع فتاه إلى هذا الحد ، بل إن السبب الذي خرج مُوسى – عليه السلام – من أجله لم يذكر في الآية الكريمة ، وإن كان قد

(١) سورة الكهف : الآية ٦٠ .

(٢) الكشاف ١-٢/٦٦٦ بتصرف .

ورد في السنة النبوية [1] ؛ ولعلّ السر في ذلك ما يتركه الحذف من التشويق ، وإثارة الفكر لمعرفة السبب .

وعندما ننظر إلى جواب موسى وهارون- عليهما السلام – الذي يقول عنه تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [2] .

مما دفع الزمخشري إلى أن يقول : "ولله در هذا الجواب وما أخصره ، وما أجمعه ، وما أبينه لمن ألقى الذهن ، ونظر بعين الإنصاف وكان طالباً للحق" [3] .

وتأكيداً لكلام الزمخشري فإن هذه الآية وبهذه الكلمات البسيطة قد جمعت نعم الله الحسية والمعنوية التي لا يمكن عدها ولا حصرها .

وعن العذاب الذي لحق بفرعون وقومه: ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾ [4] .

فتأمل كم اختزلت هذه الآية من المعاني العظيمة ، والتصاوير الهائلة والتي يقف العقل البشري عاجزاً عن تخيل هذا العذاب .

يقول ابن الأثير : "هذه الآية من جوامع الكلم التي يُستدلُ على قلتها بالمعاني الكثيرة ، أي : غشيهم من الأمور الهائلة ، والخطوب الفادحة ما لا يعلم كنهه إلا الله ، ولا يحيط به غيره" [5] .

ومن الآيات التي جمعت تحركات فرعون لضرب الدعوة الإيمانية بإيجاز قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾ [6] .

---

(١) لمعرفة القصة بالتفصيل يرجع إلى كتاب صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري ، دار السلام ، الرياض ، ط: ٢، ص ٨٢١، رقم الحديث (٤٧٢٧) ، كتاب التفسير ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٠م .

(٢) سورة طه : الآية ٥٠ .

(٣) الكشاف ١-٢/ ٧٠٨ .

(٤) سورة طه : الآية ٧٨ .

(٥) المثل السائر ٣٨٢/٢ .

(٦) سورة طه : الآية ٦٠ .

يقول سيد قطب : "ويجمل السياق في هذا التعبير كل ما قاله فرعون وما أشار به الملأ من قومه ، وما دار بينه وبين السحرة من تشجيع ، وتحميس ، ووعد بالمكافأة ، وما فكر فيه وما دبر هو ومستشاروه بجملة (فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى) . وتصور تلك الآية الواحدة القصيرة ثلاث حركات متواليات : ذهاب فرعون ، وجمع كيده ، والإتيان به" [1] .

وأحياناً يتجلّى الإيجاز برسم صورة ترشد إلى المراد من الآية كما جاء في سورة الفرقان في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [2] .

وهذا النظم والبيان الإلهي وما فيه من الإيجاز العجيب قد اختصر القصة اختصاراً .

يقول الزمخشري : " أراد اختصار القصة فذكر حاشيتها أولها وآخرها " [3] .

وعندما نقرأ نهاية الآية الثانية نلحظ أن السياق "يرسم مصيرهم في عنف وإجمال .. ﴿ فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ " [4] ، وهذا جزاء من كذب بالرسل فنهاية التكذيب التدمير .

وعندما تحدث الله – عزَّ وجل – عن الآيات في سورة الشعراء آمراً موسى وهارون- عليهما السلام - بالذهاب إلى فرعون ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [5] .

فلم يكن هناك ذكر ولا تفصيل للآيات التي شهدها بنو إسرائيل كالعصا واليد البيضاء ... الخ .

---

(١) في ظلال القرآن ٢٣٤١/٤ .

(٢) سورة الفرقان : الآيات ٣٥ – ٣٦ .

(٣) الكشاف ٣-٨١٥/٤ .

(٤) في ظلال القرآن ٢٥٦٤/٥ .

(٥) سورة الشعراء : الآية ١٥ .

بل قال ﴿ بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ ، وهذا الاختصار جاء من أجل أن التركيز في هذه السورة موجه إلى موقف المواجهة ، وموقف السحرة ، وموقف الغرق والنجاة [1] .

ولذلك جاءت هذه الآيات مجملة دون تفصيل .

وتأتي آية أخرى تختزل في كلماتها كثيراً من الإيجاز على طريقة العرض القرآنية ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [2] ، فبعد أن أمرهما الله – عزَّ وجل – بالذهاب إلى فرعون إذ بنا نتفاجأ بمثولهما أمام فرعون "لنجد أنفسنا أمام مشهد المواجهة ، وقد اختصر ما هو مفهوم بين المشهدين على طريقة العرض القرآنية الفنية" [3] ، والتي تنقل – القارئ الكريم – من مشهد إلى مشهد دون انقطاع في الأفكار ، وهذا من كمال الإعجاز .

وإذا تأملت قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [4] ، حيث جاءت هذه الآية بعد الوحي في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ﴾، فلا بدَّ أن يكون هناك كلام قد طوي "وظاهر ترتيب الجمل يقتضي أن الفاء للتعقيب على جملة وأوحينا إلى موسى ، وأن بين الجملتين محذوفاً تقديره : فأسرى موسى ، وخرج بهم ، فأرسل فرعون حاشرين" [5] .

وعندما تقرأ قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ [6] ، نلحظ أن فيها سرعة في طلب الأمر ، وقد جاءت هنا باختصار ، حيث لا يذكر ذلك النجاء الطويل الذي في سورة طه ؛ لأن العبرة المطلوبة هي عبرة النداء والتكليف [7] .

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن ٥/٢٥٩٠ .

(٢) سورة الشعراء : الآية ١٨ .

(٣) في ظلال القرآن ٥/٢٥٩٠ .

(٤) سورة الشعراء : الآية ٥٣ .

(٥) التحرير والتنوير ١٩/١٢٩ .

(٦) سورة النمل : الآية ١٠ .

(٧) ينظر : في ظلال القرآن ٥/٢٦٢٩ .

وتطالعنا ظاهرة الإيجاز في القرآن في حلقات قصة مُوسى – عليه السلام – وخاصة في سورة القصص التي ذُكِر فيها أغلب الحلقات كما جاء فيها قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [1] .

فقد جمعت هذه الآية أبواباً شتى من ألوان البلاغة .

حيث إنها " من أعظم آي في القرآن فصاحة ، إذ فيها أمران ونهيان وخبران وبشارتان" [2] .

ومن ذلك عندما انشغل فؤاد أم موسى على وليدها فأمرت أخته بالبحث عنه فقال الله عن ذلك : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [3] .

فلو تأملت الفاء في كلمة ﴿ فَقَالَتْ ﴾ فإنها توحي بجملة مقدرة "أي فأظهرت أخته نفسها كأنها مرت بهم عن غير قصد وعرضت سعيها في ذلك بطريقة الاستفهام المستعمل في العرض تلطفاً مع آل فرعون ، وإبعاداً للظنة عن نفسها" [4] .

فكأن القرآن ببلاغته يرسم لك الحدث كأنك تراه في روعة بيان ، وجمال تصوير بآلة أسلوب الإيجاز .

وعندما عبَّر الله – عزَّ وجل – عن خروج مُوسى – عليه السلام – إلى مدين هائماً على وجهه إذا به يرد الماء كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ [5] .

---

(١) سورة القصص : الآية ٧ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٨/٣ .

(٣) سورة القصص : الآية ١٢ .

(٤) التحرير والتنوير ٨٤/٢٠ .

(٥) سورة القصص : الآية ٢٣ .

وهذه الآية الكريمة تحمل في طياتها ألواناً من الإيجاز البديع كما في كلمة (يسقون) ، فقد جاءت هذه الكلمة عامة بيّنت عملهم . (يسقون) . "أي : مواشيهم، وحذف المفعول ؛ لأنه غير مراد ، والمراد الفعل ، وكذلك ما بعده ، فإن رحمته – عليه الصلاة والسلام – لم تكن لكون المذود والمسقي غنماً ، بل لمطلق الذياد ، وترك السقي" [1] .

وفي الآية نفسها تطالعنا كلمة ﴿ تَذُودَانِ ﴾ . فقد اختار القرآن بجمال سياقه كلمة تحمل في طياتها كثيراً من الدلالات ، والمعاني التي تتوارى خلال هذه الكلمة ، حيث اختصرت جملة من الأفعال ، التي قامت بها المرأتان ، من ذلك إبعاد الأغنام ، حيث يظهر أنهما في حالة ضعف بدليل قول ابن عباس "تذودان غنمهما عن الماء خوفاً من السقاة الأقوياء" [2] .

وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩ ﴾ [3] .

فكم اختزلت كلمة ﴿ ءَاذَوۡاْ ﴾ ألواناً من العذاب والأذى الذي فعله بنو إسرائيل بنبيهم موسى – عليه السلام – مع أنه أنقذهم من بطش فرعون وقومه ، ومع هذا لم يسلم من الأذى ، وقد جاء ذكر الأذى الذي لحق بموسى في القرآن وفي السنة النبويـة [4] .

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ، وضع حواشيه : عبدالرزاق غالب المهدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط : ١ ، ٤٧٦/٥ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، أبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، تحقيق : عبدالرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط : ٤ ، ٢٣٩/١٣ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

(٣) سورة الأحزاب : الآية ٦٩ .

(٤) لمعرفة صور الإيذاء ينظر : في ظلال القرآن ٣٥٥٥/٦ ، وكذلك : صحيح البخاري ، كتاب : أحاديث الأنبياء ، الباب (٢٨) ، ص ٥٧١ ، رقم الحديث (٣٤٠٤) .

ولكن في هذه الآية جاء الأذى مجملاً ولم يحدد نوعه ، وما ذاك إلا ليترك للعقل أن يسبح في خيالات وألوان الأذى ، ولا غرابة في ذلك فهذا ديدن الرسل وعلى رأسهم نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وفي هذا السياق تكون التسلية لسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم - .

ويقول الله – عزَّ وجل - : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [1] .

وعند التأمل في هذه الآية نجد أن كلمة ﴿ قَبْلَهُمْ ﴾ توحي بأنهم مفتونون لا محالة وأن هناك جملاً مقدرة .

حيث "أشعر قوله ﴿ قَبْلَهُمْ ﴾ أن أهل مكة سيفتنون كما فُتِن قوم فرعون ، فكان هذا الظرف مؤذناً بجملة محذوفة على طريق الإيجاز ، والتقدير : إنا منتقمون ففاتنوهم فقد فتنا قبلهم قوم فرعون" [2] .

فهذا كله مما توحي به الآية الكريمة التي تحتاج إلى شيء من التأمل والتدبر .

وقد امتاز البيان الإلهي باختيار الألفاظ التي تحمل في طياتها المعاني الكثيرة ، فبعد أن تحدث الله – عزَّ وجل – في سورة النازعات جاءت الأحداث مختصرة سريعة المشاهد وفي معرض الخطاب الموجه للطاغية (فرعون) جاء الخطاب "بأحب أسلوب وأشده جاذبية للقلوب ، لعلَّه ينتهي ويتقي غضب الله وأخذه" [3] .

قال تعالى : ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [4] .

فلقد اختار القرآن كلمة (تخشى) ، وإن الناظر في هذه الكلمة ليدرك أن في "الاقتصار على ذكر الخشية إيجازاً بليغاً ؛ لأن الخشية ملاك كل خير" [5] .

---

(١) سورة الدخان : الآية ١٧ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٩٤/٢٥ .

(٣) في ظلال القرآن ٣٨١٤/٦ .

(٤) سورة النازعات : الآيات ١٨ – ١٩ .

(٥) التحرير والتنوير ٧٧/٣٠ .

هذا وبعد أن استعرضنا ما جاء في قصة موسى – عليه السلام – من إيجاز لا يسعنا إلاّ أن نقول :

(١) لم يقتصر الإيجاز في قصة موسى – عليه السلام – على حذف كلمة ، بل تجاوز ذلك إلى حذف مشهد بكامله ؛ هذا وإن دلَّ على شيءٍ فإنما يدل على عظمة القرآن ، وأسلوبه البديع الذي جعله يحذف أشياء لا تعني السامع والقارئ ، وهذا ما يميز القرآن ، فجمع بين الانسياب ، والاختصار في الأقوال والأفعال ، والأزمنة والأمكنة في آنٍ واحد ، دون قطع للأفكار .

(٢) أن الله – عزَّ وجل – يعلم علم اليقين أن المحذوف لا يمكن أن يستفاد منه لو ذُكِرَ بخلاف البشر القائم علمهم على التوقّع ، فقد يحذف في مكان الأولى ألاَّ يحذف فيكون هناك نوع من الفجوات ، والثغرات في النص .

(٣) أن الحذف والإيجاز لا يقل دوراً في إبراز المعنى عن الذكر والإطناب ؛ لأن وجود ذلك الإيجاز يدفع بالفهم والعقل إلى التأمل والتساؤل ورسم الكثير من الصور ، والأحداث – لا سيما – في الفن القصصي .

(٤) على الرغم من تعدد القراء ، واختلاف أحوالهم ، وأجناسهم ، وثقافاتهم ، إلاّ أن هذا لم يمنعهم من فهم القرآن مع ما فيه من إيجاز يتخلل قصصه كقصة موسى – عليه السلام – هذا إذا دل على شيءٍ فإنما يدل على إحاطة الله – عزَّ وجل – بأحوال السامعين ، والمخاطبين ، صغاراً كانوا أو كباراً ، بخلاف القصص البشرية التي قد يجتهد كاتبها ، فيوجز ، ومن ثمَّ تتعقد الأحداث ،مما ينسحب ذلك الخلل على القصة ككل ، وهذا راجع إلى قصور الكاتب ، وجهله بمعرفة أحوال المخاطبين .

*****

المبحث الثاني
الإطنـــاب في قصة موسى عليه السلام

أولاً
الإطناب عند البلاغيين

الإطناب من الأساليب العربية التي سجَّلت حضوراً مميزاً بل : منذ بدأ الكلام العربي لبلاغتنا العربية .

ويعد الإطناب فرعاً من فروع علم المعاني ، ولقد حفلت كتب البلاغة قديماً وحديثاً بالحديث عن أسلوب الإطناب من حيث – التعريف والتقسيم والتمثيل – على مرِّ العصور الأدبية .

والقرآن الكريم ليس بمعزل عن هذا الأسلوب ولا أدلَّ على ذلك من أن "معظم أمثلة الإطناب مستقاة من القرآن الكريم ، بل إن من فنون الإطناب ما لم تخرج عن ظلال القرآن ، مما يدل على أهمية الكتاب الكريم لا في وضع بذور الإطناب فحسب كما هو الشأن في كتب اللغويين ، بل في تطويرها وإرساء قواعدها" (١) .

وأسلوب الإطناب من الأساليب الحاضرة في القرآن الكريم ، وما ذاك إلا لما في هذا الأسلوب من إقناع يشفي المتلقي أياً كان وهذا ما نلمسه في حوارات القرآن ، وقصصه ، ومناقشاته ، ولذلك كان دراسة أسلوب الإطناب في قصة موسى – عليه السلام – جديراً بالبحث والاهتمام . ولكي نصل إلى تجليات أسلوب الإطناب في قصة موسى – عليه السلام – لا بدَّ من الوقوف على الإطناب من حيث المصطلح والمفهوم .

(١) الإطناب في البلاغة العربية ، دراسة فنية ، سفادغوا أحمد ، رسالة ماجستير ، إشراف : الشيخ عبدالعزيز بن عبدالرحمن الشعلان ، ٤٧٦/٢ ، ١٤١٥- ١٤١٦هـ .

المصطلح والمفهوم :

الإطناب : البلاغة في المنطق والوصف . يقال : أطنب في الكلام . بالغ فيه ، والإطناب المبالغة في مدح أو ذم والإكثار فيه [١] .

إن مما يميز اللغة العربية الأساليب التي جعلت من هذه اللغة لغة عظيمة ، ومنها أسلوب الإطناب ، ولقد تناوله علماء البلاغة بالبحث والتدقيق .

وأخذ هذا المصطلح حيزاً كبيراً من اهتمام علماء البلاغة ، ولعلنا نسلط الضوء على هذا الجانب .

حيث أشار الجاحظ إلى الإطناب ، فقال : "وقد أبقيت – أبقاك الله – أبواب توجب الإطالة وتُحوج إلى الإطناب . وليس بإطالة ما لم يجاوز مقدار الحاجة ، ووقف عند منتهى البغية" [٢] .

وقال عنه السكاكي : " والإطناب : هو أداؤه بأكثر من عباراتهم ..." [٣] .

وقال ابن الأثير : "والذي يُحَدُّ به أن يقال : هو زيادة اللفظ عن المعنى لفائدة" [٤] .

وبعد هذه التعريفات نستطيع القول بأن تعريف ابن الأثير هو الأقرب إلى الصواب .

"فالإطناب إذاً : زيادة اللفظ على المعنى لفائدة – كما يقول ابن الأثير – والتعريفات التي قيلت قبله وبعده لا تخرج عن هذا المعنى" [٥] .

---

(١) لسان العرب ، مادة (طنب) ، ٢٠٦/٨ .

(٢) الحيوان ٧/٦ .

(٣) مفتاح العلوم ص١٢٠ .

(٤) المثل السائر ٣٩٣/٢ .

(٥) البلاغة فنونها وأفنانها ، علم المعاني ، ص٤٩٨ .

ومع هذا الترجيح فإنه لا بدَّ أن نُفرق بين الإطناب والتطويل حتى لا تُعاب بعض الأمثلة المحسوبة على الإطناب . ونظراً للخلط الذي قد يقع فيه بعض دارسي هذا الفن .

الفرق بين الإطناب والتطويل :

تحدث ابن الأثير عن الفرق بين (الإطناب والتطويل) وحتى تكتمل الصورة أدرج معهما الإيجاز فقال : "إن مثال الإيجاز والإطناب والتطويل مثال مقصد يُسلك إليه ثلاثة طُرق : فالإيجاز هو أقرب الطرق الثلاثة إليه ، والإطناب والتطويل هما الطريقان المتساويان في البعد إليه ، إلا أن طريق الإطناب تشتمل على منزهٍ من المنازه ، لا يوجد فيه طريق التطويل" [(١)] .

ولتوضيح الأمر أكثر يقول عن ذلك ابن الأثير : "التطويل هو زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة" [(٢)] .

وبهذا يتضح الفرق بينهما والمقياس الذي يحدد كلاً منهما هي الفائدة من حيث وجودها وعدمها .

أنواع الإطناب :

عند حديث العلماء عن أنواع الإطناب نلحظ أن الخلاف وقع بينهم من حيث العدد ؛ وذلك لما لمسوه من تعدد الأسباب المؤدية لزيادة اللفظ عن المعنى ، ولكن المشهور عند البلاغيين ما ذكره الخطيب القزويني ، حيث جعل أنواع الإطناب تسعة أنواع [(٣)] .

---

(١) المثل السائر ٢/٢٩٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص٣٩٣ .

(٣) ينظر : بلاغة الإطناب في سور المفصل ، راشد الكعبي ، رسالة ماجستير ، إشراف : الشيخ عبدالعزيز بن عبدالرحمن الشعلان ، جامعة الإمام ، ص١٨ ، ١٤٢٥ – ١٤٢٦هـ .

وإذا كنا نتحدث عن أسلوب الإطناب في حلقات قصة موسى – عليه السلام – . فسأذكر الأنواع بشكل إجمالي ، ومن ثم أقتصر على الأنواع التي تتلاءم مع قصة موسى عليه السلام .

(١) الإيضاح بعد الإبهام .

(٢) ذكر الخاص بعد العام .

(٣) الإيغال .

(٤) التذييل .

(٥) التكميل "الاحتراس" .

(٦) التتميم .

(٧) الاعتراض أو غير ذلك .

(٨) التكرير [١] .

وقبل الحديث عن هذه الأنواع المتعلقة بحلقات قصة موسى – عليه السلام – فلا بدَّ من الإشارة إلى أن هناك دواعي ، وأسباباً للإطناب ، ومنها على سبيل المثال : "بيان وتوضيح المعنى ، التهويل ، التعظيم ، المبالغة ، الوعد ، الوعيد ، الموعظة المدح والذم ، توصيف الأحوال ، التوبيخ والتقريع ، الابتهال ، والدعاء ، الامتنان" [٢] .

(١) نقلت هذه الأغراض من كتاب الإيضاح في علوم البلاغة ما بين ص ١٨٩ – ٢٠٠ .

وقد ارتضيت أن أفرد (التكرار) ببحث مستقل نظراً لكونه أشهر أنواع الإطناب ، ولما لهذا الأسلوب من أهمية خاصة في مجال تكرار قصص القرآن ، ومنها على سبيل المثال قصة موسى عليه السلام .

(٢) لمعرفة تفاصيل هذه الدواعي والأسباب ، ينظر : بلاغة الإطناب في سور المفصل ، ص (١٩ – ٣١) . .

١- الإيضاح بعد الإبهام :

وقد قال عنه الخطيب القزويني : "ليرى المعنى في صورتين مختلفتين أو ليتمكن في النفس فضل تمكن ، فإن المعنى إذا ألقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح ..." (١) .

٢- ذكر الخاص بعد العام :

وقد قال عنه الخطيب القزويني : "وذلك للتنبيه على فضله ، حتى كأنه ليس من جنسه" (٢) .

٣- الإيغال :

عرَّف علماء البلاغة الإيغال بقولهم : "هو ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها" (٣) .

ولتوضيح المعنى أكثر يمكن أن يُقال : "لفظ زائد على ما قصده الشاعر ، يتمم به قافيته ، ويؤدي به معنى ، فإذا كان اللفظ لإتمام القافية ، ولا يفيد معنى ، فليس من الإيغال" (٤) .

ومن أمثلة الإيغال في أشعار العرب ، قول الخنساء :

وإن صخراً لتأتم الهداة به ٠٠ كأنه علم في رأسه نار (٥)

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ص١٨٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٩٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص١٩٢ .

(٤) البلاغة فنونها وأفنانها ، وعلم المعاني ، ص٥٠٦ .

(٥) هي : تماضر بنت عمرو بن الحارث الملقبة بالخنساء ، ولدت قبل الهجرة سنة ٥٧٥م ، وتوفيت سنة ٦٦٤م ، الموافق : ٢٤٠هـ .

ينظر : ديوان الخنساء ، شرح : فايز محمد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط : ٢ ، ص٧ – ١١ ، ١٤١٦هـ .

ولقد وقع الخلاف في الإيغال حول ما إذا كان ينطبق على فني الشعر والنثر ، أم أنه خاص بالشعر ؟ .

وإذا تتبعنا اشتقاق الإيغال "نجد أنه إما أنه مأخوذ من (إسراع) الشاعر إلى القافية ، أو (توغله) فيها ، فالعلاقة قوية بين اشتقاق الإيغال والمجال الذي ارتبط به منذ النشأة وهو (الشعر)" [١] .

وأرى أن الإيغال على الصحيح أنه لا يكون إلا في الشعر .

ولذلك أعرضت عن تلمس الإيغال في قصة موسى عليه السلام [٢] .

٤- التذييل :

جاء تعريف (التذييل) عند الخطيب القزويني بقوله : "هو تعقيب جملة بجملة أخرى تشتمل على معناها للتأكيد" [٣] .

٥- التكميل والاحتراس :

جاء تعريف "التكميل" عند الخطيب القزويني بقوله : "وهو أن يؤتى به في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه" [٤] .

وقد يقال له (التكميل) ، وقد يقال : (الاحتراس) .

وأحياناً يأتي في وسط الكلام ، وأحياناً يأتي في آخر الكلام [٥] .

ومما جاء في ذلك قول ابن المعتز [٦] :

---

(١) الإطناب في البلاغة العربية ٤٨٤/٢ .

(٢) لمعرفة المزيد عن الخلاف في "الإيغال" هل هو خاص بالشعر أم بالشعر والنثر . يرجع إلى المرجع السابق ٤٨٤/٢ .

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة ص١٩٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص١٩٤ .

(٥) المرجع السابق ، ص١٩٥ .

(٦) هو : عبدالله بن المعتز الخليفة العباسي ، ولد في بغداد ٢٤٩هـ ، وتوفي سنة ٢٩٦ ، كان رقيق الألفاظ ، وله عناية خاصة بالتشبيه حتى إنه يقول : إذا قلت كأن و لم آت بالتشبيه بعدها فض الله فمي [ديوان ابن المعتز ، دار صادر ، بيروت ، د. ط ، ، ص ٥ ، ٦ ، ٣٦٤ د. ت] .

صببنا عليها – ظالمين – سياطنا ٠٠ فطارت بها أيدٍ سراعٍ وأرجلٌ

يتضح من خلال البيت أن السياط قد صُبَّت على الفرس .

"وأنت تعرف أن السياط إنما تصب على الفرس البليد ، ولكن ابن المعتز – وقد أدرك أن كلامه يوهم غير المقصود – أراد أن يحترس بما يزيل هذا الوهم ، ويُبدّد هذا الفهم ، فجاء بكلمة (ظالمين) ، فهو يقول : إن السياط التي صُبت على هذا الفرس لا لبلادة فيه ، بل ذلك ظلم منا" [١] .

٦- التتميم :

وقد جاء تعريفه عند القزويني بأنه أن : "يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضله ، لنكتة بلاغية كالمبالغة" [٢] .

ومما جاء من الشعر في التتميم :

قول زهير في مدح هرم بن سنان :

من يلق يوماً – على عِلاَّتِهِ – هَرِماً ٠٠ يلق السماحة منه والندى خُلُقاً [٣]

يقول ابن رشيق : "قوله (على عِلاَّتِهِ) مبالغة ، وتميم عجيب" [٤] .

فالسماحة والندى من طبيعته ، ومن سجيته ، ولا ينصرف عن تلك الصفات مهما كانت العلل .

٧- الاعتراض :

جاء تعريف الاعتراض عند القزويني بأنه : " أن يؤتى في أثناء الكلام ، أو بين كلامين متصلين معنى ، بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة" [٥] .

---

(١) البلاغة فنونها وأفنانها ، علم المعاني ، ص٥١٣ .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ص١٩٦ .

(٣) ينظر : ديوان زهير بن أبي سلمى ص٤٣ ، بدل كلمة "يلق" "تلق" .

(٤) العمدة ٦٤/٢ .

(٥) الإيضاح في علوم البلاغة ص١٩٧ .

ومن أنواع الإطناب التي يمكن أن تضاف إلى ما ذكره الخطيب القزويني ما يلي :

أ- وضع الظاهر موضع المضمر :

إذا وضع الظاهر موضع المضمر فإن هذا نوع من الإطناب ، وهذا الأسلوب لا بد له من فائدة وهو كثير في كتاب الله عز وجل .

ب- الإطناب بالبسط :

وهناك نوع من الإطناب يسمى (بالبسط) ، ولقد سماه ابن الأثير "الإطناب بالجمل المتعددة" [1] .

.....

(١) المثل السائر ٢/٣٩٥ .

ثانياً
الإطناب في قصة مُوسى عليه السلام

الإيضاح بعد الإبهام :

وقد جاء هذا النوع من الإطناب في قصة مُوسى – عليه السلام – في معرض حديث القرآن عن المواعدة التي جاءت في قوله تعالى : ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [1] .

فلماذا جاءت كلمة ﴿ أَرْبَعِينَ ﴾ بعد قوله: ﴿ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾؟

يقول الزركشي : "وأعاد قوله : (أربعين) وإن كان معلوماً من (الثلاثين) و(العشر) أنها أربعون لنفي اللبس ؛ لأن العشر لما أتت بعد الثلاثين ، التي هي نَصٌّ في المواعدة دخلها الاحتمال أن تكون من غير المواعدة ، فأعاد ذكر (الأربعين) نفياً لهذا الاحتمال ، وليُعْلم أن جميع العدد للمواعدة" [2] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ ﴾ [3] .

فقد جاءت هذه الآية تبيّن حال موسى – عليه السلام – بعد أن كلفه الله – عزَّ وجل – بتبليغ الرسالة من الإلحاح بالدعاء ، و لم يكن دعاءً عادياً ، بل جاء مع الدعاء الإصرار، حيث كشف لنا صاحب الكشاف زيادة (لي) في (اشرح لي صدري ويسر لي أمري) مع أن الأمر تم بدونهما فيقول :

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٤٢ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ٤٩٣/٢ .

(٣) سورة طه : الآيات ٢٥ – ٢٦ .

"قد أبهم الكلام أولاً ، فقيل : اشرح لي ، ويسر لي . فعلم أن ثَمَّ مشروحاً ، وميسراً ، ثم بيّن ورفع الإبهام بذكرهما ، فكان آكد لطلب الشرح والتيسير لصدره ، وأمره ، من أن يقول : اشرح صدري ويسر أمري على الإيضاح الساذج" [1] .

إن هذه الآية تظهر لنا حالة موسى – عليه السلام – أثناء التكليف ؛ فلعظم هذه الرسالة لا يجد موسى – عليه السلام – ما يستند إليه إلاَّ سلاحاً واحداً ، ألا وهو الدعاء ، ونظراً لأن المُرسل إليه ، وهو (فرعون) كان بطشه وجبروته معلوماً لدى النبي موسى – عليه السلام – فأراد أن يستمدَّ من قوة الله – عزوجل _ ما يؤهله للقيام بتلك المهمة ، فكان الإطناب في الدعاء .

ومن الإيضاح بعد الإبهام التفصيل بعد الإجمال ، ومما جاء في ذلك حكاية دخول موسى – عليه السلام – المدينة ، حيث يقول تعالى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴿١٥﴾ ﴾ [2] .

فلعلّ سؤالاً يتبادر إلى ذهن القارئ ألا وهو مَنْ الرجلان ؟

فإذا بالجواب يأتي على أسلوب الإطناب "هذا من شيعته وهذا من عدوه" .

يقول ابن عاشور : "تفصيل لما أجمل في قوله "رجلين يقتتلان" [3] .

ذكر الخاص بعد العام :

وعند التأمل في قصة موسى – عليه السلام – نجد أنه جاء من هذا النوع عند حديث القرآن عن الحوار الذي جرى بين موسى والسحرة ، وما تخللها من موعظة حيث : ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾ [4] .

---

(١) الكشاف ١-٢/٧٠٤ .

(٢) سورة القصص : الآية ١٥ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٠/٨٨ .

(٤) سورة طه : الآية ٦١ .

حيث ذكر العذاب "وهو عام ، وهو : العذاب لمن يفتري على الله كذباً ، وهذا العذاب يشمل عدة أنواع ، منها : الخيبة ، وذكرها في هذا المقام ؛ لأهميتها ، وللتنبيه على الخيبة ، التي سوف تلحق فرعون وجنوده ، وأن موسى سوف يتغلب عليهم" [1] .

ومن ذكر الخاص بعد العام في قصة موسى – عليه السلام – ما جاء في الامتنان على بني إسرائيل والتفضُّل عليهم بعد استضعاف فرعون لهم : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [2] .

قد ذكر الله – عزَّ وجل – المن وهو : (الإنعام) [3] ، بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، وهذا شيء عام ، ثُمَّ جاء التخصيص ، حيث "خُصَّ بالذكر من المن أربعة أشياء ؛ عطف الخاص على العام ، وهي : جعلهم أئمة ، وجعلهم الوارثين ، والتمكين لهم في الأرض ، وأن يكون زوال ملك فرعون على أيديهم" [4] ، وهذا من المن الذي تفضَّل الله – عزَّ وجل – به على بني إسرائيل بعد هلاك فرعون .

التذييل :

ولقد جاء هذا النوع من الإطناب في قصة موسى – عليه السلام – في مواضع عدة من حلقاتها نذكر منها على سبيل المثال :

---

(١) الإطناب في قصص القرآن ، عائشة أحمد عرسان جرار ، رسالة ماجستير ، إشراف : أ.د. خليل عودة ، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس ، فلسطين ، ص٦٣ ، ٢٠٠٩م .

(٢) سورة القصص : الآيات ٥ – ٦ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٠/٧٠ .

(٤) المرجع السابق ٢٠/٧١ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [1] .

فجملة ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ "تذييل جاري مجرى المثل جاء للمبالغة في تأكيد التوبة " [2]

وجاء التذييل في معرض خطاب موسى – عليه السلام – لقومه وحثِّهم على الصبر ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [3] ، فهذه الجملة "تذييل وتعليل للأمر بالاستعانة بالله والصبر ، أي : افعلوا ذلك لأن حكم الظلم لا يدوم" [4] ، وهذا التذييل جاء مناسباً لحال من آمن بموسى – عليه السلام – ؛ حيث عزَّز من نفسياتهم ، ومواصلة الكفاح حتى النهاية .

وقد يأتي التذييل مؤكداً لما قُصِدَ من الكلام ، ومن ذلك ما جاء في نهاية المحاورة التي جرت بين السحرة أنفسهم من التآمر على موسى وهارون- عليهما السلام – والوقوف صفاً واحداً لكي تكون لهم الغلبة: ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ [5] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٥٤ .

(٢) الإطناب في قصص القرآن ص٦٧ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٢٨ .

(٤) التحرير والتنوير ٩/٦٠ .

(٥) سورة طه : الآيات ٦٢ – ٦٤ .

فقد ذُيِّلت الآية بقوله : ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ ، وهذه الجملة "تذييل للكلام يجمع ما قصدوه من تآمرهم بأن الفلاح يكون لمن غلب وظهر في ذلك الجمع" (١) .

وفي موضعٍ آخر من حلقات قصّة موسى – عليه السلام – وتحديداً عند خطابه مع السامري ، حيث جاء في آخر الآية : ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ (٢) .

و جاءت هذه الآية مقررة كمال الألوهية لله رب العالمين ، حيث إن موسى – عليه السلام – "لّما فرغ من إبطال ما ذهب إليه السامري عاد إلى بيان الدين الحق ، فقال : إنما إلهكم أي : المستحق للعبادة والتعظيم : الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً" (٣) .

فكانت هذه الآية بمثابة التذييل للقصة الآنفة الذكر ، وختم الله – عزَّ وجل – قصة موسى – عليه السلام – هنا بهذا التذييل المفعم ببيان حقيقة التوحيد ؛ ليكون آخر عهد القارئ قبل مغادرته إلى سياقٍ آخر ؛ ليحصل بذلك مع العبرة والعظة تحقيق التوحيد لله رب العالمين .

وهذا التحول من خطاب الفرد إلى خطاب الأمة يعطي مؤشراً على أن القصة في القرآن هدفها وغايتها الكبرى ، العبرة والموعظة كما جاء في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴿١١١﴾ ﴾ (٤) .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٧/١٦ .

(٢) سورة طه : الآية ٩٨ .

(٣) التفسير الكبير المسمى بـ (مفاتيح الغيب) ، للإمام محمد بن عمر الفخر الرازي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط : ٤ ، ٩٧/٢٢ ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .

(٤) سورة يوسف : الآية ١١١ .

وعودة إلى الحلقات التي تمس سيدنا موسى – عليه السلام – نجد أن السياق القرآني يصرح بالأذى الذي لحقه – عليه السلام - : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [1] .

وهذا التصريح بالإيذاء لَيَدل على عِظم الأذى الذي لحق بموسى – عليه السلام – وجاء التذييل في قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ مؤكداً أن "هذه سنة الله في الناس فكان قوم موسى الذين آذوه من أهل ذلك العموم" [2] .

ومع معرفتهم أن موسى – عليه السلام – رسول من عند الله ، إلاّ أنهم رفضوا هذا الحق ، فجاء ذيل الآية مؤكداً أنهم لا يخرجون عن كونهم من أهل هذه الصفة .

التكميل والإحتراس :

وإذا جئنا نتلمس "الاحتراس" في حلقات قصة موسى – عليه السلام – نجد أنه حاضر في حلقات عدة من القصة ، ومن ذلك على سبيل المثال :

ما جاء في قوله : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [3].

فقد جاءت هذه الآية متأخرة بعد أن حكم – الله عزَّ وجل – على قوم موسى – عليه السلام – حيث "عطفت على قوله : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا ﴿١٤٨﴾ ﴾ [4] . فهذا تخصيص لظاهر العموم الذي في قوله : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ ﴾ ، قُصِدَ به الاحتراس لئلا يتوهم أن ذلك قد عمله قوم موسى كلهم" [5].

---

(١) سورة الصف : الآية ٥ .

(٢) التحرير والتنوير ١٧٩/٢٨ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٥٩ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٤٨ .

(٥) التحرير والتنوير ١٤١/٩ .

وهذا الاحتراس في – نظري- ينسحب على جميع الأمم ، السالفة منها واللاحقة ، فلم يكن عبادة العجل التي ابتُلِيَ بها بنو إسرائل عائقاً من أن يخرج فيهم من يُوحِّد الله – عز وجل - فانظر إلى جمال هذا الأسلوب الذي لم يُغفِل هذه الطائفة التي نبذت الشرك ومن دعا إليه .

وفي موضع آخر من القصة وتحديداً في الحديث عن حالة فرعون أثناء الغرق .

جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [1] .

معلوم أن المصير الذي انتهى بفرعون هو الغرق ، ولكن ما هو الإنجاء الذي جاء في الآية ؟ . وهل كان للروح والجسد أم للجسد وحده ؟

كل هذه الأسئلة إجابتها من خلال القول بأن البدن : "أي : من غير روح ، وهو كامل لم ينقص منه شيء ، حتى لا يدخل في معرفتك لبس" [2] ، وهذا احتراس فقد جاء – ببدنك – ليدل على أن النجاة موجهة للبدن لا غير .

وجاء الإنجاء بالبدن من أجل أخذ العبرة والعظة ليعرف الناس مصير من قال : ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [3] .

ويطالعنا الاحتراس في حديث القرآن عن الآية التي أعطاها الله – سبحانه وتعالى – موسى – عليه السلام – وهي اليد التي تخرج بيضاء :﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ ءَايَةً ﴿١٢﴾ ﴾ [4] .

حيث " احترس سبحانه بقوله : "من غير سوء عن إمكان أن يدخل في ذلك البهق والبرص" [5] .

---

(١) سورة يونس : الآية ٩٢ .

(٢) نظم الدرر ٤٧٨/٣.

(٣) سورة النازعات : الآية ٢٤ .

(٤) سورة النمل : الآية ١٢ .

(٥) البرهان في علوم القرآن ٧٢/٣ .

وإذا تأملنا البلاغة القرآنية في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [1] .

يقول الزركشي عن هذه الآية : "وأعجب احتراس وقع في القرآن قوله تعالى مخاطباً لنبيه – عليه السلام - : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ . وقال حكاية عن موسى : ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [2] فلما نفى سبحانه عن رسوله أن يكون بالمكان الذي قضى لموسى فيه الأمر عرَّف المكان بالغربي ، و لم يقل في هذا الموضع الأيمن .

كما قال : ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ ﴿٥٢﴾ ﴾ أدباً مع النبي – صلى الله عليه وسلم – أن ينفي عنه كونه بالجانب الأيمن ، أو يسلب عنه لفظاً مشتقاً عن اليُمن ، أو مشاركاً لمادته ، ولما أخبر عن موسى – عليه السلام – ذكر الجانب الأيمن تشريفاً لموسى ، فراعى في المقامين حسن الأدب معهما ، تعليماً للأمة ، وهو أصل عظيم في الأدب في الخطاب" [3] .

وهذا الاحتراس ليدل دلالة بالغة على القدرة التعبيرية البلاغية التي حظي بها القرآن ، وما ذاك إلا أنه تنزيل من الرحمن .

ويأتي الاحتراس أحياناً في مواضع منها : محاولة فرعون الصدّ عن دعوة موسى – عليه السلام – ومحاولة الوقوف في وجه دعوته ، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [4] .

---

(١) سورة القصص : الآية ٤٤ .

(٢) سورة مريم : الآية ٥٢ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ٧٣/٣ .

(٤) سورة غافر : الآيات ٣٦ – ٣٧ .

وإذا ألقينا نظرة على المقطع السابق نلحظ أن جملة ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ جاءت " للاحتراس من أن يظن (هامان) وقومه أن دعوة موسى أوهنت منه يقينه بدينه وآلهته ، وأنه يروم أن يبحث بحثَ متأملٍ ناظرٍ في أدلة المعرفة فحقق لهم أنه ما أراد بذلك إلا نفي ما ادعاه موسى بدليل الحس" [1] .

التتميم :

جاء التتميم في قصة موسى – عليه السلام – في الحديث عن آية عظيمة جاء بها موسى – عليه السلام – من عند الله ليبرهن على صدقه ، وأنه رسول من رب العالمين وهي اليد التي تتحول بقدرة الله – سبحانه وتعالى – إلى يد بيضاء ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [2] .

وعن فائدة ختام الآية بقوله ﴿ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ يقول أبو حيّان : "في ذكر ذلك تنبيه على عظم بياضها ؛ لأنه لا يعرض لها لِلنُّظَّارِ إلاّ إذا كان بياضها عجيباً ، خارجاً عن العادة ، يجتمع الناس إليه كما يجتمع النُّظَّار للعجائب" [3] .

وجاء هذا التتميم مبالغة في البياض الذي أدى إلى تعجب الناظرين ، وهذا البياض خلافاً للبشرة التي خُلِقَ عليها موسى – عليه السلام – فقد كان آدم [4] اللون وبالتالي أدت هذه الآية الحسية على إبراز القدرة الإلهية .

الاعتراض :

وقد جاء "الاعتراض" لأغراض بلاغية كثيرة ، وسنذكر ما يتناسب مع حلقات قصة موسى – عليه السلام – ، ومن ذلك على سبيل المثال :

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٧/٢٤ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٠٨ .

(٣) البحر المحيط ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسي ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان ، بيروت ، ط : ٢ ، ٣٥٧/٤ ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .

(٤) مختار الصحاح ، للإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، مكتبة لبنان ، طبعة مدققة ، إخراج دائرة المعاجم ،(د. ط) ، ص٩ ، ١٩٨٩م. مادة (أدم) ، ومعنى الآدم من الناس [الأسمر] .

جاء الاعتراض في قصة موسى – عليه السلام – من خلال الحوار الذي جرى بين موسى – عليه السلام – وبني إسرائيل وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) ﴾ [١] . ثم جاء بعد ذلك الأمر بذبح البقرة ويتجلى الاعتراض في قوله : "﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ﴾ .

يقول الزركشي : "اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه . وفائدته : أن يقرر في أنفس المخاطبين أنَّ تدارؤ [٢] بني إسرائيل في قتل تلك الأنفس لم يكن نافعاً لهم في إخفائه وكتمانه ؛ لأن الله تعالى مُظْهر ذلك ومخرجه . وهذا من زيادة الرد على الخصم" [٣] .

وقد جاء الاعتراض في قصة موسى – عليه السلام – عندما رأى الملأ من قوم فرعون قلة اكتراث المؤمنين بوعيد فرعون : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) ﴾ [٤] ، وهذه الجملة معترضة بين ما قبلها وبين جملة : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) ﴾ [٥] .

"فإنهم لما رأوا قلة اكتراث المؤمنين بوعيد فرعون ، ورأوا نهوض حجتهم على فرعون وإقحامه ، وأنه لم يحر جواباً . راموا إيقاظ ذهنه ، وإسعار حميته ،

(١) سورة البقرة : الآية (٧٢) .
(٢) [الدرء أي : الدفع] ، مادة (درأ) . لسان العرب ٣١٤/٤ .
(٣) البرهان في علوم القرآن ٦٥/٣ .
(٤) سورة الأعراف : الآية ١٢٧ .
(٥) سورة الأعراف : الآية ١٢٨ .

فجاءوا بهذا الكلام المثير لغضب فرعون .." [1] . وهذا ديدن الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون .

وإذا وقفنا مع بدايات ولادة موسى- عليه السلام - وما حكاه الله – عزَّ وجل – في سورة القصص بعد أن استقرَّ به المقام عند آل فرعون: ﴿ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩ ﴾ [2] . وهنا تطلب امرأة فرعون من فرعون أن يبقى هذا الطفل الصغير لعله يكون قرة عين لها وله ؟! .

وجاءت في آخر الآية الكريمة ﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ ، وهذه الجملة المعترضة جاءت على تفسير من يرى أنها ليست من كلام امرأة فرعون تدل على أن "فرعون وقومه لا يعلمون خفي إرادة الله من الانتقام من أمة القبط" [3] .

فميلاد موسى – عليه السلام – في السنة التي كان يُقْتَلُ فيها الأولاد ، والقيام على تربيته من قِبَل فرعون ليدل هذا وذاك على قدرة الله – عزَّ وجل – على إمضاء ما أراده : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢ ﴾ [4] .

وقبل بعثته – عليه السلام – إلى فرعون وما حصل لموسى – عليه السلام – من قتل النفس التي جاء ذكرها في قوله تعالى : ﴿ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ ١٥ ﴾ [5] . ثم جاء الطلب من موسى – عليه السلام –

(١) التحرير والتنوير ٩/٥٧ .
(٢) سورة القصص : الآية ٩ .
(٣) التحرير والتنوير ٢٠/٨٠ .
(٤) سورة يس : الآية ٨٢ .
(٥) سورة القصص : الآية ١٥ .

إلى الله – سبحانه وتعالى – بأن يغفر له: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [1] .

والمتأمل في قوله : ﴿ فَغَفَرَ لَهُ ﴾ جاءت في معرض الامتنان على موسى –عليه السلام – فهي "معترضة بين جملة ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ وجملة : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴿١٧﴾ ﴾ [2] ، وكان اعتراضها إعلاماً لأهل القرآن بكرامة موسى – عليه السلام – عند ربه" [3] .

ولقد جاء الإطناب مبثوثاً في حلقات قصة موسى – عليه السلام – ومن ضمنها حلقة التكليف كما قال تعالى : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [4] .

فأخذ موسى – عليه السلام – يطلب من الله – عزَّ وجل – أن يبعث معه هارون – عليه السلام – ولكن ما السر في هذا الطلب ؟ .

لقد جاء هذا الطلب "للتنبيه على أمر ما فجملة ﴿ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ جملة معترضة ، وجاءت للتنبيه على أن الأمر الذي سوف يبعث إليه يحتاج إلى فصاحة لسان وحجة" [5] .

وذلك لما في موسى – عليه السلام – من العقدة التي في لسانه كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ ﴾ [6] .

---

(١) سورة القصص : الآية ١٦ .

(٢) سورة القصص : الآية ١٧ .

(٣) التحرير والتنوير ٩٢/٢٠ .

(٤) سورة القصص : الآية ٣٤ .

(٥) الإطناب في قصص القرآن ص٧٢ .

(٦) سورة طه : الآية ٢٧ .

وهذا الطلب لَيدل على أنه يريد أن يقوم بالرسالة على أكمل وجه ، لتبليغ هذا الدين إلى بني إسرائيل ، ومن ذلك الحرص على إقامة الحجج لدعوته .

وفي سياق البيان الإلهي الذي جاء ببراءة موسى – عليه السلام – في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ ﴾[1] .حيث جاءت الآية مذيلة ومبينة السبب الذي من أجلهِ اعتنى الله ببراءة موسى – عليه السلام – "وجملة ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ معترضة في آخر الكلام ومقيدة سبب عناية الله بتبرئته" [2] . وهذا من مواضع امتداح الله لموسى – عليه السلام – .

وضع الظاهر موضع المضمر :

ومن ذلك : ما جاء في قصة موسى – عليه السلام – مع بني إسرائيل وما قاموا به من تبديل كلام الله – عزَّ وجل – : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[3] .

وإذا نظرنا إلى قوله تعالى : ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ نلحظ أن الله – عزَّ وجل – "جاء بالظاهر في موضع المضمر في قوله : ﴿ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا ﴾ ، ولم يقل "عليهم" ؛ لئلا يتوهم أن الرجز عمَّ جميع بني إسرائيل" [4] .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٦٩ .

(٢) التحرير والتنوير ١٢١/٢٢ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٥٩ .

(٤) التحرير والتنوير ٥١٦/١ .

ولقد وُضِعَ الظاهر موضع المضمر في حلقة موسى – عليه السلام – وحكايته مع الخضر ، وذلك حينما أتيا القرية من أجل طلب الطعام فأبوا فما كان من الخضر إلا أن أصلح الجدار الذي أوشك على الانهيار : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ ﴾ [1] .

وللزركشي تعليل يُفَسِّر هذا الخروج ؛ حيث جعل هذا التحول من باب قصد العموم .

فقال : "و لم يقل (استطعمهم) للإشعار بتأكيد العموم ؛ وأنهما لم يتركا أحداً من أهلها إلا استطعماه وأبى ، ومع ذلك قابلهم بأحسن الجزاء . وفيه التنبيه على محاسن الأخلاق ، ودفع السيئة بالحسنة " [2] .

ويظهر هذا النوع من الإطناب غالباً في القرآن الكريم ، حيث إن "البلاغيين لم يخرجوا عن القرآن الكريم في إيضاح هذا الفن وإبراز مزاياه في أغلب الأحيان" [3] .

الإطناب بالبسط :

وقد جاء إطناب البسط في الحوار الذي دار بين الله – عزَّ وجل – وموسى – عليه السلام – ومن ذلك ما جاء في سورة طه ، حيث قال تعالى : ﴿ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨ ﴾ [4] .

---

(١) سورة الكهف : الآية ٧٧ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ٥٠٩/٢ (بتصرف) .

(٣) الإطناب في البلاغة العربية ٤٩٣/٢ .

(٤) سورة طه : الآيات ١٧ – ١٨ .

يسأل الله – عزَّ وجل – موسى – عليه السلام – عن العصا التي بيده فإذا موسى يطنب في جوابه قال : ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾ .

ولعل السعادة التي يشعر بها موسى – عليه السلام – أثناء الحديث مع الله جعلته يطنب في كلامه ، فالكلام مع الله ليس كأيّ كلام .

ثم أخذ يسرد منافع تلك العصا ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ ، فمن لطائف معنى الآية ما أشار إليه بعض المفسرين من أن موسى – عليه السلام – أطنب في جوابه بزيادة على ما في السؤال ؛ لأن المقام مقام تشريف ينبغي فيه طول الحديث [1] .

وجاءت تعليلات كثيرة عند الزمخشري عن سبب هذا الإطناب وارتضينا ، منها ما جاء في الكشاف ، حيث قال : "ويجوز أن يريد – عزَّ وجل – أن يعدَّد المرافق الكثيرة التي علقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها ، ثم يريه عقب ذلك الآية العظيمة ، كأنه يقول له : أين أنت من هذه المنفعة العظمى والمأربة الكبرى المنسية عندها كل منفعة ومأربة كانت تعتد بها وتحتفل بشأنها ؟" [2] .

وفي نهاية المطاف نخلص إلى :

١- أن أسلوب الإطناب أسلوب قد عمَّ قصة موسى – عليه السلام – مما يفرض علينا أن نعُدَّها مرجعاً من مراجع هذا الأسلوب ، وميداناً فسيحاً يمكن أن يطبق عليها أنواع الإطناب ؛ وذلك نظراً لما لمسناه من أن أنواع الإطناب المشهورة الآنفة الذكر عند العلماء جاءت مبثوثة في ثنايا القصة ، فلا تكاد تخلو حلقة من حلقاتها إلاَّ ونجد أسلوب الإطناب قد سجّل حضوراً يلمسه القارئ بوجهٍ عام ، والباحث بوجهٍ خاص .

(١) ينظر : التحرير والتنوير ٢٠٦/١٦ .

(٢) الكشاف ١-٧٠٣/٢ .

٢- من خلال تعقبي لأساليب الإطناب في قصة موسى –عليه السلام – رأيت أنَّ الله – عز وجل – قد ختم قصة موسى –عليه السلام – الواردة في سورة طه بالإطناب المتمثل بـ(التذييل) الذي جاء مؤكداً لبيان ، وحقيقة التوحيد ؛ وذلك ليكون آخر عهد القارئ ، قبل مغادرته إلى سياقات أخرى ، التأكيد على التوحيد ، وهذا الأسلوب يشعر بأن قضية التوحيد هي أهم قضية جديرة بأن يُختَم بها قصة موسى – عليه السلام – القائمة على الصراع ، بين الحق والباطل .

*****

المبحث الثالث

التكرار في قصة موسى عليه السلام

أولاً

التكرار عند البلاغيين [1]

اعتمد – القرآن الكريم – على أساليب شتى للدعوة إلى الله – عزَّ وجل – ومن هذه الأساليب (القصص القرآني) .

وإن الناظر في قصص القرآن ليلحظ (ظاهرة التكرار) تتجلى بشكل بارز في قصص الأنبياء – عليهم السلام – كقصة إبراهيم وموسى عليهما السلام .

ومع هذا التكرار في القصص القرآني ، إلا أنه قد يخفى على كثيرٍ من الناس ما لهذا التكرار من علاقة جمالية ، من حيث التنوع الأسلوبي ؛ حيث إنه "يسير مع الجمال الفني بالتنويع الدقيق الملحوظ" [2] .

والتكرار من أشهر أنواع الإطناب التي أشرنا إليها سابقاً ، وما ذاك إلاّ لأنه أسلوب يعتمد عليه العرب في التخاطب فيما بينهم ، إما لتأكيد أمر ، أو للتحذير من خطر ، أو للترغيب في فعل ... الخ .

---

(١) تكلم البلاغيون والنقاد – قديماً وحديثاً – عن ظاهرة (التكرار) في القصة القرآنية ، وهل يوجد تكرار في القرآن أم لا ؟ ، ومن أفضل ما وجدت ممن تكلم عن هذه القضية : د. سعيد مطاوع في كتابه : (الإعجاز القصصي في القرآن) ، وقد قسمهم إلى فريقين :

الأول : يرى أن التكرار منهج ثابت من مناهج القرآن .. وذكر منهم على سبيل المثال (صاحب البرهان) الزركشي ، والخطابي ، والقاضي عبدالجبار .

والفريق الثاني : ينفي التكرار تماماً ، ومن العلماء الذين تبنوا هذا الرأي : (محمد أحمد خلف الله) . وانتهى إلى أن هذا التكرار لا ينقص من عظمة وإعجاز القصص القرآني ، وأن التكرار لم يقع مطلقاً في قصص القرآن الكريم ، وإنما وقع التكرار على بعض الحلقات ، ولمن أراد التعرف على الحجج والبراهين التي اعتمد عليها كلا الفريقين يرجع إلى كتاب : (الإعجاز القصصي في القرآن) ، ص١٩٩ – ٢٠٧ .

(٢) التصوير الفني في القرآن ، ص١٣٠ .

يقول السيوطي عن منزلة التكرير : "وهو أبلغ من التأكيد ، وهو من محاسن الفصاحة ، خلافاً لبعض من غلط" [1] .

تعريف التكرار :

جاء معنى التكرار في لسان العرب من قولهم : "كرر الشيء" ، أعاده مرة بعد أخرى ، وكررت عليه الحديث : إذا رَدّدته عليه [2] .

في الاصطلاح البلاغي :

جاء عند ابن الأثير : "التكرير دلالة اللفظ على المعنى مردداً ، كقولك لمن تستدعيه : أسرع أسرع ، فإن المعنى مردَّد ، واللفظ واحد ... ومنه ما يأتي لفائدة ، ومنه ما يأتي لغير فائدة ، فأما الذي يأتي لفائدة فإنه جزء من الإطناب .. وأما الذي يأتي لغير فائدة فإنه جزء من التطويل" [3] .

.....

(١) الإتقان في علوم القرآن ٤٨/٢ .

(٢) لسان العرب ٦٤/١٢ ، مادة (كرر) .

(٣) المثل السائر ٣٩٤/٢ .

ثانياً
التكرار في قصة مُوسى عليه السلام

يشكل التكرار في آي القصص القرآني ظاهرة أسلوبية تدعو إلى البحث ، والكشف عن أسباب هذا التكرار ، ويبدأ التكرار من الحرف وينتهي بالعبارة .

وإذا كنا بصدد الحديث عن ظاهرة (التكرار) في قصة موسى – عليه السلام – ؛ فقد لاحظت أن التكرار قد يكون في الكلمات ، أو الجمل ، أو الأحداث والأنباء ، ولكي نكشف عن هذه الظاهرة كانت هذه الوقفات .

أولاً : تكرار الكلمات :

يتحدث القرآن الكريم عن قصة بني إسرائيل ، وجدالهم مع موسى- عليه السلام – في ذبح البقرة ، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ ، ثم جاء إكمال المجادلة في قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ ﴾ (١) .

وعند التأمل في المحاورة ، نلحظ تكرار حرف "لا" " فقد ذُكر خمس مرات ، وجاء هذا التكرار ليتناسب مع السياق الذي وردت فيه ، فقد جاءت لتعبر عن صفات البقرة التي اشترط الله – سبحانه وتعالى – ذبحها من أجل إظهار القاتل .

فجاءت "لا" زيادة في التأكيد ، والتقرير ، ولتلائم حال المخاطب ، وهم بنو إسرائيل ، الذين أكثروا المراجعة في أمر البقرة ، وذلك لخوفهم من الفضيحة في إظهار القاتل ، ولغلاء ثمن البقرة ، فكرر الله – سبحانه وتعالى – "لا" فجاءت كل صفة

(١) سورة البقرة : الآيات ٦٨ – ٧١ .

مقترنة بـ "لا" للتأكيد على صفات البقرة المعنية المقصودة بذلك ، خشية أن تذبح بقرة أخرى ، بحجة أنهم لم يستطيعوا تمييز البقرة المقصودة في الآية الكريمة ؛ فالخداع معروف عنهم ، وهذا التكرار يشير كذلك إلى بُطء فهمهم" [1] ، وهذا من التشديد الذي جاء الإسلام بنبذه .

ويطالعنا التكرار في ابتهال موسى – عليه السلام – بالدعاء لربه ؛ لكي ييسر له أمره ، ويطلق له لسانه ؛ من أجل أن تتحلى دعوته بالذكر الذي يشد من عضده ، حيث – قال تعالى- حاكياً عن ذلك ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [2] .

يقول الزركشي : "هذا التكرار من باب التأكيد" [3] .

ويأتي التكرار في معرض حديث الله – سبحانه وتعالى – مع موسى – عليه السلام – وإخباره بالانتصار على السحرة قبل المعركة : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ [4]. وبهذا الخطاب من الله ترتفع معنويات موسى – عليه السلام – وهذا هو السلاح الخفي الذي لم يشهده فرعون وملئه .

يقول أحمد بدوي عن تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل : "وفي ذلك تثبيت قلب موسى وبعث الطمأنينة إليه" [5] .

وجمال هذا التأكيد يظهر لي من خلال أنه لما كان الخوف قد سيطر على موسى – عليه السلام – ومع ذلك لم يظهر على ملامحه ، بل كان خوفاً باطنياً حبسه في أعماق نفسه – هنا – احتاجت هذه النفس الأبية إلى الاستقرار ، وخاصةً أنه موقف عصيب يشكل لأمة بني إسرائيل مفترقاً خطراً ، فجاء التكرار من خلال تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل من أجل تأكيد معنى الانتصار والاستقرار في نفس ذاك النبي – عليه السلام – .

---

(١) الإطناب في قصص القرآن ص٢٥ .

(٢) سورة طه : الآيات ٣٣ – ٣٤ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ١٥/٣ .

(٤) سورة طه : الآية ٦٨ .

(٥) من بلاغة القرآن، د.أحمد أحمد بدوي ، نهضة مصر ، (د.ط) ، ص ١١٤ ، ٢٠٠٥م .

وفي حوار موسى – عليه السلام – مع السامري يأتي التكرار ليؤكد لنا موقف موسى – عليه السلام – من هذا الفعل العظيم الذي ارتكبه السامري حال غياب موسى – عليه السلام – عن قومه لملاقاة ربه ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [1] .

وأن مصير هذا الفعل لا تردد فيه ، حيث " أكد ﴿ لَنَنسِفَنَّهُۥ ﴾ بالمفعول المطلق إشارةً إلى أنه لا يتردد في ذلك ، ولا يخشى غضبه كما يزعمون أنه إله" [2] .

ويصف الله – عزَّ وجل – إهلاك المكذبين ، ومصير آل فرعون بقوله : ﴿ فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [3] .

فبمجرد أن تقرأ هذه الآية يُخيَّل إليك العذاب العظيم الذي أصاب هؤلاء المكذبين ﴿ فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾ ، والذي جعلنا نتصور ذلك العذاب هو مجيء المفعول المطلق المؤكِّد للفعل ، وقد جاء عند القرطبي أن معناها أي : "أهلكناهم إهلاكاً" [4] .

ومن الحلقات التي شهدت تكرار الحروف ما جاء في قصة موسى – عليه السلام – مع القبطي الذي أراد موسى- عليه السلام – أن يبطش به ، فقال القرآن حاكياً عن ذلك: ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [5] .

---

(١) سورة طه : الآية ٩٧ .

(٢) التحرير والتنوير ١٦/٣٠٠ .

(٣) سورة الفرقان : الآية ٣٦ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٣/٣٢ .

(٥) سورة القصص : الآية ١٩ .

وإذا نظرنا إلى الآية الكريمة نلحظ أن الله – عزَّ وجل – قد كرر الحرف "أن" الدال على الاستقبال في "أربع مواضع تأكيداً" [1] .

وعند التأمل أرى أن تكرار "أن" في آخر الآية جاء ليؤكد على الحالة النفسية المضطربة التي يعيشها الرجل القبطي لما علمه من حال الرجل الذي قُتِلَ بالأمس كما قال- تعالى -حاكياً عن ذلك : ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي ﴾ [2] .

وتتجلّى ظاهرة التكرار في الحديث الموجه إلى آل فرعون من لدن الرجل المؤمن عندما تحرك الإيمان في قلبه ، وخرج من صمته . ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [3] .

وعند النظر في هذه الآية الكريمة نلحظ إعادة لفظ (رجل) ، حيث جاءت نكرة مرتين ؛ لأن "المراد بالنكرة الثانية غير الأولى ، لأن المراد بالأولى شمعان بن عم فرعون ، وبالثانية موسى – عليه السلام –" [4] .

وفي سياق التظليل الذي لم يفتأ فرعون بسلوكه من أجل إيقاف دعوة نبي الله موسى – عليه السلام – وقف ساخراً ، متهكماً ، يخاطب هامان ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [5] ، فلماذا كرر لفظ (أسباب) ، مع أنه يظهر القوة في نفسه ؟ والسرُّ في ذلك التكرار من أجل "وضع المتلقي في الحالة النفسية التي يمر بها فرعون ، فمع أنه يتكبر ويدعي الأولوهية ، إلاّ أنه يشعر في داخله برهبة ما سيقدم عليه ، فلو

(١) البرهان في علوم القرآن ١٦/٣ .

(٢) سورة القصص : الآية ١٩ .

(٣) سورة غافر : الآية ٢٨ .

(٤) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ، محمد الأمين الهرري الشافعي ، راجعه : هاشم مهدي ، دار طوق النجاة ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠١م ، ٢٠١/٢٥ .

(٥) سورة غافر : الآيات ٣٦ – ٣٧ .

قال : لعلّي أبلغ أسباب السموات" مباشرة دون تكرار ، لأظهر أنه سيقدم بأمر عادي ، ولكنه ذكر "أسباب" في البداية ، ثم أوضح هذه الأسباب ، وهي أسباب السموات" [1] .

فالاضطراب الداخلي الذي كان يعيشه فرعون جاء القرآن بإبرازه ، والإفصاح عنه من خلال هذا التكرار البديع .

ثانياً : تكرار الجمل والعبارات :

قد تأتي الجمل والعبارات مكررة في مواضع عدة ، وحقيقته : "إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى ؛ خشية تناسي الأول ، لطول العهد به ، فإن أعيد لا لتقرير المعنى السابق لم يكن منه" [2] .

ويظهر تكرار الجمل ، والعبارات في قصة موسى – عليه السلام – في الحلقة التي شهدت حوار مؤمن آل فرعون مع قومه ، فبعد أن بين موسى – عليه السلام – الحجة والمعجزة ، إذا بفرعون يأمر بقتل موسى- عليه السلام - : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [3] .

وهذا هو منطق الضعف ، فلا ترد الحجة إلاَّ بالحجة . ولكن الله – عزَّ وجل – أخرج مؤمن آل فرعون عن صمته : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [4] .

بعدها يقول : ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [5] .

---

(١) الإطناب في قصص القرآن ص٢٦ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ١٣/٣ .

(٣) سورة غافر : الآية ٢٦ .

(٤) سورة غافر : الآية ٣٨ .

(٥) سورة غافر : الآية ٣٩ .

وينادي قومه بأعلى صوته مكرراً ومرداداً نداءه لقومه ، ﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [1] .

بعدها يقول : ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [2] .

ويتكرر كما رأينا لفظ (يا قوم) ، فما الذي حمل مؤمن آل فرعون على أن يكرر هذا النداء ؟ ، ولعل السر في تكرار النداء بهذه الصورة الملفتة ؛ لما في هذا التكرار من "زيادة تنبيه لهم ، وإيقاظ عن سنة الغفلة ، وفيه : أنهم قومه وعشيرته ، وهم فيما يوبقهم ، وهو يعلم وجه خلاصهم ، ونصيحتهم عليه واجبة ، فهو يتحزن لهم ، ويتلطف بهم ، ويستدعي بذلك ، أن لا يتهموه ، فإن سرورهم سروره ، وغمهم غمه" [3] ، أقول : هو في إشراك قومه في الخطاب يريد أن يضم أصواتهم إلى صوته ليرتفع بذلك صوت الحق على جبروت الباطل .

ويحسن بنا – هنا – أن ننظر إلى لفظة (يا قوم) نظرة شمولية ؛ من أجل أن تعطينا دلالة بلاغية من حيث تكرارها ، فقد لاحظت أن لفظة (يا قوم) قد تكررت في القرآن على مستوى قصة موسى – عليه السلام – اثنتي عشرة مرة [4] لفظ ثابت مع أشخاص مختلفين ، فقد جاء اللفظ مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً مع دعاة القصة ، سواءً كانوا دعاة هدى ، كـ (موسى وهارون – عليهما السلام – ومؤمن آل فرعون) ، أم دعاة ضلال كـ (فرعون) . وهذه الإحصائية تعطينا دلالة على أن لفظ (يا قوم) وسيلة ناجحة ؛ لاستقطاب النفوس ، واستمالتها إلى مراد المتكلم بغض النظر عن مراد دعوته ، على أن ورودها مع مُوسى – عليه السلام – تشكل الأغلبية ، وذلك راجع إلى حرصه في هداية قومه إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم .

---

(١) سورة غافر : الآية ٢٩ .

(٢) سورة غافر : الآية ٣٠ .

(٣) الكشاف ٣-٤/١٠٧٥ .

(٤) وردت لفظ ﴿ يَٰقَوۡمِ ﴾ في سور عدة : "البقرة (٥٤) ، المائدة (٢٠ ، ٢١) ، يونس (٨٤) ، طه (٨٦، ٩٠) ، غافر (٢٩ ، ٣٠ ، ٣٨ ، ٣٩) ، الزخرف (٥١) ، الصف (٥)" .

ثالثاً : تكرار الأحداث والأنباء [1] :

إن المتأمل والباحث في قصة موسى – عليه السلام - لا يمكن أن يغفل عن ظاهرة قد تكلم عنها العلماء – قديماً وحديثاً – ألا وهي ظاهرة تكرار الأحداث والأنباء ؛ وذلك لما لهذه الظاهرة من حضور بارز تُولِّد أسئلة كثيرة لدى القارئ عن أسرار هذا التكرار .

ومن فوائد تكرار هذا النوع ما ذكره الزركشي : "أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً ، ألا ترى أنه ذكر الحية في عصا موسى – عليه السلام - ؛ وذكرها في موضع آخر ثعباناً ، ففائدته أن ليس كل حية ثعباناً ، وهذه عادة البلغاء ، أن يكرر أحدهما في آخر خطبته أو قصيدته كلمة ، لصفة زائدة" [2] .

ومن القصص التي شهدت حضوراً يلمسه كل قارئ للقرآن قصة موسى – عليه السلام - . ويتجلّى هذا النوع في قصة موسى – عليه السلام – في الفترة التي عاشها موسى – عليه السلام – مع فرعون من الأحداث الجسام التي تستحق منا أكثر من وقفة ، وإن هذا التكرار ليدل على أنه سيكون هناك طغاة يشابهون فرعون بالإجرام ، وأقوام يشابهون موسى- عليه السلام - بالإيمان ؛ ولذلك تكررت القصة ليأخذ المؤمنون حذرهم ، ويعرفوا كيف يتعاملون مع أعدائهم ، وإن مصير المؤمنين إن صبروا النصر والتمكين .

---

(١) أخذ العلماء قديماً ، كالزركشي [البرهان في علوم القرآن ٢٩/٣] ، وحديثاً كسيد قطب [التصوير الفني في القرآن ، ص١٥٥] ، ومحمد الدالي [الوحدة الفنية في القصة القرآنية ، ، (ب.د) ط : ١ ، ص١٤٧ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م] ، يدافعون عن ظاهرة التكرار في القرآن ، معللين تلك الظاهرة بعلل تدفع ما ادعاه أصحاب الأهواء من الطعن في القرآن ، وأسلوبه ، والنيل من فصاحته .

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢٩/٣ ، ولمعرفة المزيد من هذه الفوائد يرجع إلى المصدر السابق ما بين صفحة (٢٩ – ٣٢) .

ولكي تتضح هذه الظاهرة ، ومدى توافقها مع السياق فإنني سأقف مع بعض أجزاء حلقات قصة مُوسى – عليه السلام - ، وما الجديد التي أضافته بعض الحلقات على سابقتها ، ومن ذلك ما يلي :

جاء ذكر خبر مُوسى – عليه السلام – مع فرعون في عدة سور من القرآن ما بين طويلة ، ومتوسطة ، وقصيرة ، كما جاء في البقرة ، والنساء ، والمائدة ، والأعراف ، ويونس ، وإبراهيم ، والإسراء ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والفرقان ، والشعراء ، والنمل ، والقصص ... الخ .

وقد جاءت بأساليب شتى ما بين إيجاز ، وإطناب ، وتكرار .

بدأ الحديث عن هذه القصة في سورة الأعراف –بقوله تعالى- : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [1] . بينما جاء في سورة طه في بداية الأمر بالتكليف - بقوله تعالى- : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [2] .

ففي سورة الأعراف نلحظ أنه بدأ بقوله : ﴿ بَعَثْنَا ﴾ ، وهذه اللفظة جاءت ملائمة لما في السورة ؛ لأنه ذكر قصة موسى – عليه السلام – "في معرض قصص مشترك مع نوح ، وهود ، ولوط ، وشعيب ، اتحد فيه صيغة الدعوة ، وصيغة التكذيب ، والعقاب الذي أخذ المكذبين" [3] .

بينما جاء ذكر الإرسال في سورة (طه) بقوله : ﴿ ٱذْهَبْ ﴾ ، والذي مهد لهذا الأمر المباشر من الله تعالى لموسى بالإرسال هو أنه في سورة (طه) عرض لحلقة "أسبق من حلقة الرسالة التي ذكرت في الأعراف تلك هي رؤية موسى – عليه السلام - للنار من جانب الطور ، وهل أتاك حديث موسى" [4] .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٠٣ .

(٢) سورة طه : الآية ٢٤ .

(٣) التصوير الفني في القرآن ، ص١٥٧ .

(٤) المرجع السابق ص١٥٨ .

وإذا نظرنا إلى قصة مُوسى – عليه السلام – من حيث اعتبار الغاية التي سيقت من أجلها القصة نجد أن الله – عزَّ وجل – بدأ القصة في سورة الأعراف ، في الحلقة التي تبرز الصراع بين الحق والباطل ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [1] . فلم يذكر السياق ما سبق تلك اللحظة من أحداث كابتهال موسى – عليه السلام – مثلاً ، مراعياً بذلك الغاية من القصة هنا ، وهو إبراز الصراع بين الحق والباطل ، بينما نجد خلاف ذلك في سورة (طه) ، حيث أخذ السياق يطنب في الأحداث الأولية للقصة منذ اللقاء الأول بين الحق – جل وعلا – وموسى – عليه السلام – من خلال الاسترسال في الحديث وخاصة عندما أخذ موسى – عليه السلام – يدعو ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [2] في إطنابٍ واضح ، والعجيب في ذلك أن السياق بعد الدعاء يسارع في الاستجابة ، ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [3] ؛ كل ذلك مراعاة للغاية من القصة –هنا – وهي تسلية محمد – صلى الله عليه وسلم – ، بخلاف سورة الشعراء التي وإن كان غايتها الأولى هي التثبيت ، فقد جاء السياق بالإشارة إلى الدعاء ، وما سبقه من أحداث ولكن بإيجاز دون تفصيل ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ [4] ، محاولاً المسارعة ،

(١) سورة الأعراف : الآية ١٠٤ .

(٢) سورة طه : الآيات ٢٥ – ٣٥ .

(٣) سورة طه : الآية ٣٦ .

(٤) سورة الشعراء : الآيات ١٠ – ١٤ ، ينظر : الجانب الفني في القرآن ص ٦٤ .

وتجاوز تلك القنطرة المفصّلة في سورة طه إلى تثبيت قلب النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – من خلال عرض قائمة طويلة من الأنبياء كـ (نوح ، وعاد ، وثمود ، ولوط) ؛ ليمتلئ قلب محمد – صلى الله عليه وسلم - ، ويشرب من معينهم ؛ ليكون عوناً له بعد الله – عزَّ وجل – على مواجهة أعداء الدعوة .

أما في سورة القصص ، فنجد أن الوضع قد اختلف تماماً ، فقد جاءت معظم الحلقات متقاربة إلى حدٍ ما ، حيث كان هناك طولٌ في الجمل يلحظه القارئ ، والسامع ، وإني لأعزو تلك الخاصية في قصة موسى – عليه السلام – الواردة في سورة القصص إلى طبيعة السورة نفسها ، والغاية منها ، فمنذ البداية يتجه ذهن القارئ إلى أنه سيقرأ قصة ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [1] . وأن السرد بعدها سيتجه نحو القص ولا غير ، ولذلك ناسب إطلاق اسم القصص عليها ، وهذا مما دفع السياق إلى إطالة الجمل من أجل أن تأخذ طابع القص فلا تكاد تفهم قصة موسى – عليه السلام – على أكمل وجه إلاّ في سورة القصص باستثناء بعض الحلقات كحلقة نهاية فرعون ، حيث جاء ذكرها على وجه السرعة ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [2] ، فإن اختصارها هنا جاء من أجل تصوير الأخذ والحسم فهو" أخذ شديد ، ونبذ في اليم . نبذ كما تحذف الحصاة أو كما يرمى بالحجر" [3] .

وفي خبر السحرة مع فرعون ، حيث جاء في سورة (الأعراف) قوله تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾ [4] .

وجاء في سورة (الشعراء) : ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [5] .

---

(١) سورة القصص : الآية ٣ .
(٢) سورة القصص : الآية ٤٠ .
(٣) في ظلال القرآن ٥/٢٦٩٥ .
(٤) سورة الأعراف : الآية ١١٢ .
(٥) سورة الشعراء : الآية ٣٧ .

وإذا نظرنا إلى الآيتين ، وجدنا أنه في الأعراف يقول : ﴿سَٰحِرٍ﴾ ، وفي الشعراء يقول : ﴿سَحَّارٍ﴾ ، فلماذا هذا العدول ؟ .

إن المتتبع للسياق القرآني ليجد أن كلا اللفظتين قد جاءتا متسقتين مع السياق .

"فالسياق في سورة الأعراف يناسبه وصف كل قادم لتحدي موسى – عليه السلام – بأنه – ساحر عليم – ، ويكفي هذا الوصف له للإخبار عن علمه بالسحر" ولذلك هددهم فرعون بالقتل ، والتعذيب" (١) .

ولذلك حكى الله – عزَّ وجل – تهديد فرعون لهم بقوله : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (٢) .

ولما اختلف التهديد في سورة الشعراء اختلفت الصياغة ، حيث "اتهم فرعون السحرة المؤمنين بأنهم تلاميذ عند موسى – عليه السلام – وأنه هو كبيرهم الذي علمهم السحر ... من الذين يتهمهم بهذا الاتهام فرعون ؟ . إنهم ليسوا تلاميذ صغاراً وليسوا جهلاء أغراراً ... وجنوده هم الذين اختاروا من بين السحرة الكثيرين ... إنه لا بد أن يكون سحَّاراً عليماً بالسحر" (٣) .

ولذلك جاءت آية التهديد مناسبة للسياق ، حيث قال تعالى : ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٤) .

---

(١) إعجاز القرآن البياني ، دلائل مصدره الرباني ، د. صلاح عبدالفتاح الخالدي ، دار عمار ، عمان ، ط : ٣ ، ص٢٢٦ ، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م .

(٢) سورة الأعراف : الآيات ١٢٣ – ١٢٤ .

(٣) إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني ، ص٢٥٧ ، بتصرف .

(٤) سورة الشعراء : الآية ٤٩ .

"وبما أن اتهام السحرة بالتتلمذ على الساحر الكبير موسى – عليه السلام – ليس موجوداً في سورة الأعراف ، فلا داعي لأن يوصف كل ساحر بأنه (سحَّار) ، ويكفي أن يوصف بأنه (ساحر عليم)" [1] .

ويتحدث القرآن عن اجتماع السحرة ، وما دار بينهم وبين وفرعون ، وقد جاء ذلك في سورة الأعراف بقوله : ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [2] .

بينما جاء في الشعراء – قريباً – من ذلك كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [3] .

وعند التدقيق في هاتين الآيتين نلحظ أن الصورة الواردة في آية الأعراف قد "خلت من كلمة (لما) ، تلك الكلمة التي تشعر بالاسترخاء ، والمط ، والتي تدل على أن السحرة كانوا يتوافدون على فرعون حالاً بعد حال ، وكذلك أخذ الفعل (جاء) مفعوله وهو فرعون في آية الأعراف ، على حين لم يذكر له مفعوله في آية الشعراء " [4] .

وإذا أمعنا النظر في الاستفهام الوارد في آية الشعراء يشعر بأن السحرة لم يكن عندهم الثقة الكاملة بقوة فرعون ، لذلك جاء بصيغة الاستفهام .

أما في سورة الأعراف فقد خلت من ذلك الاستفهام ، لما عاين السحرة تلك الجموع الغفيرة ، فكان ذلك من باب التقرير .

---

(١) إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني ص٢٢٨ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١١٣ .

(٣) سورة الشعراء : الآية ٤١ .

(٤) القصص القرآني ص٢٦٤ ، بتصرف .

وبعد المفاوضات التي جرت بين فرعون والسحرة يتجه السحرة إلى موسى – عليه السلام – ، وقد جاء هذا الحوار في سورتي الأعراف بقوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [1] .

بينما جاء في سورة طه قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾ [2] .

أما آية طه ، فنلحظ ورود كلمة ﴿ أَوَّلَ ﴾ ، بخلاف آية الأعراف فقد جاء فيها ﴿ نَحْنُ ﴾ ، ولعلّ كلمة ﴿ أَوَّلَ ﴾ جاءت لتدل على "رغبة القرآن في تصوير نفسية هؤلاء السحرة ، وأنهم لم يكونوا يوم تحدوا موسى – عليه السلام – بسحرهم خائفين ، أو شاكين في نجاحهم ، وإنما كان الأمل بملأ قلوبهم في نصر مؤزر عاجل ، فهم لا ينتظرون ما عسى أن تسفر عنه مقدرة موسى عندما ألقى عصاه ، بل كانوا مؤمنين بالنصر ، سواء أألقى موسى ، أم كانوا هم أول من ألقى" [3] .

أما في سورة الأعراف ، فكان في الآية شيء من الاختلاف وهي كلمة (نحن) ، فما هي الإضافة التي استخلصناها من هذا التخيير ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [4] .

إن هذا التخيير الصادر من السحرة لموسى – عليه السلام – ربما يكون من باب "مراعاة للأدب ، أو إظهاراً للجلادة ، ولكن كانت رغبتهم في أن يُلْقوا قبله فنُبِّهوا عليها بتغيير النظم إلى ما هو أبلغ ، وتعريفِ الخبر ، وتوسيطِ الفصل ، أو تأكيدِ ضميرهم المتصل بالمنفصل" [5] .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١١٥ .

(٢) سورة طه : الآية ٦٥ .

(٣) من بلاغة القرآن ص٥٥ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١١٥ .

(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمى بـ (تفسير البيضاوي) ، ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ، تحقيق : محمد صبحي بن حسن حلاق ، ود. محمد أحمد الأطرش ، دار الرشيد ، دمشق ، بيروت ، ط : ١ ، ١/٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م .

وبهذا أقول : إن آية سورة طه كشفت لي الرغبة النفسية التي لدى السحرة وقت المبارزة ، والتي كادت أن تكون غائبة في آية الأعراف ، و بهذا التنوع الأسلوبي يكشف لنا القرآن الأسرار الكامنة لمقصد الآيات من خلال تنوع ظاهرة التكرار .

وبعد أن استقر النصر لموسى – عليه السلام – نلحظ أن الله – عزَّ وجل – صور لنا هذا المشهد مكرراً في نحو ثلاث آيات ، كما جاء في سور الأعراف ، وطه ، والشعراء .

ففي الأعراف جاء قوله تعالى : ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [1] .

أما في سورة الشعراء فقد جاء قوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [2] .

أما في سورة طه فقد جاء قول الحق – جل وعلا – : ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [3] .

يقول عبدالكريم الخطيب عن هذا التكرار : "فهذا التكرار على صورة واحدة في الصورتين الأوليين ، إنما هو تأكيد لهذا الخبر الطيب المسعد ، إنه من جهة أخرى عرض لأكثر من جانب من جوانب الحشد الكبير ، الذي قال هذه القولة ، وأذعن بهذا الإذعان .

والصورة الثالثة ، إذ تعرض جانباً ثالثاً من جوانب هذا الحشد تجيء بصوت آخر ، غير الصوت الذي تردد مدوياً عالياً بإعلان السحرة عن إيمانهم برب موسى وهارون ، فهذا الصوت سمع معلناً عن الإيمان برب هارون وموسى ، إذ إنه من غير الطبيعي أن يكون السحرة على هوى واحد لكل من موسى وهارون" [4] .

---

(١) سورة الأعراف : الآيات ١٢٠ – ١٢٢ .

(٢) سورة الشعراء : الآيات ٤٦ – ٤٨ .

(٣) سورة طه : الآية ٧٠ .

(٤) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، ص٢٦٩ .

وهناك بعض السور التي أضافت واختصت بحدث من أحداث القصة كما جاء في سورة (طه) ، حيث تختص "من بين السور جميعاً ببيان ما حدث لموسى – عليه السلام – من الإيجاس في نفسه خيفة : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ [1] .

وبعد أن استنطقنا بعضاً من حلقات قصة موسى – عليه السلام – ظهر لنا أنه لا يمكن أن ننكر التكرار في قصص القرآن بوجهٍ عام ، وقصة موسى – عليه السلام – بوجه خاص ، وعلى هذا لا بد أن نبيّن بعضاً من الوقفات :

(١) من خلال ما سبق نلحظ أن أسلوب قصة موسى – عليه السلام – في القرآن كان أسلوباً متنوعاً ، وإن تكرر في بعض الحلقات فإنه لا يخلو من إضافات جديد تضفي على القصة ألواناً من الإبداع الرباني الذي يبهر القارئ ، والسامع على حدٍّ سواء . وهذا ما دفع سيد قطب إلى القول : "ويحسب أناس أن هناك تكراراً في القصص القرآني ؛ لأن القصة قد يتكرر عرضها في سورٍ شتّى ، ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة ، أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحدة من ناحية القدر الذي يُساق ، وطريقة الأداء في السياق ، وأنه حيثما تكررت حلقة كان هناك جديد تؤديه ينفي حقيقة التكرار" [2] .

(٢) أن ظاهرة التكرار في قصة موسى – عليه السلام – جلَّت لنا بوضوح ظاهرتي الإيجاز والإطناب المنسجمتين مع السياق ، وهذا من جماليات ظاهرتي التكرار .

---

(١) سورة طه : الآيات ٦٧ – ٦٨ .

الإطناب في قصص القرآن ص٨٨ .

(٢) في ظلال القرآن ٥٥/١ .

(٣) إن مما يميز التكرار بوجهٍ عام ، وتكرار القصص القرآني بوجهٍ خاص تلك العلاقة القائمة بين التكرار والنفس البشرية ، وممّن أشار إلى ذلك أو قريباً منه شوقي ضيف [١] .

(٤) إن من أسباب تفاوت حلقات قصة موسى – عليه السلام – ما بين الإيجاز والإطناب ما يرجع إلى اعتبار الغاية من ورودها في السياق ، وهذا ظاهر عندما عرضنا لحلقة دعاء موسى – عليه السلام – وما سبقه من أحداث ، مقارنين بذلك بين سورتي طه ، والشعراء .

(٥) شكَّل تكرار لفظ (يا قوم) في قصة موسى– عليه السلام – ظاهرة بارزة، حيث جاء اللفظ مكرراً مع الدعاة في القصة ، سواء دعاة هدى أم ضلال، وهذه الإحصائية تعطينا دلالة على أن لفظ (يا قوم) وسيلة ناجحة ؛ لاستقطاب النفوس ، واستمالتها إلى مراد المتكلم بغض النظر عن مراد دعوته ، على أن ورودها مع مُوسى– عليه السلام – تشكل الأغلبية، وذلك راجع إلى حرصه – عليه السلام – على هداية قومه إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم .

*****

(١) ينظر : سورة الرحمن ، عرض ودراسة ، دكتور: شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، نقلاً عن الجانب الفني في قصص القرآن الكريم ، ص ٧١

الفصل الثاني

البناء الفني في قصَّة مُوسى عليه السلام

يحسن بي قبل الحديث عن البناء الفني في قصة مُوسى – عليه السلام – أن أبين مدلول كلمة (الفن) من أجل أن أستكشف أبعاد هذه الكلمة ، ومدى علاقتها بالقصص القرآني من خلال حلقات قصة مُوسى عليه السلام .

جاء في القاموس المحيط (الفَنُّ) : الحال والضرب من الشيء ، جمع أفنان وفنون والطرد الغين والمطل والعناء والتزيين . وافْتَنَّ : أخذ في فنون من القول ، وفَنَّنَ الناس : جعلهم فنوناً ... والفَنَن : الغُصْنُ جمع أفنان وأفانين ... ورجل مِفَنٌّ يأتي بالعجائب . وهو فِنٌّ عِلْمٍ بالكسر : حسن القيام به [1] .

وإذا نظرت إلى هذه المعاني تلحظ أنها تدور حول الإبداع الذي جاء ذكره في السياق القرآني من خلال عدة آيات كريمات .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [2] .

وجاء معناه عند الفخر الرازي بقوله: "والإبداع عبارة عن تكوين الشيء من غير سبق مثال ، ولذلك فإن من أتى في فن من الفنون بطريقة لم يسبقه غيره ، يقال : إنه أبدع فيه" [3] .

ويقال: (أبدع) الشيء اخترعه لا على مثالٍ . والله بديع السماوات والأرض .

وقد تناول ابن خلدون هذا المعنى بقوله : "بأنه النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع التنميق" [4] .

---

(١) ينظر : القاموس المحيط ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، تحقيق : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، مؤسسة الرسالة ، ط : ٦ ، ص١٢٢٢ ، باب النون ، فصل الفاء ، مادة (الفنُّ) ، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٠١ .

(٣) مفاتيح الغيب ٩٢/١٣ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ، ص٦١٩ .

وبذلك يتلاقى الفن والإبداع من حيث كون معناهما يدور حول الاكتشاف ، والتحسين ، والجمال ، والتزيين .

يقول سيد قطب- موضحاً كلمة (الفن) في مجال القرآن بعد أن خشي أن يُساء استخدامها أو فهمها- : "لم يكن لها في نفسي إلاّ مدلول واحد هو: جمال العرض ، وتنسيق الأداء ، وبراعة الإخراج ، ولم يجل في خاطري قط أن (الفنّ) بالقياس إلى القرآن معناه الملفق ، أو المخترع ، أو القائم على مجرد الخيال !! ...

ألا يمكن أن تعرض الحقائق الواقعة عرضاً فنياً وعرضاً علميّاً ، ثم تبقى لها في الحالتين صفتها الأساسية من الصدق والواقعية" [1] .

ولقد تناول القرآن جملة من القصص القرآني التي كان غرضها الأساسي (الغرض الديني) ولم يمنعها ذلك الغرض من التفنن في الطرح والقص .

فالفن في القصص القرآني هو : "التناسق والتناسب بين المواقف والأحداث والشخوص والحوار ، حتى أغنى هذا التناسق عن التماس أسباب نزول القصة أو تعيين مكانها أو تحديد زمانها" [2] .

ولكي نستطيع أن نضع أيدينا على هذا التناسب والتناسق في قصص القرآن نقف مع حلقات قصة موسى – عليه السلام – مركزين فيها على مسارات ثلاثة نتناول فيها (البناء التصويري) (علم البيان) وما فيه من صور، واستعارات ، وكنايات، و(البناء التركيبي) (علم المعاني) وما فيه من تقديم وتأخير ، وحذف وذكر، وكيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، و(البناء الإيقاعي) (علم البديع) وما يحتوي عليه من مزايا ومحاسن تكسب الكلام جمالاً وبهاءً .

(١) التصوير الفني في القرآن ص٢٥٥ ، ٢٥٦ ، بتصرف .

(٢) الوحدة الفنية في القصة القرآنية ، د. محمد الدالي ص١٠ .

أولاً

البناء التصويري الفني في قصة موسى عليه السلام

يشكل البناء التصويري في القصة القرآنية عنصراً مهماً في إبراز الجوانب الفنية ونقل المتلقي من خلال اللغة إلى تصور المحسوسات التي تجري أمام ناظريه قد ملأت تلك الصور السمع ، والحس ، والذوق من خلال المشاهد والأحداث .

إن التعبير القرآني "يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها ، فتستحيل القصة حادثاً يقع ومشهداً يجري ،لا قصة تُروى ولا حادثاً قد مضى" [1] .

ولقد دار البناء التصويري عند البلاغيين حول التشبيه ، والمجاز ، والكناية . وجعلوا من هذه الأبواب وسيلة لإبراز جماليات الصور التي جاء بها القرآن، مصوراً بها الأحداث ، والمواقف ، والعواطف ، والمشاهد مدعماً بها ما يرنو إليه القرآن من أهداف في عرض القصص القرآني بأكمل صورة ، وأوضح بيان . ومن هذا البناء التصويري في قصة موسى عليه السلام .

أ- الصور القائمة على التشبيه :

توالت المعجزات الدالة على صدق مُوسى – عليه السلام – المرسل لبني إسرائيل ، ولكنهم مع ذلك لم ينتفعوا بها ، و لم يستجيبوا لها ، بل أصبحت قلوبهم قاسية كالحجارة ، كما قال- تعالى- مصوِّراً تلك القلوب : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [2] . فأي قلوب تلك القلوب التي هي أشد من الحجارة ؟! .

---

(١) التصوير الفني في القرآن ص١٩٠ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٧٤ .

و لم يكتفِ التعبير القرآني بتشبيه تلك القلوب بالحجارة بل " ترقَّى في التشبيه فجعل الحجارة أكثر ليناً من قلوبهم" [1] . وهذا يجعلنا نذهب كل مذهب في تصور قساوة تلك القلوب التي رفضت المعجزات والبراهين على صدق هذا النبي العظيم .

وفي معرض حديث القرآن عن تذكير بني إسرائيل بالنعم التي أنعم الله بها عليهم جاء تعدادها في سورة المائدة ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[2]. ومن هذه النعم نعمة (الملك) . ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾

وهذه النعمة التي ذكرها الله – عزَّ وجل – على طريقة التشبيه جاءت لتصور لنا حال بني إسرائيل ، فليس المعنى أن بني إسرائيل كلهم ملوك ، بل المعنى كما ذكره الرازي بقوله : "يعني وجعلكم أحراراً تملكون أنفسكم بعدما كنتم في أيدي القبط .." [3] . وقد ذكَّرَهم موسى – عليه السلام – بهذه النعم من أجل أن يهيئ نفوسهم لتقبل ما يأمرهم به .

وإذا أمعنا النظر في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾[4]. فلا يمكن أن نتجاوز هذه الآية إلاّ ومشهد الجبل يُخيَّل أمامنا وقد علا فوق الرؤوس كالسحابة تظلهم ، وصورة الجبل وقد ارتفع فوق الرؤوس من المشاهد الغريبة التي قد لا يتصورها العقل البشري ، ومبعث هذه الغرابة راجعة إلى "أننا نقيس الأمور بمقياس بشري ولكننا إذا رددنا الأمور إلى القدرة الخارقة ، والإعجاز الإلهي ، أحسسنا تماماً

(١) حدائق الروح والريحان ٥١٢/١ .
(٢) سورة المائدة : الآية ٢٠ .
(٣) مفاتيح الغيب ٣٣١/١١ .
(٤) سورة الأعراف : الآية ١٧١ .

بأنها أمور تقبلها النفس وتأنس بها النفوس المؤمنة" [1] . وهذا من الإعجاز القصصي الذي يحكي لنا ما جرى ، وكأنه مشهد يلوح في الأفق فما أعظمه من بيان وما أجله من كلام .

ومن التشبيهات التي كان لها الأثر البالغ في النفوس ما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [2] .

فبعد أن أمر الله – عزَّ وجل – موسى – عليه السلام – أن يلقي عصاه وما جرى على هذه العصا من انقلابها حيّة بإذن الله تسعى . إذا بالعصا تتماوج وتتحرك وتضطرب كاضطراب الجان ، ومع أن المشبه به خيالي إلاّ أن الآية استطاعت أن ترسم لنا صورة ذلك المشبه به ، وكأننا نشاهده أمامنا والذي ساعد على تصور هذا الجان هو ما اختزله العقل من "صورة قوية للجان ، تمثله شديد الحركة لا يكاد يهدأ ولا يستقر"[3] اعتماداً على فهم السامع وتركيب الصورة الخيالية على أن الجان مضطرب الحركة .

ب- الصور القائمة على الاستعارة :

تركز الحديث في سورة البقرة على تذكير بني إسرائيل بالنعم التي منَّ الله بها عليهم ، ومن ذلك نجاتهم من بطش فرعون وملَئه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [4] .

---

(١) الجانب الفني في قصص القرآن ، ص١٥٣ .

(٢) سورة النمل : الآية ١٠ .

(٣) من بلاغة القرآن ص١٥٠ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٤٩ .

يصور الحق – تبارك وتعالى – الرغبة الشديدة لفرعون وقومه وحرصهم على إنزال أشد العذاب على بني إسرائيل بقوله : ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ فكأنهم من شدة الحقد عليهم يساومون على عذابهم حتى تطمئن قلوبهم بأنهم قد وصلوا إلى أعلى درجات العقوبة ، والذي يرشدنا إلى هذا المعنى أن أصل السوم من "سام السلعة إذا طلبها ، كأنه بمعنى يبغونكم سوء العذاب ويريدونه بكم" (١) ؛ حيث شبَّه اختيار قوم فرعون لأشدِّ العذاب وإلحاقه بالضعفاء بالبائعين الذين يزاودون في السلع ،حذف المشبَّه به وأتى بصفة من صفاتهم وهي المساومة على سبيل الاستعارة .

ومن الصور البيانية التي جاء بها الخطاب القرآني ليؤكد بذلك حُبَّ بني إسرائيل وشغفهم بعبادة العجل ؛ حيث وبَّخهم الله على ذلك بقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ۚ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (٢) .

فعندما نقف متأملين قوله : ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ ﴾ نجد أنها قد أضافت إلى الآية جمالاً يأخذ بالألباب ، ويدفع بالعقل إلى تخيل هؤلاء القوم وهم يتدافعون على عبادة العجل، وليس المعنى أنهم حرصوا على عبادة العجل فحسب ، بل المعنى أنهم : "أشربوا في قلوبهم حب العجل... وتداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب" (٣) .

(١) مفاتيح الغيب ٣/٥٠٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٩٣ .

(٣) مفاتيح الغيب ٣/٦٠٤ بتصرف .

ولتوضيح الأمر أكثر يقول العز بن عبدالسلام [1] : "شبّه إنصباغ قلوبهم به بثوبٍ أُشرب لوناً غير لونه" [2] ؛ حيث حذف المشبَّه به وأتى بشيء من لوازمه وهو الشرب على سبيل الاستعارة .

وقد أرشدتنا هذه الصورة إلى المدى الذي وصلت إليه تلك العقول والتي ارتضت أن تتخذ من العجل إلهاً يُعبد من دون الله تعالى .

وعندما نقف أمام مشهد إلقاء موسى – عليه السلام – العصا بعد أمر الله – سبحانه وتعالى – : ﴿ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [3] .

فكانت النتيجة أن وقع الحق كما قال الحق – عزَّ وجل – : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [4] . وظهر النور المبين للحاضرين ، وعبَّر الله – سبحانه وتعالى – ظهور الحق بالوقوع ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ ﴾.

وإذا نظرنا إلى كلمة الوقوع فإن حقيقته "سقوط الشيء من أعلى إلى الأرض ، واستعير الوقوع لظهور أمر رفيع القدر ؛ لأن ظهوره كان بتأييد إلهي ، فشبهه بشيء نزل من علو ، وقد يطلق الوقوع على الحصول" [5] .

والتعبير القرآني بأن الحق وقع يجعلنا نتصور عظم الحق ومتانته ، وأن الحق لا يمكن أن يزعزع مهما كانت قوة الباطل ، وإذ بالحق "راجح الوزن ، ثابت القواعد ،

---

(١) هو : عبدالعزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم بن الحسن ، السلمي ، الدمشقي ، الملقب بـ (سلطان العلماء) ، ولد سنة ٥٧٧هـ ، وتوفي سنة ٦٦٠هـ .
الأعلام ، ٢١/٤ .

(٢) مجاز القرآن ، الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، للإمام أبي محمد عز الدين عبدالعزيز ابن عبدالسلام السلمي الشافعي ، تحقيق : د. محمد مصطفى بن الحاج ، منشورات كلية الدعوة ، ط : ١ ، ص٣٧٦ ، ١٤٠١هـ – ١٩٩٢م .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١١٧ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١١٨ .

(٥) التحرير والتنوير ٥٠/٩ .

عميق الجذور" [1] .والذي زاد من جمال الوقوع حصول الأثر وهو أنَّ الحق وقع فبطل واندحض غيره ، فلم يكتفِ الحق بالوقوع فحسب ، بل بالتأثير أيضاً.

وعند التأمل في آيات العذاب التي لحقت بآل فرعون ، وما حصل لهم من قحط وجدب وقلة في الثمرات ، ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [2] . جاء الخطاب القرآني معبراً عن هذا العذاب بالأخذ ﴿ أَخَذْنَآ ﴾ التي توحي بالشدة ، والقوة ، وأن هذا العذاب قد بلغ مداه جراء ونظير ما فعلوه . وفي هذه الآية نلحظ أنه "استعار الأخذ للابتلاء على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية" [3] .

وفي سياق حديث القرآن عن الغضب الذي لحق بموسى- عليه السلام – جراء ما فعله قومه بعد مغيبه للقاء ربه ، فما كان من هذا الغضب إلاّ أن سكت ، ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [4] .

يقول الرازي : "هذا الكلام خرج على قانون الاستعارة كأن الغضب كان يقويه على ما فعل ، ويقول له : قل لقومك كذا وكذا ، وألق الألواح وخذ برأس أخيك إليك ، فلما زال الغضب ، صار كأنه سكت" [5] .

يقول ابن عبدالسلام : "سكوت الغضب مجاز عن سكونه ؛ لأن الساكت مُسكِّنٌ للسانه عن تحريكه بالكلام . فاستعير ذلك لسكون الغضب ، وهو فتوره بعد شدته ، وخفته بعد فورته " [6] .

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٣٥٠ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٣٠ .

(٣) حدائق الروح والريحان ١٠/١١٦ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٥٤ .

(٥) مفاتيح الغيب ١٥/٣٧٤ .

(٦) مجاز القرآن ص٣٦٤ .

وعلى هذا القول أرى أن الغضب الذي كان يعاني منه موسى – عليه السلام – أو مرَّ به ليس غضباً عادياً أو بارداً ، أو غير فاعل ، وإنما كان فاعلاً ، لا يتجلى أثره في الغاضب (موسى) – عليه السلام – فحسب ، وإنما يتجاوزه إلى ما يحيط به من أشياء ، ونأخذ هذا المعنى من كلمة ﴿ سَكَتَ ﴾ ، والقرآن عندما يشبِّه الغضب برجل يتكلَّم ، ويحذف هذا الرجل ويأتي بصفة من صفاته وهي (السكوت) يجعلنا أمام صورة حية ،متحركة ، فاعلة ، ذات أثر نلمسه في المتكلِّم والمخاطب .

وفي معرض خطاب القرآن وحكايته عن الدعاء الذي دعا موسى- عليه السلام – على قومهِ بعد أن تعاقبت الآيات تلو الآيات والمعجزات الباهرات ، ومع ذلك قوبلت بالرفض والعصيان ، فما كان من مُوسى – عليه السلام – إلاّ أن دعا عليهم : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [1] .

وبعد أن عرف أنهم لا ينفع معهم نصيحة "وعلم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا الغي والضلال ، وأن إيمانهم كالمحال" [2] . كان من هذا الدعاء : ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ، ومعلوم أن الشد لا يكون إلاّ للحبال ، وكأننا من خلال هذه الجملة نتصور قلوباً قد أحكمت إغلاقاً خشية أن ينفذ إليها أو يخرج منها شيء ، وهذه عقوبة معجلة لبني إسرائيل الذي ينتظرهم الكثير من العذاب الأليم .

ولقد قال الزمخشري عن معنى : ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : "الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان" [3] .

---

(١) سورة يونس : الآية ٨٨ .

(٢) الكشاف ١-٢/٤٨٩ .

(٣) المرجع السابق ١-٢/٤٨٩ .

حيث : "شبّه القلوب بالأوعية ، وشبّه ما خلقه فيها من موانع الإيمان بالشد على وعاءٍ جُعل فيه شيء وهو من مجاز تشبيه المعاني بالمعاني" [1] .

وفي حلقة أخرى من حلقات قصة سيدنا موسى – عليه السلام – يرسم القرآن لنا لوحة نشاهدها من خلال قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [2] . فبعد أن طلب موسى- عليه السلام - والخضر الطعام من أهل القرية رفضوا إطعامهم ، فما كان من الخضر إلاّ أن أقام الجدار الآيل إلى السقوط ، وكانت النتيجة استغراب مُوسى – عليه السلام – من هذا الفعل ، فكيف يرفضون إطعامهم ، ويقوم بإصلاح جدارهم ؟! .

ومعلوم أن الإرادة لا يوصف بها إلا الأحياء ، فكيف وصف بها هنا الجدار ؟. قلنا : "هذا اللفظ ورد على سبيل الاستعارة" [3] ، وقد جعله ابن عبدالسلام من باب التعبير بالإرادة عن المقاربة ، "لأن من أراد شيئاً قربت مواقعته إيّاه غالباً ، فيكون التقدير إذاً : (أي : يقارب الانقضاض)" [4] ، وجمالها أنها ألبست الجدار لباس الأحياء وكأن له إرادة يفعل ما يشاء ويتحرك كيفما أراد ، ولا غرابة في ذلك إذا عرفنا أن المبدع هو الله سبحانه وتعالى .

وفي معرض حديث القرآن عن المعجزات التي أيَّد الله بها موسى – عليه السلام – وبعد أن كشف له الآية الأولى وهي انقلاب العصا حيّة ، إذا به يأمره بأن يضُمَّ يده إلى جناحه ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ [5] .

---

(١) مجاز القرآن ص٣١٦ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٧٧ .

(٣) مفاتيح الغيب ٤٨٨/٢١ .

(٤) مجاز القرآن ص٢٨٥ .

(٥) سورة طه : الآية ٢٢ .

وجاء لفظ الجناح الذي يجعلنا نتخيل عملية قبض وبسط الطائر لجناحيه والسياق القرآني "يختار للإبط والذراع صورة الجناح لما فيها من رفرفة ، وطلاقة ، وخفة" [1] .

ولكي تتضح الصورة أكثر يمكن أن يقال : "جناحا الإنسان ، جنباه والأصل المستعار منه جناحا الطائر" [2] . ومع ما في الآية من جمال تلحظه الأعين من خلال صورة الطائر ورفرفته إلا أنه لا بُدَّ من الإشارة إلى أنَّ مقام موسى – عليه السلام – لا يسمح في هذا الموضع أن يكون مرفرفاً ، بل المقام مقام حجة وبيان يحتاج إلى قوة إظهار ويمكن أن تتبين الحجة في سرعة الحركة ؛ لأن الذي سيواجههم فيما بعد تعنيهم سرعة الحركة التي هي من مقومات سحرهم الباطل ولذلك كان من المفترض أن يتجنب سيد قطب تلك الكلمات الآنفة الذكر .

ويصور لنا القرآن ما صنعه السامري في مغيب موسى – عليه السلام – لملاقاة ربه ، حيث أضَّل السامري قوم موسى- عليه السلام - فصنع لهم عجلاً من ذهب ، وكانت النتيجة أن عبدوا العجل بعد أن صدر منه ذاك الخوار ، فقال الله – عزَّ وجل – حاكياً ذلك: ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [3] .

والقارئ المتأمل الآية يرى نفسه أمام صورة حسيّة ، مجسمة ، تجعلنا نعيش قصة عجل السامري ، ونتخيل في أذهاننا ما قام به من عمل ، ويرجع هذا الفضل إلى الإعجاز البياني الذي يجعلنا نتصور أحداثاً قد جرت وكأنها تمر بين أعيننا ، وهذا بالطبع يساعد على توضيح القصة وتقريبها لدى المتلقي وساعد على تقريب هذه الصورة في الأذهان هو مجيء المستعار منه والمستعار له على صورة حسيّة .

---

(١) في ظلال القرآن ٢٣٣٣/٤ .

(٢) الكشاف ٧٠٤/٢-١ .

(٣) سورة طه : الآية ٨٨ .

وهذه الآية "من مجاز تشبيه الأجرام بالأجرام" [1] . "فإن المستعار منه ولد البقرة ، والمستعار له الحيوان الذي خلقه الله تعالى من حلي القبط التي سبكتها نار السامري عند إلقائه فيها التربة التي أخذها من موطئ حيزوم فرس جبرائيل – عليه السلام – ، والجامع لهما الشكل والجميع حسي" [2] .

ومن المواقف التي جاءت لتصور لنا حلقة من حلقات قصة موسى – عليه السلام – موقف السحرة بعد أن رأوا الحق وآمنوا برب العالمين رب موسى وهارون- عليهما السلام – إذا بهم يخرون ساجدين ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [3] .

فلم يترددوا عن الانقياد لله – عزَّ وجل – ؛ لأنهم عرفوا أن هذا ليس من السحر بشيء .

وجاء التعبير عن سرعة انقيادهم وقبولهم للحق وجود حرف(الفاء)؛ حيث صور لنا سرعة انطراحهم وسجودهم ، فهم "حين رأوا ما رأوا ، لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين ، كأنهم أخذوا فطرحوا طرحاً" [4] .

فقد استعار الله – عزَّ وجل – لقوة سجودهم وسرعة استجابتهم للسجود كالشيء الملقى على الأرض ، وهذه الصورة تجعلنا نستشعر درجة الإيمان الذي وصل إليه هؤلاء السحرة .

ولا أدلَّ على ذلك من التعبير بالانقياد بالفعل ألا وهو السجود قبل القول ، فاستجابت قلوبهم قبل ألسنتهم ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [5] .

---

(١) مجاز القرآن ص٢٩٧ .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ص٢٦٦ .

(٣) سورة الشعراء : الآية ٤٦ .

(٤) الكشاف ٣-٨٣٢/٤ .

(٥) سورة الشعراء : الآيات ٤٧ – ٤٨ .

وفي حديث القرآن عن أم موسى وموقفها الصعب الذي امتحنها الله – عزَّ وجل – بإلقاء وليدها في اليم ، حتى نسي فؤادها كل شيء إلاّ موسى – عليه السلام – ، ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [1] ، ولعل الله – عزَّ وجل – أراد بهذا التعبير أن يصور لنا تلك المرأة التي نسيت كل شيء إلا ولدها الرضيع ، فلا همَّ لها إلا التفكير بوليدها لذلك استعير لهذا القلب كلمة (فارغاً) ؛ حيث شبه قلب أم موسى بوعاء حذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه وهو الفراغ على سبيل الاستعارة .

ج- الصور القائمة على المجاز المرسل والعقلي :

يتحدث القرآن عن العذاب الذي طال بني إسرائيل ، حيث ذكر أن من عذابهم التذبيح ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ [2] ، وهذا من " مجاز نسبة الفعل إلى الآمر به ، وإن حُمل الذبح ، والقتل على المباشرة كان من مجاز نسبة فعل البعض إلى الكل" [3]. وأياً كان الأمر فالمجاز هنا دلنا على تحالف قوم فرعون مع فرعون ضد بني إسرائيل ، وأنهم من شدة حقدهم قد مارسوا جميعهم أو أكثرهم صفة التذبيح لهؤلاء الضعفاء .

ويشير المولى – جلَّ وعلا – إلى شدة قساوة قلوب بني إسرائيل ، حيث جاءهم من الآيات الباهرات التي لا يمكن أن تنكرها القلوب السليمة ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [4] ، ومع كل ذلك لم يدخل الإيمان قلوبهم .

---

(١) سورة القصص : الآية ١٠

(٢) سورة البقرة : الآية ٤٩ .

(٣) مجاز القرآن ص٢٣٥.

(٤) سورة البقرة : الآية ٧٤ .

وإذا نظرنا إلى البيان القرآني الذي جاء واصفاً شدة قساوة تلك القلوب ، نلحظ أنه أسند الخشية إلى الحجارة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ ، "والخشية مجاز عن انقيادها لأمر الله تعالى ، وأنها لا تمتنع على ما يريد فيها ، وقلوب هؤلاء لا تنقاد ولا تفعل ما أمرت به" [1] .

وقد تطرق ابن كثير لهذه الآية ، حيث نقل عن غير واحد من الأئمة ردهم على من قال بالمجاز فقال : "لا حاجة إلى المجاز فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [2] " [3].

ومن المعلوم أن الحجارة لا تعقل ، ولذلك قيل : "لفظة الهبوط مجاز وذلك أن الحجارة – لما كانت القلوب تعتبر بخلقها ، وتخشع ببعض مناظرها – أضيف تواضع الناظر إليها ، كما قالت العرب : ناقة تاجرة أي : تبعث من يراها على شرائها ، وقال مجاهد : ما تردَّى حجر من رأس جبل، ولا تفجَّر نهر من حجر، ولا خرج ماء منه إلا من خشية الله" [4] .

أقول : إن الذي جعل الخشية من باب المجاز أراد بها الانقياد والتواضع ، والذي يترجح لدي أن هذه الآية جاءت على الحقيقة ؛ لما جاء في الأحاديث المتواترة من سلام الحجر ، وأنين الجذع على النبي – صلى الله عليه وسلم – ؛ ولأن الذي خلق هذه الحجارة قادر على أن يجعلها تخشع ، أضف إلى أن نقل الكلام من الحقيقة إلى المجاز لا بدَّ فيه من قرينة تمنع الحقيقة .

---

(١) الكشاف ١-٢/٧١ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٧٢

(٣) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ١/٦٨ .

(٤) المحرر الوجيز ١/٣٥٧.

ومن الآيات التي أبرزت المجاز قصة موسى – عليه السلام – مع السامري الذي صنع لقومه في مغيب موسى – عليه السلام– عجلاً من ذهب له خوار معبوداً من دون الله: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [1] .

ومن خلال النظرة السريعة للآية يخيل إلينا أن قوم موسى– عليه السلام – كلهم قد اتخذوا عبادة العجل من دون الله – عزَّ وجل – و لم تستثنِ الآية أحداً منهم، مع أن الذي صنع وأمر بعبادة العجل هو السامري .

ومردُّ ذلك هو أن الله – عزَّ وجل – "نسب الاتخاذ إلى قوم موسى كلهم على طريقة المجاز العقلي ؛ لأنهم الآمرون باتخاذه والحريصون عليه ، وهذا مجاز شائع في كلام العرب" [2] ، وهو بذلك يصوّر لنا حالهم ، وإقرارهم على طريقة القرآن في التعبير والبيان . وعليه فإن تعبير القرآن الذي نسب الاتخاذ إلى الكل مع أنه للبعض فإن ذلك يوحي بالنفوذ التام لقوم موسى – عليه السلام – وقت غيابه بدليل قول هارون – عليه السلام –﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى ﴾ [3] ، وكأن القوم كلهم على هذه الشاكلة ، حيث تصور لنا الآية قوة حركة الباطل ، يقابلها ضعف حركة الحق من خلال نسبة الاتخاذ إلى الكل .

وتأتي قصة الميلاد العظيمة ، والرحلة العجيبة التي سطرها القرآن ، وصوَّرها أعظم تصوير لسيدنا موسى – عليه السلام– وبعد أن أصدر فرعون مرسومه الفرعوني بقتل الأولاد ، فكان الميلاد الذي حوّل مجرى تاريخ مصر ، فما كان من هذه الأم الرؤوم إلاّ أن قذفت بفلذة كبدها في اليم ، ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ [4] .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٤٨ .

(٢) التحرير والتنوير ١٠٩/٩ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٥٠ .

(٤) سورة طه : الآية ٣٨ – ٣٩ .

وعند التأمل في هذه الآية تتشكل أمامنا صورة الطفل الصغير ، والأمواج تتلاطمه يمنة ويسرة ، يسير به اليم إلى ساحل قد قدره الله – عزَّ وجل – وقد زاد من جمال الصورة قوله : ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ﴾ ، مع أن اليم (النهر) لا يعقل ولا يدرك ، ومع ذلك نسب الإلقاء إليه.

ويعلِّل الرازي ذلك بقوله : "لما كان تقدير الله تعالى أن يجري ماء اليم ويلقي بذلك التابوت إلى الساحل سلك في ذلك سبيل المجاز ، وجعل اليم كأنه ذو تمييز أمر بذلك ليطيع الأمر" (١) .

وفي معرض حديث القرآن عن المواعدة التي جاء ذكرها في قوله تعالى : ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾ (٢) .

فالآية توحي بأن المواعدة كانت لجميع بني إسرائيل ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ﴾ ، مع أنها في الحقيقة كانت لموسى – عليه السلام – ومن اختار معه من بني إسرائيل لملاقاة الله – عزَّ وجل – .

وفي حقيقة الأمر "أنه خاطب الجميع بـ (واعدناكم) ، وإن كان الموعودون هم السبعين الذين اختارهم موسى – عليه السلام – لسماع كلام الله ؛ لأن سماع أولئك السبعين تعود منفعته على جميعهم" (٣) .

وفي اللحظة التي شاع فيها خبر وصول الطفل موسى – عليه السلام – إلى فرعون إذا بالأم المسكينة يضطرب فؤادها قلقاً على وليدها الذي رمته في اليم من أجل نجاته ، فإذا هو الآن قابع عند عدوه ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ (٤) . وإذا تأملنا

(١) مفاتيح الغيب ٤٨/٢٢ .

(٢) سورة طه : الآية ٨٠ .

(٣) البحر المحيط ٢٦٥/٦ .

(٤) سورة القصص : الآية ١٠ .

كلمة ﴿ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ نجد أنه اختزل معنىً آخر جاء عند البلاغيين باسم التضمين حيث "ضُمِّن ﴿ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ معنى لتخبر به ؛ ليفيد الإظهار مع الإخبار ؛ لأن الخبر قد يقع سراً غير ظاهر" (١) ، ولذلك عدلت عن هذا الإخبار واستبدلته بأمرٍ أقل خطورة ، وهو طلبها من أخت موسى – عليه السلام – أن تسعى في البحث عنه ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (٢) . وهذا الطلب جاء في- نظري- ليكون بالنسبة لأم مُوسى – عليه السلام – عوضاً عن الإخبار الذي قد يؤول إلى نتائج وخيمة فكان هذا الطلب بمثابة التنفيس لما في صدرها من ألـم ، وحسرة على وليدها .

ويفصح القرآن عن غطرسة فرعون ، ومباهاته أمام قومه بأن له ملك مصر ، وأن الأنهار تجري من تحته أفلا تبصرون ذلك أيها الناس ؟

ويصور القرآن لنا فرعون وكأنه ينادي ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ﴿٥١﴾ ﴾ (٣) .

ولكن في حقيقة الأمر لم يكن هو المنادي بل كان دور فرعون في هذا الأمر هو الأمر بالنداء ، أي : "وأمر من ينادي في قومه وهذا من مجاز نسبة الفعل إلى الآمر به" (٤) . أي : على طريقة المجاز العقلي .

فلم يكن من عادة الملوك النداء ، بل الأمر بالنداء . وأبرزت الآية فرعون وهو على هذه الصورة ليدل على الحالة النفسية التي وصل إليها فرعون ، حيث حاول أن يوقف زحف دعوة موسى – عليه السلام – من خلال إبراز المناظر البصرية ، و لم يعلم أن الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب فهيهات ثم هيهات أن تقف تلك المناظر حائلة دون الإيمان .

---

(١) مجاز القرآن ص٢٦٣

(٢) سورة القصص : الآية ١١ .

(٣) سورة الزخرف : الآية ٥١ .

(٤) مجاز القرآن ص٢٣٣ .

د- الصور القائمة على الكناية :

دارت الكناية في حلقات قصة موسى – عليه السلام – من أجل أن تَرسُم لنا صوراً تتشكل أمامنا لنعيش القصة من داخلها وفي أجوائها . ومن تلك الحلقات ما جاء في قوله تعالى : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [1] .

يطلب موسى – عليه السلام – من قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة من أجل إعلاء كلمة الحق ، ولا تفكروا بالرجوع وتولي الأدبار ، ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ ﴾ ، وهنا تتجسّد أمامنا صورة جيش يحاول أن يفر من المعركة ، والذي ساعدنا على تصور تلك الجيوش الهاربة هو أسلوب الكناية في قوله : ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ ﴾ .

والآية كناية عن الفرار من ساحات المعارك ، أما الشجعان فيقدمون عند ملاقاة الأعداء . قال كعب بن زهير [2] :

لا يقــع الطعــن إلاّ في نحــورهم ٠٠ وما لهم عـن حيـاض المـوت تهليـل

فهو يخبر أن من صفاتهم الإقدام ، وعدم الإحجام عند ملاقاة الأعداء ، ولا أدلَّ على هذا الإقدام من كون الطعنات تصيب النحور ، وهذا كناية عن التقدم ، أما تولي الأدبار (الفرار) فليس من خصال أصحاب الشجاعة والإقدام ؛ فلذلك قال تعالى : ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ ﴾ .

وتأتي الكناية في موضعٍ آخر لترسم لنا صورة شخص قد اشتدَّ ندمه ، وهذا ما وقع فعلاً لبني إسرائيل بعد أن اكتشفوا خطأهم لما عبدوا العجل : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ

(١) سورة المائدة : الآية ٢١ .

(٢) شرح ديوان كعب بن زهير ، أبي سعيد السكري ، دار الكتب والوثائق القومية ، ط : ٣ ، ص٢٥ ، ٢٠٠٢م .

فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [1] ، فلقد ندموا أشد الندم .

ولقد وقف الزمخشري عند قوله : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ مُعَلِّلاً فعلهم بقوله : " لأن من شأن من اشتدَّ ندمه وحسرته أن يعض يده غماً ، فتصير يده مسقوطاً فيها ؛ لأن فاه قد وقع فيها وهو من باب الكناية" [2] .

وقد دلّت الكناية على قوة الحزن والأسى الذي أصاب هؤلاء القوم من جراء فعلتهم التي كانت سبباً لعودتهم إلى جادة الصواب . ﴿لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

ويصور القرآن فؤاد تلك الأم المكلومة بعد أن استجابت لطلب ربها ، وألقت فلذة كبدها في اليم ﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [3] .

يقول ابن عباس : "فارغاً من كل شيء إلاَّ من ذكر موسى" [4] .

لما علمت أم مُوسى أن آل فرعون قد التقطوا ولدها ، وأنَّ موسى – عليه السلام – في حوزتهم لم تتمالك نفسها ، وكاد أن يطير عقلها ، ولكن الله – عزَّ وجل – ربط على قلبها واختار القرآن لفظ الربط "كناية عن قراره واطمئنانه ، شُبِّه بما يربط مخافة الانفلات" [5] ؛ لأن في انفلاته هلاك لها ، ولوليدها ، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٤٩ .

(٢) الكشاف ١-٣٨٩/٢ .

(٣) سورة القصص : الآية ١٠ .

(٤) البحر المحيط ١٠٦/٧ .

(٥) المرجع السابق ١٠٧/٧ .

نخلص إلى أن البناء التصويري في قصة موسى – عليه السلام – على مختلف ألوانه ، وأشكاله نقلنا من كوننا قُرَّاء نقرأ جملاً من الكلمات إلى العيش في أجواء القصة من خلال الصورة التي ترسمها الكلمات والأبنية .

*****

ثانياً
البناء الفني التركيبي في قصة مُوسى عليه السلام

من المهم قبل الحديث عن أنماط وأساليب البناء التركيبي الإشارة إلى نظرية النظم التي بسطها عبدالقاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) ؛ وذلك لما لهذه النظرية من أهمية في معرفة (علم المعاني) .حيث إنه من خلال معرفة هذه النظرية نستطيع أن نقف على جماليات وأسرار التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ... الخ .

يقول الشيخ عبدالقاهر : "واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك ، أنه لا نظم في الكَلِم ولا ترتيب ، حتى يُعلَّق بعضها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك" [1] .

وهذا ما يؤكد علاقة علم المعاني بعلم النحو ، ولا يمكن أن نجعل أحدهما بمعزلٍ عن الآخر .

والجملة لا تخلو غالباً من اشتمالها على تقديم وتأخير ، وحذف وذكر ، وفصل ووصل ، وتعريف وتنكير ، وكل هذا يجعلنا أمام تركيب نسعى جاهدين إلى الكشف عن أسراره .

ولقد أصبح علم المعاني من خلال تعريفه الذي قال عنه القزويني : "هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال" [2] .ذا أهمية كبيرة بين علوم البلاغة

ولا يخفى على كل باحث أن الأساليب والأنماط البنائية التركيبية عديدة لا يمكن حصرها في مثل هذا الموضع ؛ ولكن سأقف على الأساليب والأنماط التي استخلصتها من قصة موسى – عليه السلام – بعد استعراضها لأقدم فكرة عن البناء التركيبي فيها . وما عنَّ لي من أسرار قد تحتمله تلك التراكيب .

---

(١) دلائل الإعجاز ص٥٥ .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ص١٤ .

فمن المباحث التي اهتم بها علماء البلاغة مبحث (الخبر) [1] .

وسأحاول الوقوف على أبرز ما جاء في حلقات قصة مُوسى – عليه السلام ، وما ورد فيها من أساليب إخبارية تختلف باختلاف أحوال المخاطبين ، محاولاً بذلك الوقوف على سر التنوع الخطابي المبثوث في معظم حلقات القصة . ومنها على سبيل المثال :

تعددت نعم الله – عزَّ وجل – على بني إسرائيل ، وجاء القرآن حاكياً عن ذلك مذكراً بها بني إسرائيل بلسان موسى – عليه السلام – من أجل أن يمتثلوا لأمر الله ، ويعودوا إلى رشدهم ، وطريق الهداية ، وأخذ يخبرهم عن هذه النعم بجمل إخبارية متعددة ، منها : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [2] .

وذكَّرهم بعد ذلك بقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [3] .

---

(١) اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب : فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما ، ثم اختلفوا فقال الأكثر منهم : صدقه مطابقة حكمه للواقع ، وكذبه عدم مطابقة حكمه له ، هذا هو المشهور وعليه التعويل . ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة ص١٦ .

والمتكلم عندما يتحدث فإنه يخبر عن قضية تهمه ، أو تهم المخاطب ، فهو يريد إيصالها إلى المخاطب، ويختلف الخطاب من حيث التأكيد وعدمه ، وذلك مراعاة لحال المخاطب .

وتتنوع أغراض الخبر بتنوع سياقاتها ، وأحوال المخاطبين ، ولقد تكلم علماء البلاغة عن كيفية إلقاء الخبر ، وقسموه إلى ثلاثة أقسام ، تختلف باختلاف أحوال المخاطبين : المخاطب خالي الذهن من الخبر ، غير المتردد فيه ، المخاطب المتردد في الخبر ، المخاطب المنكر للخبر .

(٢) سورة البقرة : الآية ٥٤ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٥٥ .

وهاهو – سبحانه وتعالى – يخبرهم بعد هذا الطلب : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [1] .

وبعدها يقول لهم : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [2] .

نجد أنفسنا أمام أخبار حاشدة تزخر بها هذه الآيات الكريمات ، وإذا ما ذهبنا نتلمس هذه الأخبار وجدنا أبا حيان يقول عن هذه الأخبار : "افتتحها بالإخبار بأنهم ظلموا أنفسهم ، وختمها بذلك وهو قوله: ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ فجاءت هذه الجملة في غاية الفصاحة لفظاً ، والبلاغة معنى ؛ إذ جمعت الألفاظ المختارة ، والمعاني الكثيرة متعلقاً أوائل أواخرها بأواخر أوائلها مع لطف الإخبار عن نفسه ، فحيث ذكر النعم صرح بأن ذلك من عنده ، فقال : ثم بعثناكم ، وقال : وظللنا وأنزلنا ، وحيث ذكر النِّقم لم ينسبها إليه تعالى ، فقال : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ ، وسِرُّ ذلك أنه موضع تَعْدَادٍ للنعم ، فناسب نسبة ذلك إليه ليذكرهم آلاءه ، ولم ينسب النقم إليه ، وإن كانت منه حقيقة ؛ لأن في نسبتها إليه تخويفاً عظيماً ، ربما عادل ذلك الفرح بالنعم ..." [3]

وهذه المؤكدات جاءت في مطلع الآيات ، وختمها ببيان ظلمهم لأنفسهم ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾، وبذلك تتعانق أوائل الآيات مع أواخرها ، مؤكدةً على أن الخاسر أولاً وآخراً من ظَلَم نفسه بأي نوع من أنواع الظلم .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٥٦ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٥٧ .

(٣) البحر المحيط ٢١٦/١ .

وتقرأ- قوله تعالى- حاكياً قول ملأ فرعون : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [1] ، فبعد أن عاين الملأ المعجزات وأدركوا أن هذا الأمر كفيل بزعزعة كيان فرعون، وأنه لا بد من وقفة جادة تمنع زحف هذا الخطر – بزعمهم – قالوا: إن هذا لساحر عليم ، محاولين إيقاظ الأذهان ، ومؤكدين على المبادرة في التصدي لهذا العدوان الخارجي الذي يهدد كيان أمة الفراعنة ، والذي دفع فرعون وملأه إلى تلك المبادرة هو أنهم أدركوا الخطر المحدق بهم [2] الذي يهدد مصالحهم المتعددة (السياسية ، والاقتصادية ، والدينية) .

وفي معرض حديث القرآن عن اللقاء التاريخي بين موسى – عليه السلام – والسحرة ، وقبل أن يكون اللقاء ، جمع فرعون السحرة ، ولكنهم اشترطوا شرطاً ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [3] ، ونظراً لانعدام ثقة السحرة بفرعون أكدوا كلامهم بمؤكدات عدة ، منها : إن ، اللام الواقعة في خبرها ولم يكن جواب فرعون عن طلبهم ببعيدٍ عنهم ، حيث أجابهم بالإخبار وقبول شرطهم، ولكن بطريق التأكيد: ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [4]؛ ليضع بذلك شعار العقود الجائرة (انعدام الثقة بين الأطراف المتواطئة على الحق وأهله) .

وعندما تقرأ قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [5] .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٠٩ .

(٢) في ظلال القرآن ١٣٤٨/٣ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١١٣ . ينظر : البلاغة فنونها وأفنانها ، علم المعاني ص ١٢٧ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١١٤ .

(٥) سورة الأعراف : الآية ١٢٣ – ١٢٤ .

جاء هذا الأسلوب المشحون بالوعيد من فرعون عندما حصل ما لم يتوقعه و لم يخطر على باله (إيمان السحرة) ، فالآلة التي معه صارت ضده ، و لم يكن له خيار إلاّ هذا الأسلوب ؛ لأن الناس تبصر المشهد فخشي أن يزول ملكه ، وجاءت هذه المؤكدات (إن، سوف) ؛ لتصور لنا الخوف الذي لحق بفرعون ، حيث اتهم هؤلاء السحرة أمام الملأ أنهم كانوا على اتفاق مسبق مع موسى – عليه السلام – ، "وجملة ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ ﴾الآية . خبر مراد به لازم الفائدة [1] ، أي : قد علمت مرادكم ؛ لأن المخاطَب لا يخبَر بشيء صدر منه . كقول عنترة :

إن كنتِ أزمعت الفراق فإنما ٠٠ زُمّت ركابكمُ بليل مظلم

أي : إن كنت أخفيت عني عزمك على الفراق فقد علمت أنكم شددتم رحالكم بليل لترحلوا خفية" [2] ، وهو بهذا التهديد يجعل المخاطب يذهب بخياله إلى أقسى أنواع العذاب في المستقبل ، وهذا الوعيد لا يستغرب ممن قال أنا ربكم الأعلى.

ويأتي أسلوب الخبر مؤكِداً ، ومدلِلاً بطلان أفعال السحرة ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [3] .

لما كان حال المخاطبين الإنكار ، وأنهم لن يهزموا ، جاء المتكلم بتأكيدات تناسب الحالة التي هم فيها وهي الإنكار ، فأكد كلامه بإنَّ والسين ؛ لعلهم يقفون مع أنفسهم وقفة تأمل ، وأن هذه الأوهام ، والخيالات التي يتلاعبون فيها بعقول الناس ليست كالآيات التي جاء بها موسى – عليه السلام – من رب الأرض والسماوات.

---

(١) المقصود بـ (لازم الفائدة) : كون المخبر عالماً بالحكم ، كقولك لمن زيد عنده ، ولا يعلم أنك تعلم ذلك : "زيد عندك" . الإيضاح في علوم البلاغة ص٢٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٥٣/٩ .

وهذا البيت لعنترة بن شداد بن معاوية بن قداد العبسي ، الشاعر المشهور من أهل نجد ، من فحول شعراء الطبقة الأولى ، وقد وجدت في ديوانه بدل كلمة (زمت) ، (زفت) .

ديوان عنتر ، خليل الخوري ، ط : المطبعة الجامعية ، بيروت ، ص٣-٨٠ ، سنة ١٨٩٣م .

(٣) سورة يونس : الآية ٨١ .

وتقرأ قوله تعالى حاكياً الرد على فرعون : ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [1] .

فبعدما نزل به الموت ، وهو في الرمق الأخير ، يحاول أن يحقق العبودية لله – عزَّ وجل – فجاء السياق بتحقيق العصيان من خلال التأكيد بـ[قد] وهنا يكون الخبر على المخاطب أشد وأنكى ؛ لمجيء الخبر على عكس ما توقع .

ويتجلّى عطف الله – عزَّ وجل – ورحمته بإعلان إجابة دعوة موسى – عليه السلام – بعد أن أحسَّ بالمهمة المناطة على عاتقه ، وعظم المسؤولية المكلف بها ، انتهز كليم الله مناجاته لله – عزَّ وجل – بأن ييسر له أمره ، ويشرح له صدره ، وجاءت الإجابة :﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [2] وهي إجابة مؤكدة ، محققة ، "هكذا مرة واحدة في كلمة واحدة فيها إجمال يغني عن التفصيل ، وفيها إنجاز لا وعد، ولا تأجيل... وفيها مع الإنجاز عطف ، وتكريم ، وإيناس بندائه باسمه (يا موسى) ، وأي تكريم أكبر من أن يذكر الكبير المتعال اسم عبد من العباد؟" [3] .

وهذه الإجابات تجعل المخاطب يقدم على تنفيذ المطالب دون تردد ، مع الراحة التي يجدها في نفسهِ أثناء رحلة الرسالة .

وتقرأ قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ [4] .

جاءت هذه التأكيدات في سياق حديث القرآن عن موسى – عليه السلام – بعدما أوجس في نفسه خيفة ، حينما رأى الحبال والعصي تتحرك ، وتتماوج ، فخاف موسى – عليه السلام – ، ولكن هذا الخوف لم يظهر على ملامحه كما سيأتي

(١) سورة يونس : الآية ٩١ .
(٢) سورة طه : الآية ٣٦ .
(٣) في ظلال القرآن ٢٣٣٤/٤ بتصرف .
(٤) سورة طه : الآية ٦٨ .

في أسلوب التقديم والتأخير ، فأراد الله – عزَّ وجل – أن يقتلع هذا الخوف من جذوره ، فجاءت هذه المؤكدات مقررة " لغلبته ، وقهره ، وتوكيد بالاستئناف ، وبكلمة التوكيد ، وتكرير الضمير ، وبلام التعريف ، وبالأعلوية الدالة على التفضيل" [1]، كل هذا من أجل استخلاص النفس من أن يتسلل الخوف إلى أعماقها .

يظهر جمال التركيب في حوار موسى – عليه السلام – مع السامري ، بعد أن صاغ العجل ، فقال له موسى – عليه السلام – : ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [2] ، بعد أن عاتب موسى هارون – عليهما السلام – التفت إلى صاحب القضية ، ومشعل فتيل الحرب على عقيدة أهل العبودية ، وأقسم موسى- عليه السلام - وأكّد ليجعل مصير هذا العجل الحرق ، والنسف في البحر ، ويأتي جمال التناسب في النتيجة التي آل إليها هذا العجل ، فإنه "لما كان قد أخذ السامري القبضة من أثر فرس جبريل وهو داخل البحر حالة تقَدُّمِ فرعونَ وتبعه فرعونُ في الدخول ناسب أن يُنَسف ذلك العجل ... في البحر ؛ ليكون ذلك تنبيهاً على أن ما كان به قيام الحياة آل إلى العدم ، وألقي في محلٍّ ما قامت به الحياة ، وأن أموال القبط قذفها الله في البحر ، بحيث لا يُنتفع بها ، كما قذف الله أشخاص مالكيها في البحر وغرَّقَهُمْ فيه" [3] .

ويضاف إلى ذلك أنه لما كانت القضية قضيةَ عقيدة وتوحيد ، فلا يصلح من هذه الأخبار إلاّ مثل هذه الأساليب التي تنبئ عن خطر عظيم قد مسَّ العقيدة ، ولذلك جاء بالقسم .

---

(١) البحر المحيط ٦/٢٥٦ .

(٢) سورة طه : الآية ٩٧ .

(٣) البحر المحيط ٦/٢٧٦ بتصرف .

وتقرأ الآيات التي جاءت في سياق القصة بعد أن آمن السحرة ، وجاء الأمر من الله – عزَّ وجل – بأن يسير موسى – عليه السلام – بمن آمن معه من قوم بني إسرائيل إلى جهة البحر ، فما كان من فرعون إلاّ أن حشد الجنود ، وأخذ بفعل ما يسمى اليوم بـ(التعبئة العامة) [1] .

فقال – تعالى- حاكياً عن ذلك : ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [2] ، ففرعون في هذه اللحظة يعيش في حالة يرثى لها بعدما خُذِل في أحداث السحرة ، وإعلانهم الإيمان برب موسى وهارون – عليهما السلام – فما كان منه إلاّ أن أخذ يؤكد ، ويقلل من شأن أتباع موسى – عليه السلام – ، مؤكداً ذلك (بإنَّ) ، وزاد هذا التأكيد أنه لم يشر إلى قوم موسى – عليه السلام – بل قال هؤلاء ؛ احتقاراً لهم ، ثم جاء بالأوصاف التي تدل على قلتهم .

يقول الزمخشري : "والشرذمة : الطائفة القليلة .. ذكرهم بالاسم الدال على القلة ، ثم جعلهم قليلاً بالوصف ، ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلاً ، واختار جمع السلامة الذي هو للقلة ... " [3] .

ومضت الآية تؤكد بمؤكدات عدة . هذه المؤكدات تعطينا مؤشراً قويّاً على أن من مَلِكَ مصر. (فرعون) بدأ يحس بانهيار أركان عرشه ، فقد كان إيمان السحرة أمام الملأ بمثابة الضربة القاضية لأركانه ، محاولاً بذلك استنهاض همم قومه .

وبعدما أصبح كل فريق يرى الآخر ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [4] .

---

(١) أشار إلى هذه العبارة سيد قطب في (الظلال) ٥٩٨/٥ .

(٢) سورة الشعراء : الآية ٥٣ – ٥٦ .

(٣) الكشاف ٣-٨٣٣/٤ .

(٤) سورة الشعراء : الآية ٦١ – ٦٢ .

فالعدو من خلفهم ، والبحر من أمامهم ، اتجه قوم موسى لموسى- عليه السلام – مخاطبينه بأنهم مدرَكون لا محالة ، وقد أطلقوا هذا الخبر "بالتأكيد ؛ لشدة الاهتمام بهذا الخبر ، وهو مستعمل في معنى الجزع" [1] ، وأكدوا في هذا الخبر أنهم أمام موت محقق ، من خلفهم عدو يتربص بهم ، وبحر يتماوج من أمامهم ، وجاء الجواب من موسى – عليه السلام – مؤكداً لهم خبر النجاة ، وأن الله- عز وجل – معه هادياً ونصيراً، مراعياً بذلك حال المخاطبين الشاكين بنصر الله عز وجل .

وفي حديث القرآن عن بدايات اللقاء الربّاني مع موسى – عليه السلام – بداية الرسالة ، وانطلاق الهداية من البقعة المباركة ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩ ﴾ [2]، ختم هذه الآية بإعلام موسى – عليه السلام – بأن الله عزيز حكيم، ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنها جاءت تؤكد لموسى – عليه السلام – "بأن أمراً مهماً يجب علمه ، وهو أن الله عزيز حكيم ، أي : لا يغلبه شيء ، لا يستصعب عليه تكوين" [3] فالحكمة الربانية قدمت الدوافع النفسية ، وهي إحساس موسى – عليه السلام – بأن الله – عزَّ وجل – ناصره ، ومؤيده قبل الدوافع الحسيّة المتمثلة بالعصا ، واليد التي تخرج بيضاء للناظرين.

وفي أولى حلقات موسى – عليه السلام – ومحاولة إخفائه عن أعين فرعون وأعوانه ، والأمر من الله لأم موسى بإلقائه في اليم ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧ ﴾ [4]، يعجز اللسان ، ويقف البيان حائراً ماذا يقول عن شعور امرأة

(١) التحرير والتنوير ١٣٥/١٩ .
(٢) سورة النمل : الآية ٨ – ٩ .
(٣) التحرير والتنوير ٢٢٧/١٩ .
(٤) سورة القصص : الآية ٧ .

تلقي بفلذة كبدها في مياه تجمع ألواناً شتّى من المخاطر ! إنه عمل يخالف العقل البشري . فلمَّا علم الله – عز وجل –وهو أعلم بحالها أنها تستبعد بقاءه حياً ، لم يأتِ الإخبار ، والتأكيد ، والإعلام ببقائه على قيد الحياة فقط ، بل جاء التأكيد بأن الله – عزَّ وجل – بقدرته سيردُّه إليها ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ .

ومسألة إرجاع وليدها إليها أعظم في– نظرها– من مسألة الرسالة ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾، لذلك خلا الإخبار بالرسالة من التأكيد ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

ويظهر في قصة موسى – عليه السلام – عناية الله – عزَّ وجل – به ، فبعدما اجتمع فرعون وملؤه ، وأجمعوا على قتله ، بعث الله إلى موسى– عليه السلام – من يخبره بذلك ؛ ليتمكن من الهرب قبل الإمساك به ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [1] ، فالرجل يطلق الخبر مؤكداً ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ؛ لأن مُوسى – عليه السلام – لم يكن على يقين بما يقوله ذلك الرجل ، فجاء الخبر بالتأكيد ؛ ليقطع ذلك التردد ، ويسارع بالهرب قبل أن يصل إليه الأعداء .

فالخبر عندما ألقي ناسب حالة موسى – عليه السلام –المترددة ، والذي ساعد في هذا التردد أن الخبر جاء من رجل من أتباع فرعون ، فكيف يأتي التحذير منه ؟ .

يقول الزمخشري : "قيل : الرجل مؤمن آل فرعون" [2] ، وهذا الذي دفع موسى– عليه السلام – إلى التردد ، مما حدا بالمتكلم إلى أن يلقي خبره مؤكداً .

ويأتي الخبر ليفصح لنا الحالة التي مرَّ بها موسى – عليه السلام – بعدما سقى للبنتين ثم توجه إلى الظل ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ

(١) سورة القصص : الآية ٢٠ .

(٢) الكشاف ٣-٤/٨٧٦ .

﴿ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [1] ، فقد أتى في هذا الخبر ما يدل على أن موسى – عليه السلام – قد أصابه الوهن . ولذلك أكده ، وقبل التأكيد جاء السياق دالاً على وهنه ، وضعفه من خلال رسم صورة رجل ضعيف ، لا يملك سوى ظل شجرة ، توجه إليها طالباً من المولى – عزَّ وجل – إنزال أي شيء "إني : لأي شيء (أنزلت إليَّ) قليل أو كثير ، غث أو سمين لفقير " [2] ، وكل هذا من أجل إظهار الضعف الذي لحق به عليه السلام .

وتقرأ في خطاب موسى – عليه السلام – بعدما سمع مقولة فرعون ﴿ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [3] التوجه في طلب الاستعانة والالتجاء بالله – عزَّ وجل – من كيد الطغاة ، وأن يحميه وقومه من شرهم ، ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [4] .

يقول البيضاوي : "وقال موسى أي لقومه لما سمع بكلامه ﴿ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ ، صدَّر الكلام بأنَّ تأكيداً ، وإشعاراً على أن السبب المؤكَّدَ في دفع الشرِّ هو العياذ بالله ، وخصَّ اسم الرب ؛ لأنَّ المطلوب هو الحفظُ ، والتربيةُ ، وإضافته إليه وإليهم حثاً لهم على موافقته لما في تظاهر الأرواح من استجلاب الإجابة، ولم يسمِّ فرعونَ ، وذكر وصفاً يعمه وغيَره لتعميم الاستعاذة ..." [5] .

---

(١) سورة القصص : الآية ٢٤ .

(٢) الكشاف ٣-٨٧٧/٤ .

(٣) سورة غافر : الآية ٢٦ .

(٤) سورة غافر : الآية ٢٧ .

(٥) تفسير البيضاوي ٢٠٧/٣.

ويتجلى التأكيد في الأخبار التي ساقها مؤمن آل فرعون مُخَوِّفاً ، ومحذراً قومه ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [1] ، لم يفتأ ، و لم يمل من النصح ، وهذه صفة المؤمن ، وخاطبهم بـ (يا قوم) ؛ لإشعارهم أنه منهم ، وبعدها جاء التأكيد .

يقول البقاعي : "ولما كانوا منكرين للبعث أكدَّ فقال : (إني أخاف) ، وعبر بأداة الاستعلاء زيادة في التخويف فقال : (عليكم)" [2] .

وفي سياق حديث القرآن عن خطاب المؤمن يَرِدُ لفظ (التناد) ، وهو "واقع في صور شتى وتسميته (يوم التناد) ، تلقي عليه ظل التصايح ، وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك ، وتصور يوم زحام وخصام" [3] .

كما أننا نشاهد الناس وهم في ذلك الموقف ، لا يدرون أين يتجهون ، ونسمع تلك الصيحات الدالة على أنه يوم عظيم، والذي دفعني إلى تخيل تلك المشاهد، والأحداث هي كلمة (التناد) .

وتقرأ في أخبار الرجل المؤمن الذي ساقها إلى قومه ، تعجبه ، واستفهامه الموجه إلى قومه ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [4] .

كيف أدعوكم إلى ما فيه نجاتكم ، وصلاحكم ، وتدعونني إلى الهلاك ، والثبور ، أهذا جزائي ؟ ، وقد بدأ الرجل المؤمن أولاً بـ "جملة اسمية ، وهو الاستفهام المتضمن التعجب من حالتهم ، وختم أيضاً بجملة اسمية ؛ ليكون أبلغ في توكيد الأخبار ، وجاء في حقهم (وتدعونني) بالجملة الفعلية ، التي لا تقتضي توكيداً إذ دعوتهم باطلة ، لا ثبوت لها ، فتؤكد" [5] .

---

(١) سورة غافر : الآية ٣٢ .
(٢) نظم الدرر ٥١١/٦ .
(٣) في ظلال القرآن ٣٠٨٠/٥ .
(٤) سورة غافر : الآية ٤١ – ٤٢ .
(٥) البحر المحيط ٤٦٧/٧ .

وفي حقيقة الأمر أنهم لم يدعوه إلى النار كما قال (وتدعونني إلى النار) ، "إنما دعوه إلى الشرك ، وما الفرق بين الدعوة إلى الشرك ، والدعوة إلى النار ؟ إنها قريب من قريب" [١] ، فذكر لهم المصير الذي يؤولون إليه بدعوتهم إلى الشرك ، وهذا يناسب المقام والسياق ، الذي وردت فيها الآية ، وهو سياق الشفقة ، والخوف على قومه من أن تنتهي حياتهم إلى هذا المصير .

ومن بلاغة التراكيب ما يسمى بأسلوب **الالتفات** [٢] ، وهو من الأساليب التي تحتاج إلى الذوق السليم ، والنظرة السديدة ، وسبر أغوار النفوس ؛ ليحسن نقل الكلام من التكلم إلى الخطاب ، ومن التكلم إلى الغيبة ... الخ .

يقول الزمخشري عن محاسنه : "الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب ، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد" [٣] .

ومما جاء من هذا الأسلوب في حلقات قصة موسى – عليه السلام – قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [٤] .

ولم تسر الآية على نمطٍ واحد بل جاء التحول في نهاية الآية ﴿ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ ، فحصل هنا التفات "من الغيبة إلى الخطاب ؛ للمبالغة في الحض على سلوك نهج الصالحين ، والأصل : سأريهم ؛ أي : قومك" [٥] .

---

(١) في ظلال القرآن ٣٠٨٣/٥ .

(٢) الالتفات يعتبر جزءاً من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وهو يدخل ضمن ما يسمى بالدراسات الحديثة بالانزياح ، أو العدول .
ينظر : مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء ، د. حامد صالح خلف الربيعي ، وهو بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى ، ص٥٧٩ – ٥٨٠ ، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م .

(٣) الكشاف ١١/٢-١ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٤٥ .

(٥) حدائق الروح والريحان ١٥٧/١٠ .

وجاء هذا الالتفات ليناسب الحالة النفسية التي يعيشها بنو إسرائيل من الخور والضعف ، وقد التمسناه في مواطن عدة مع موسى – عليه السلام – ، وهذا الالتفات جاء ليصور لنا " تلك الطبيعة الخائرة ، المفككة ، الملتوية التي كانت تعالجها العقيدة والشريعة التي جاء بها موسى – عليه السلام" [1] .

ومما يدخل في الالتفات ، أو ما يقرب منه نقل الكلام إلى غيرهِ [2] ، قوله تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [3] .

وجه القوم خطابهم لموسى – عليه السلام – في بداية الأمر لوحده ، ومن ثمَّ أشركوا هارون في الخطاب ، والسر في ذلك أنه "لما تقدم من أنه الذي باشر الدعوة وأظهر المعجزة ، ثم أشركاه مع أخيه هارون في سوء ظنهم بهما في الغاية من عملهما" [4] .

وقد يأتي الالتفات متحولاً من خطاب الاثنين إلى خطاب الجماعة ، كما جاء في حلقة الوحي من الله – عزَّ وجل – إلى موسى وهارون – عليهما السلام – ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [5] .

يقول الزركشي : "فإنه ثنى ، ثم جمع ، ثم وحد ، توسعاً في الكلام ، وحكمة التثنية أن موسى وهارون هما اللذان يقرران قواعد النبوة ، ويحكمان في الشريعة ،

---

(١) في ظلال القرآن ١٣٧١/٣ .

(٢) أشار إلى هذا المبحث الزركشي في كتابه : البرهان في علوم القرآن ص٣٨٣ .حيث جعل هذا التركيب من باب الالتفات .

(٣) سورة يونس : الآية ٧٨ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٥١/١١ .

(٥) سورة يونس : الآية ٨٧ .

فخصهما بذلك ، ثم خاطب الجميع باتخاذ البيوت قبلة للعبادة ؛ لأن الجميع مأمورون بها ، ثم قال لموسى وحده : ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ؛ لأنه الرسول الحقيقي الذي إليه البشارة ، والإنذار" [1] .

وقد اشتمل هذا البناء الفني التركيبي على ما يمكن أن نطلق عليه هذا اليوم بـ"التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية، وهما معاً ضروريتان للأفراد والجماعات، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات ، وقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية ، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة ، وأن الأداة الحربية في يد الجندي الخائر العقيدة لا تساوي شيئاً كثيراً في ساعة الشدة" [2] .

وجاء أسلوب الالتفات في حلقة خطاب مؤمن آل فرعون إلى قومهِ ، وناداهم بعدة نداءات ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [3] .

﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [4] ، وسار الكلام على هذا المنوال، وبعدها جاء التحول من الخطاب إلى الغائب ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [5] .

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٣/٣٨٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/١٨١٦ .

(٣) سورة غافر : الآية ٢٩ .

(٤) سورة غافر : الآية ٣٢ .

(٥) سورة غافر : الآية ٣٥ .

يقول أبو حيان : "ويكون الواعظ لهم قد عدل عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب لحسن محاورته لهم ، واستجلاب قلوبهم ، وإبراز ذلك في صورة تذكيرهم ، ولا يفاجأهم بالخطاب" [1] .

يعتبر باب **الإنشاء** [2] من أبواب علم المعاني التي اهتم به الباحثون في مجال علم البلاغة ؛ وذلك لما يتميّز به هذا الباب من تعدد الأساليب كالأمر ، والنهي ، والاستفهام ، والنداء ... الخ .

ومن التراكيب الإنشائية الواردة في قصة موسى – عليه السلام – أسلوب **الأمر** [3] ، وإذا جئت أبحث عنه أجد ذلك في حلقة التحام الحق بالباطل من أجل أن يُظهر كل فريق ما جاء به للناس . موسى – عليه السلام – وآيات النبوة . والسحرة وما معهم من باطل ودجل ، فما كان من موسى – عليه السلام – إلاّ أن أمرهم بالإلقاء ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [4] حيث خرج الأمر هنا عن غرضه الأساسي إلى غرض أراده موسى – عليه السلام – وهو الاحتقار [5] .

وقد تكررت حلقة اجتماع موسى – عليه السلام – بالسحرة في القرآن في مواضع شتى [6] ، وقد جاء فيها "أن السحرة خيّروا موسى- عليه السلام- بين أن يبتدئ هو بإظهار معجزته ، وبين أن يبتدئوا ، وأن موسى- عليه السلام- اختار أن

---

(١) البحر المحيط ٤٦٥/٧ .

(٢) الإنشاء : ينقسم إلى قسمين : إنشاء طلبي ، وإنشاء غير طلبي ، والذي يعنينا (الإنشاء الطلبي) ، "وهو الذي يستدعي مطلوباً غير حاصل في اعتقاد المتكلم وقت الطلب " وأنواعه خمسة : الأمر ، والنهي ، والاستفهام ، والتمني ، والنداء .
معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ٣٣٢/١ .

(٣) الأمر : هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء ، والإلزام .
معجم المصطلحات البلاغية ، ٣١٣/١ .

(٤) سورة يونس : الآية ٨٠ .

(٥) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة ص١٤٦ .

(٦) كسورة الأعراف [آية : ١١٥] ، وسورة طه [آية : ٦٥] .

يكونوا المبتدئين ، وفعل الأمر في قوله : ﴿ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ مستعمل في التسوية المراد منها الاختيار ، وإظهار قلة الاكتراث بأحد الأمرين" [1] ، وهذا حال المؤمن الواثق بنصر الله ووعده ، حيث أظهر عزة المؤمن من خلال التسوية بين الأمرين .

ويتجلى أسلوب الأمر بعد أن عاين موسى – عليه السلام – الآيات المؤيدة لرسالته ، إذا به يقول بعد ذلك : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ ﴾ [2] . وإن الملاحظ هنا في الأوامر (اشرح) ، (يسر) ، (احلل) أوامر صادرة من موسى – عليه السلام – ، يأمر بها من هو أعلى منزلة بلا شك ، وهي الذات العليَّة – سبحانه وتعالى – وإذا كان الأمر كذلك فقد خرج عن معناه الأصلي ، وهو الوجوب إلى غرض آخر ، وهو الدعاء ؛ وذلك لأن المخاطب أعلى منزلة من المتكلم .

ولقد جاء الدعاء في هذه اللحظة مناسباً لأحداث القصة ، فبعد أن عرف موسى – عليه السلام – أنه مُكلَّف من ربه لدعوة فرعون ، استثمر موسى – عليه السلام – هذه اللحظات الغالية ليعد العدة ، ويجند الجنود ؛ لمواجهة ذلك الطاغية ، وقد أطال الدعاء – هنا – ؛ لأنه يعرف من أُرسِلَ إليه "فقد ربي في قصره ، وشهد طغيانه ، وجبروته ، وشاهد ما يصبه على قومه من عذاب ، ونكال وهذه اللحظة في حضرة ربه ، يحس الرضا ، والتكريم ، والحفاوة . فليسأله كل ما يطمئنه على مواجهة هذه المهمة العسيرة ، ويكفل له الاستقامة على طريق الرسالة" [3] فأجاب الله دعاءه ، ولبى نداءه ، وقال الحق – جل وعلا – : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [4] .

وعندما يتحدّث القرآن عن حادثة ميلاد موسى – عليه السلام – ، وبعد أن خافت أمه عليه من أن تقع أنظار جنود فرعون على وليدها ، إذا بالأم ، لا تدري

(١) التحرير والتنوير ٢٥٤/١١ .
(٢) سورة طه : الآيات ٢٥-٢٦-٢٧ .
(٣) في ظلال القرآن ٢٣٣٣/٤ .
(٤) سورة طه : الآية ٣٦ .

ماذا تفعل ، فإذا بالأوامر الربانية الإرشادية توحي إليها ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ [1] .

وهذه الأوامر المتلاحقة تجعلنا نتصور الخطر المحدق بموسى – عليه السلام – ، والحذر الذي كانت تعيشه أم موسى – عليه السلام – ، وجعلتنا نشعر بقرب جنود فرعون من أم موسى ووليدها ، فلذلك لا ينفع مع هذه الحالات إلاّ الأوامر وليس فقط أوامر يعقبها تراخٍ ، بل أوامر يعقبها سرعة في التنفيذ .

ومن الأساليب الإنشائية أسلوب **النهي** [2] .

ويأتي في الحوار بين موسى – عليه السلام – والخضر ، فبعد أن طلب موسى – عليه السلام – صحبته ، والتعلم من علمه ، ووعده بالصبر على العلم ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [3] ، ومع هذا نجد أن الخضر لم يكتفِ بهذا الوعد ، بل أكَّد على عدم السؤال ، كما جاء ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [4] ، ونظراً لأهمية عدم السؤال في هذا الموضع ، ولمعرفة الخضر بالطبيعة البشرية التي لا تستطيع أن تصمد أمام هذه المشاهد التي لم تألفها ، جاء النهي مؤكداً ، حيث "أكد النهي بحرف التوكيد تحقيقاً لحصول أكمل أحوال المتعلم مع المعلم ؛ لأن السؤال قد يصادف وقت اشتغال المسؤول بإكمال عمله ، فتضيق له نفسه ، فربما كان الجواب عنه بدون شَرَهِ نفس ، وربما خالطه بعض القلق ، فيكون الجواب غير شاف . فأراد الخضر أن يتولى

(١) سورة طه : الآيات ٣٨-٣٩ .

(٢) النهي : طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام .
معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ٣٤٤/٣ .

(٣) سورة الكهف : الآية ٦٩ .

(٤) سورة الكهف : الآية ٧٠ .

هو بيان أعماله في الإبَّان الذي يراه مناسباً ؛ ليكون البيان أبسط ، والإقبال أبهج ، فيزيد الاتصال بين الفريقين" [1] .

ومما جاء من هذا الأسلوب في قصة موسى – عليه السلام – نَهْيُ هارون موسى – عليه السلام – من الإمساك بلحيته وبرأسه بعد رجوع موسى – عليه السلام – وافتتان قومه بعبادة العجل ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾ [2] ، وقد تقدَّم أسلوب النهي ﴿ لَا تَأْخُذْ ﴾ ، الذي جاء به القرآن حاكياً كلام هارون- عليه السلام- من أجل تخفيف غضب موسى – عليه السلام – ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ ﴾ .

يقول أبو السعود : "خص الأمَّ بالإضافة استعظاماً لحقها ، وترقيقاً لقلبه " [3] ومن ثَمَّ جاء النهي ﴿ لَا تَأْخُذْ ﴾ ، وتحقق المراد من النهي ، بدليل التفات موسى – عليه السلام – إلى السامري ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ﴾ [4] ؛ وذلك لأنه استعمل "على سبيل التلطف ، كقولك لمن يساويك في الرتبة : (افعل) بدون الاستعلاء" [5] ، فالناهي هارون ، والمنهي موسى – عليه السلام – وإذا كان الأمر كذلك فقد وقع النهي بين شخصين قد تساويا في المنزلة ، وبذلك يكون النهي قد خرج من الإلزام والوجوب إلى الالتماس .

وجاء أسلوب النهي في قصة موسى – عليه السلام – عندما عاين موسى – عليه السلام – الآيات المؤيدة لرسالته "العصا ، واليد" ، وأُمِرَ بإلقاء العصا ﴿ وَأَلْقِ

(١) التحرير والتنوير ١٥/٣٧٣ .

(٢) سورة طه : الآية ٩٤ .

(٣) تفسير أبي السعود أو (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) للقاضي أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي ، وضع حواشيه: عبداللطيف بن عبدالرحمن ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، ط : ١ ، ٤/ ٣٠٤ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

(٤) سورة طه : الآية ٩٥ .

(٥) الإيضاح في علوم البلاغة ص١٤٦ .

عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [1] .

فموسى – عليه السلام – لما رأى الآيات هرب مسرعاً ، وولى مدبراً ، وعلى هذا التركيب يكون "النهي عن الخوف مستعمل في النهي عن استمرار الخوف؛ لأن خوفه قد حصل" [2] .

ويتجلى أسلوب النهي في حلقة رحلة الميلاد ، بعدما ألقته أمه في التابوت ، ومن ثمَّ ألقاه اليم في الساحل وبعدها – بأمر الله – أخذه عدو الله وعدو رسوله (فرعون) ، وكعادته مع الأطفال مصيرهم القتل !! ولكن إرادة الله فوق كل إرادة ، وذلك عندما رأت امرأة فرعون موسى – عليه السلام – أحبته ، ونهت عن قتله

﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [3] . ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ صرخة عالية مدوية في وجوه الطغاة ، وإذا جئنا ننظر إلى تركيب النهي وجدنا أنه جاء على أسلوب بليغ ؛ حيث لم تنههم امرأة فرعون مباشرة بل سبق النهي تمهيد ، وهذا التمهيد كان له الدور الأكبر في قبول النهي ، وجاء بعد التمهيد والنهي علّة عدم قتله .

حيث إنَّ " نظم الكلام قضى بهذا الترتيب البليغ بأن جعل الوازع الطبيعي عن القتل وهو وازع المحبة هو المقدمة ؛ لأنه أشد تعلقاً بالنفس ، وجعل الوازع العقلي بعد النهي علةً لاحتياجه إلى الفكر ، فتكون مهلة التفكير بعد سماع النهي الممهّد بالوازع الطبيعي ، فلا يخشى جماع السامع من النهي ورفضه إيّاه" [4] . فتقديم المحبة ، وتأخير العلة ساعدا على تحقيق الهدف المنشود .

---

(١) سورة النمل : الآية ١٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٢٨/١٩ .

(٣) سورة القصص : الآية ٩ .

(٤) التحرير والتنوير ٧٩/٢٠ .

ومن المفارقات العجيبة – هنا- أن النهي جاء طالباً عدم قتل هذا الطفل الصغير موسى – عليه السلام – ومع مرور الأيام يكون هذا الطفل سبباً لزوال ملك فرعون وأعوانه، فيالها من أمور عجيبة ، صنعها أسلوب القرآن المعجز . ولكنها إرادة الله ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ ﴾ [1] .

ومن أساليب الإنشاء الطلبي (**التمني**) [2] ، وقد جاء أسلوب التمني في القصة بعد أن فرغ موسى – عليه السلام – من بيان الآيات لفرعون وقومه ، بعدها أخذ فرعون بالرد على هذه الآيات مستكبراً ، وساخراً ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [3] .

السياق هنا يدل على أن فرعون في مقام السخرية من قومه ومن موسى – عليه السلام – وجاءت الآية مركبة من الأداة (لعل) التي تأتي للترجي في وضع أصلها، وقد استعملت (لعل) مكان (ليت) ﴿ لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ ، وهذا الاستعمال له دلالة ، ففرعون آثر هذا الاستخدام من أجل أن يقلل من شأن إله موسى – عليه السلام – أمام قومه ، أي : قوم فرعون . "وتعليله بالترجي الذي لا يكون إلاّ في الممكن دليل على أنه كان يلبس على قومه وهو يعرف الحق" [4] .

---

(١) سورة القصص : الآية ٨ .

(٢) التمني : تمنّى الشيء : أراده ، والتمني : تشهي حصول الأمر المرغوب فيه . ولا يخرج معنى التمني عند البلاغيين عن هذا المعنى ، فهو توقُّع أمر محبوب في المستقبل ، والفرق بينه وبين الترجي : أنه يدخل في المستحيلات ، والترجي لا يكون إلاَّ في الممكنات .
معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ٣٥٣/٢ .

(٣) سورة القصص : الآية ٣٨ .

(٤) نظم الدرر ٥١٤/٦.

وهو بذلك يريد أن يرسل رسالة غير مباشرة إلى قومه نستشفها من خلال استخدامه لـ (لعل) ، وهي أن الوصول إلى إله موسى – عليه السلام – ليس أمراً مستحيلاً ، وبإمكانه ذلك ، ومع هذا ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ، ولو استخدم (ليت) في هذا المقام لَعُلِمَ أنه يتمنى رؤية إله موسى – عليه السلام – ولكن منعه من ذلك العجز ، وعلى هذا يتسلل الشك في نفوس قومه ، وهذا ما لا يريده ، فكيف بمن يدعي الألوهية يعجز عن أمر يريد تحقيقه ، إذ إن العجز صفة منافية لمقام الألوهية التي يدعيها .

ولا أدلَّ على سخريته من اعتماده للوصول إلى إله موسى – عليه السلام – على الأساطير والأكاذيب المنتشرة في زمانه ، ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ .

يقول سيد قطب : "ويعتمد فيها فرعون على الأساطير التي كانت سائدة في مصر" [1] . فربما تنطلي مثل هذه الحيل على قوم فرعون ، وهذا ما حصل بالفعل ، وكيف لا تنطلي والقوم يشيع فيهم السحر والسحرة ليل نهار، وهذا من دهاء فرعون، حيث استخدم ما يناسب قومه ؛ ليزيد في إضلالهم .

ومن أساليب الإنشاء (**النداء**) [2] . ومما جاء من ذلك مناداة موسى – عليه السلام – ربه طالباً النصرة منه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [3] ، وجاء هذا النداء بعد محاولات ونداءات لبني إسرائيل ، وقال هذا الدعاء " لما عصوا أمر الله وتمردوا على موسى ، وسمع منهم ما سمع من كلمة الكفر ، وسوء الأدب مع الله ، ولم يبق معه من يثق به إلاَّ هارون قال ذلك " [4] .

---

(١) في ظلال القرآن ٢٦٩٤/٥ .

(٢) النداء : طلب إقبال المدعو إلى الداعي .
معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ٣٢٦/٣ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٢٥ .

(٤) البحر المحيط ٤٥٦/٣ .

وبعد هذه المحاورة التي لم يلقَ منها موسى – عليه السلام – إلاّ الصد والعناد ، يأتي النداء ليصور لنا الألم ، والحسرة ، والأسى الذي لحق بموسى – عليه السلام – طالباً من الله – عزَّ وجل – العون ، والنصر ، والتمكين في الأرض .

وقد جاء هذا النداء في قصة موسى – عليه السلام – عندما خرج موسى – عليه السلام – بأهله متوجهاً إلى مصر ، وكان اللقاء الأول وهو لقاء التكليف بالرسالة ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ ﴾ [1] . وبمجرد أن وصل موسى – عليه السلام – جانب الطور كان النداء الأول من الله – عزَّ وجل – نداء ولكن ليس كأي نداء .

إنه النداء الذي بسببه انقشعت الغمامة عن بني إسرائيل بعدها عرفوا طريقهم إلى رب السماء والأرض ، وكان هذا النداء مفتاح سعادة بني إسرائيل ؛ ليفتح لهم بذلك قلوبهم ، وأرواحهم ، وضمائرهم على يد نبيهم موسى – عليه السلام – .

وإذا أردنا أن نتلمس سر هذا النداء ، الذي جاء في لحظة تاريخية ليس لموسى – عليه السلام – فحسب بل للأمة جمعاء ، جاء (النداء) من أجل الطمأنة ، ومن ثمّ "الاصطفاء ؛ ووراء الاصطفاء التكليف بحمل الرسالة " [2] .

وبعد أن أراه الله – عزَّ وجل – آية العصا وهي تنقلب حيّة تسعى خاف موسى – عليه السلام – وجاء النداء السماوي بعدم الخوف ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ ﴾ [3] ، والرسل بشر يفرحون ، ويخافون ، وهذه من طبيعة البشر ، فرؤية العصا وهي تنقلب حيّة من خوارق العادات التي لم يعهد مشاهدتها الناس ، ومُوسى – عليه السلام – في بداية الرسالة والتكليف ، ولكن مع هذا (لا تخف) " فأنت مكلف بالرسالة ، والرسل لا يخافون في حضرة ربهم وهم يتلقون التكليف" [4] .

---

(١) سورة النمل : الآية ٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٥/٢٦٢٩ .

(٣) سورة النمل : الآية ١٠ .

(٤) في ظلال القرآن ٥/٢٦٢٩ .

وفي حلقة المحاورة التي جرت بين مؤمن آل فرعون مع فرعون وقومه ، يظهر أسلوب النداء مكرراً ، بليغاً ، ومن هذه النداءات ﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩ ﴾ [1] .

وقد اتسمت نداءات مؤمن آل فرعون بالرحمة ، والشفقة على قومه ، طالباً منهم أن يتحرروا من العبودية العمياء ، والجهالة الظلماء التي عاشوها في زمن طغيان فرعون – قبحه الله – واستخدم مع نداءاته لفظ (القوم) ؛ ليكون أوقع في نفوسهم[2] وليشعرهم أنه واحد منهم ، يهمه أمرهم ، ويود لهم ما يوده لنفسه .

ويتجلى لنا **أسلوب الاستفهام** [3] بشتّى أنواعه في قصة موسى – عليه السلام – ويظهر ذلك جليّاً في مواطن المحاورات ، ومن ذلك ما جاء في – قوله تعالى- : ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧ ﴾[4] حيث إنه لما ظهر الحق في الميدان الذي شهد أحداث اللقاء بين مُوسى – عليه السلام – والسحرة ، وانتهى بسجود السحرة ، وإيمانهم برب هارون وموسى – عليهما السلام – فإن قوم فرعون "لما رأوا قلة اكتراث المؤمنين بوعيد فرعون ، ورأوا نهوض حجتهم على فرعون وإقحامه ، وأنه لم يجد جواباً ، راموا إيقاظ ذهنه ، وإسعار حميته ، فجاءوا بهذا الكلام المثير لغضب فرعون" [5] ، وكان الأسلوب المناسب لتأدية مثل هذا الدور في تلك

(١) سورة غافر : الآية ٢٩ .

(٢) ينظر : الإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون ، ماجد محمد الماجد ، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب ، المجلد الخامس ، ص ١٣ ، ٢٠٠٨م .

(٣) الاستفهام : طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل .
معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ١٨١/١ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٢٧ .

(٥) التحرير والتنوير ٥٧/٩ .

المواقف هو أسلوب الاستفهام ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾"وهو مستعمل في الإغراء بإهلاك موسى وقومه ، والإنكار على الإبطاء بإتلافهم" [1] ، ولقد فعل أسلوب الاستفهام في فرعون فعلته ، حيث " استثارت هذه الكلمات فرعون ، وأشعرته بالخطر الحقيقي على نظامهِ كله، فانطلق يعلن عزمه الوحشي البشع" [2] ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [3] .

ويأتي الاستفهام الإنكاري في حادثة غرق فرعون بعدما عاين الموت ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [4] .

فالسياق القرآني يكشف لنا من خلال الاستفهام أن إيمان فرعون وهو في هذه الحالة لا ينفعه الآن ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [5] .وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟ ، أين أنت يا فرعون من الإيمان بالآيات التي جاء بها موسى – عليه السلام- وقد عاينتها ، وأنكرتها ، والآن تعاين الموت ولكن لا إيمان ينفع في هذه اللحظات ؟ .

فهناك تناسب بين المعاينتين ، معاينة الآيات ، ومعاينة الموت ، فلما حرم نفسه من الإيمان بالآيات لم يُوفَّق إلى قبول الإيمان أثناء معاينة الموت "والإنكار مؤذن بأن الوقت الذي عُلِّق به الإنكار ليس وقتاً ينفع فيه الإيمان ؛ لأن الاستفهام الإنكاري في قوة النفي فيكون المعنى : لا إيمان الآن" [6] .

(١) التحرير والتنوير ٥٨/٩ .

(٢) في ظلال القرآن ١٣٥٤/٣ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٢٧ .

(٤) سورة يونس : الآية ٩١ .

(٥) سورة يونس : الآية ٩١ .

(٦) التحرير والتنوير ٢٧٧/١١ .

ويظهر أسلوب الاستفهام في اللقاء الأول بين الله – عزَّ وجل – وبين موسى – عليه السلام – في الوادي المقدس ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [1] .

فالسؤال موجه إلى موسى – عليه السلام – ما هذا الذي بيدك يا موسى ؟ .

وكان هذا سؤالاً بمثابة لفت نظر موسى – عليه السلام – لما سيحدث .

يقول الزمخشري : "إنما سأله ليريه عظم ما يخترعه – عزّ وعلا – في الخشبة اليابسة من قلبها حيّة نضناضة ، وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه ، وينبهه على قدرتهِ الباهرة" [2] .

وقد أدى أسلوب الاستفهام دوره ، فقد أخذ موسى – عليه السلام – يسرد لله – عزَّ وجل – وظائف تلك العصا ، مع أن "السؤال لم يكن عن وظيفة العصا في يدهِ ، إنما كان عما في يمينه ، ولكنه أدرك أن ليس عن ماهيتها يسأل ، فهي واضحة ، وإنما عن وظيفتها معه ، فأجاب .... " [3] .

وتأتي أداة الاستفهام (ما) والتي تُستَخدم لغير العاقل في حلقة حوار المواعدة بين الله – عزَّ وجل – وبين موسى – عليه السلام – حيث تقدم على قومه ، فقال الله – عزَّ وجل – حاكياً عن ذلك : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ [4] .

وقد اختلف المفسرون حول مضامين سؤال الرب – عزَّ وجل – على أقوال عدة . فأرجع الرازي السؤال إلى شيئين :

---

(١) سورة طه : الآيات ١٧ – ١٨ .

(٢) الكشاف ١-٧٠٢/٢ .

(٣) في ظلال القرآن ٢٣٣٢/٤ .

(٤) سورة طه : الآيات ٨٣ – ٨٤ .

"أحدهما : إنكار نفس العجلة . والثاني : السؤال عن سبب التقدم" [١] . أما أبو السعود فذهب إلى أن مضمون السؤال عن سبب تقدمه [٢] نافياً أن يكون السؤال لإنكار نفس العجلة "لكونها نقيصة منافية للحزم اللائق بأولي العزم" [٣].

والذي يظهر أن السياق يجعلنا نميل إلى أنه موجه إلى سبب التقدم ، و لم يكن مُنصباً على العجلة ، كيف يكون ذلك والعجلة قد تكون ممدوحة في الدين ؟ [٤] .

ومن براعة التراكيب في القرآن استخدامه لأسلوب الاستفهام في أحلك الظروف التي مرَّ بها مُوسى – عليه السلام ، وهي مرحلة الإرضاع ، ليجد بطريق الاستفهام طريقة إلى أمه بعدما أمرت أخته بتقصي خبره ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [٥] .

فاستفهام أخته ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ أبعد الشكوك والظنون حول ما إذا كانت لها علاقة بالمولود . "وعرضت سعيها في ذلك بطريق الاستفهام المستعمل؛ تلطفاً مع آل فرعون، وإبعاداً للظِنة عن نفسها" [٦] .

ومن بلاغة الاستفهام في حوار مؤمن آل فرعون مع قومه ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [٧] .

---

(١) مفاتيح الغيب ٨٦/٢٢ .

(٢) ينظر : تفسير أبي السعود ٢٩٩/٤ . حيث جاء معناه عنده "أي شيءٍ أعجلك منفرداً عن قومك "

(٣) المرجع السابق ٢٩٩/٤.

(٤) ينظر : مفاتيح الغيب ٨٥/٢٢ . حيث أشار الرازي إلى أن العجلة قد تكون ممدوحة في الدين كما في قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ . [سورة آل عمران : الآية ١٣٣] .

(٥) سورة القصص : الآية ١٢ .

(٦) التحرير والتنوير ٨٤/٢ .

(٧) سورة غافر : الآية ٢٨ .

فقد أرشدنا الاستفهام إلى حسن أدب مؤمن آل فرعون في استنكارهِ على قومه ، و لم يراوغ أو يجادل بغير حق كما هي عادة الطغاة ، بل اقتصر في إنكاره على ما يؤدي الغرض "وقد ذكر في هذا الكلام ما يدل على حسن ذلك الاستنكار ؛ وذلك لأنه ما زاد على أن قال ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ وذلك لا يوجب القتل ألبتة" [1] . وبناء الآية الفني جاء متسقاً مع الحوار من حيث إنه لم يزد ، و لم ينقص عن المراد بيانه من المحاورة ، وأنسب طريقة لهذا المقام هو طريق الاستفهام .

ومن أساليب التركيب في قصة موسى – عليه السلام – أسلوب **التقديم والتأخير** ، جاء ذلك في حلقة ذهابه إلى الخضر وما وقع فيها من أحداث كخرق السفينة ، والسر العجيب الكامن وراء ذاك الحدث يأتي أسلوب التقديم والتأخير ليزيد من اشتياق السامع لمعرفة السر ، حيث – قال تعالى –: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾ [2] فلم ينكشف الغطاء عن هذا الحدث إلاّ في نهايتها . "وجملة ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ متفرعة على كل من جملتي ﴿فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ﴾ ، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ﴾ ، فكان حقها التأخير عن كلتا الجملتين بحسب الظاهر ، ولكنها قدمت خلافاً لمقتضى الظاهر لقصد الاهتمام ، والعناية بإرادة إعابة السفينة ، حيث كان عملاً ظاهره الإنكار ، وحقيقته الصلاح زيادة في تشويق موسى – عليه السلام – إلى علم تأويله ؛ لأن كون السفينة لمساكين مما يزيد السامع تعجباً في الإقدام على خرقها" [3] .

وإذا كانت هذه الحلقة من قصة موسى – عليه السلام – قد قامت على كتم سر المفاجأة عن البطل على حدِّ تعبير سيد قطب [4] ، فإن هذه الآية ومن خلال

(١) مفاتيح الغيب ٥٠٩/٢٧ .
(٢) سورة الكهف : الآية ٧٩ .
(٣) التحرير والتنوير ١٢/١٦ .
(٤) ينظر : التصوير الفني في القرآن ص١٨٣ .

التقديم كما رأينا قد سلكت مسلك المفاجأة ، حيث إنها لم تصرح بالسر من أول الآية ، بل جاء الكشف عن السر في آخر الآية ، فكأنها بهذه الطريقة الفنيّة تحاكي القصة بكاملها من خلال طريقة المفاجأة ، فكانت الطريقة السائدة في معظم أحداث موسى – عليه السلام – مع الخضر ، حيث كان كشف الحقائق في نهاية الأحداث ، وهذا ما يزيد من اشتياق القارئ لمعرفة الحقائق .

ويأتي أسلوب التقديم والتأخير ؛ ليكشف لنا ما خالج نفس مُوسى – عليه السلام – بعد أن ألقى السحرة حبالهم وعصيهم من الخوف الذي وقع في نفسهِ ، حيث قال تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [1] .

ومع أن تأخير الفاعل يرجع إلى مراعاة الفواصل ، كما جاء عند أبي السعود[2] إلاّ أن تقديم الجار والمجرور لم يمنعه أن يضيف شيئاً جديداً .

وإذا ذهبنا نتلمس هذه الإضافة نلحظ أن معنى (أوجس) جاء عند صاحب القاموس المحيط ، مبيناً معنى (الوَجْس) تعليقاً على الآية السابقة ، أي بمعنى : "أحس ، وأضمر" [3] . وإذا كان كذلك فإن مجيء (في نفسه) بعد قوله : (أوجس) ؛ ليدل على أن هذا الخوف لم يظهر على ملامح موسى – عليه السلام – ، بل هي خيفة "تفكر لم يظهر أثرها على ملامحه" [4]، وهو خوف جبلّي ، وطبعي ، فالرسل بشر ، ومن طبيعة البشر صفة الخوف "وهو مقام أعني : الخوف مقام جليل ، مِثله مقام النبي – صلى الله عليه وسلم – يوم بدر ، إذ قال : "اللهم إني أسألك نصرك ، ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد في الأرض" [5] ولكن التقديم حصر هذا الخوف في النفس ؛ لما يترتب على إظهاره من مفاسد قد تعود على تأخير النصر لموسى – عليه السلام – ومن معه .

---

(١) سورة طه : الآية ٦٧ .

(٢) ينظر : تفسير أبي السعود ٢٩٣/٤ .

(٣) القاموس المحيط ، مادة (وجس) ص٥٧٩ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٥٩/١٦ .

(٥) المرجع السابق ٢٥٩/١٦ .

جاء معنى هذا الحديث عند مسلم بقوله : "... اللهم إنك إن تُهْلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض" . مختصر صحيح مسلم ص٣١٠ – ٣١١ .

وهذا التقديم والتأخير من الإعجاز الفني الذي شاع في أسلوب القرآن الكريم ، فالقرآن جاء بتراكيب قصصية ، راعى من خلالها أحوال الشخصيات ، واتساقها مع الأحداث ، و لم يغفل عن إبراز الأحوال النفسية التي تمر بها النفس البشرية .

ومن بلاغة القرآن التي جاء بها أسلوب التقديم والتأخير ما حكى الله عن مكر فرعون: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [1] .

وذلك عندما رأى فرعون ميل حجة موسى – عليه السلام – على حجتهِ ، و لم يجد جواباً خاطب قومه بأنه ينوي قتله ، وليدع ربه ، وكانت حجته خوفه عليهم من أن يستبدل دينهم الذي هم عليه ، أو ظهور الفساد في ديار مصر ، وقد قدَّم فرعون فساد الدين على فساد الدنيا ، وهذا من مكره ، ويُعلل الرازي ذلك بقوله : "ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم لا جرم ، بدأ فرعون بذكر الدين ، فقال : "إني أخاف أن يبدل دينكم" ، ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا ، فقال : أو أن يظهر في الأرض الفساد" [2] .

ومن بلاغة التقديم والتأخير ما جاء في قوله –تعالى– ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [3] .

جاء القرآن بأفصح بيان ، وأروع أسلوب ، ولا أدلَّ على ذلك من تقديمه للجار والمجرور (من آل فرعون) ، فإن في تأخيره إخلالاً بالمعنى المراد .

---

(١) سورة غافر : الآية ٢٦ .

(٢) مفاتيح الغيب ص٢٧ / ٥٠٧ .

(٣) سورة غافر : الآية ٢٨ .

يقول القزويني : "فإنه لو أخر (من آل فرعون) عن (يكتم إيمانه) لتوهم أن (من) متعلقة بـ (يكتم) ، فلم يفهم أن الرجل من آل فرعون" [1] .

إعجاز لا نظير له لتأتي الآية على أكمل صورة ، مع الدلالة على المعنى المراد من خلال تقديم الجار والمجرور ، فإنه لما تقدم الجار والمجرور (وآل فرعون) ، جاءت الآية لتدل على المعنى المراد ، وهو كونه من آل فرعون .

ولقد سلك مؤمن آل فرعون في محاورته لقومه كل الطرق من أجل هداية قومه ، و لم يغفل عن ذلك في جميع الأحوال مع الخطورة التي تحيط به ، ومن الطرق التي سلكها مراعاة أحوال قومه ، من حيث التقديم والتأخير في الكلام ، وما يناسبهم من ذلك ، حيث قدَّم الكذب على الصدق ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ ﴾ ، ليشعر بذلك قومه أنه منهم ، وأنه ينتظر ما تفصح عنه الأيام من أجل أن يبعد التهمة عن نفسه ، "وقدم احتمال كذبه على احتمال صدقه ؛ زيادة في التباعد عن ظنهم به الانتصار لموسى ، فأراد أن يظهر في مظهر المتهم ، بأمر قومه ابتداء" [2] .

ومن المباحث التي أخذت حيزاً وافراً في قصة موسى – عليه السلام – مبحث **(الحذف والذكر)** [3] .

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ص١١٩ .

(٢) التحرير والتنوير ١٣٠/٢٤ .

(٣) الحذف ، والذكر : يقرن البلاغيون الذكر بالحذف ، وهو نقيضه ، ويذكر المسند إليه ، والمسند ، وغيرهما في العبارة لسبب من الأسباب ، ومن أغراض ذكر المسند إليه : أنه الأصل ، ولا مقتضى للحذف ، فإذا حذف ذهب المعنى ، وزيادة الإيضاح والتقرير ، وإظهار التعظيم بالذكر ، والتبرك باسمه ... الخ . معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ١٢/٣ .
يكفينا أن نشير إلى مقولة عبدالقاهر الجرجاني ؛ لنعرف دقة المسلك في هذا الباب العظيم ، حيث يقول : "هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر ، أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة ، أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن".
دلائل الإعجاز ص١٤٦ .

وإذا كان في الجملة حذف أو ذكر فإن وراء كل ذلك أغراضاً بلاغية ، وقيم بيانية يمكن أن تدرك بالنظرة الفاحصة المتأملة .

وسأحاول أن أتلمس أقوال العلماء في هذا الباب من خلال الوقوف على بعض مواطن الحذف ، والذكر في قصة موسى – عليه السلام – ، باذلاً الجهد للوقوف على أسرارهما ، وسبر أغوارهما .

ونقرأ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴿٥٦﴾ ﴾ [1] ، حيث إن هذه الآية توحي بإيجاز يفهم من سياق الآية .

"وهذا إيجاز بديع أي : فمتم من الصاعقة ثم بعثناكم من بعد موتكم" [2] .

وجاء السياق القرآني حاكياً عن حلقة المواجهة بين موسى – عليه السلام – والسحرة ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [3] ، نلحظ أن السياق لم يتطرق إلى السحر الذي ألقوه ، كما جاء في سور أخرى من القرآن كالأعراف مثلاً ، وذلك "لأن الغرض من العبرة في هذه الآية وصف إصرار فرعون وملئه على الإعراض عن الدعوة ، وما لقيه المستضعفون الذين آمنوا بموسى – عليه السلام – ... ولذلك لم يعرج بالذكر إلاّ على مقالة موسى – عليه السلام – حين رأى سحرهم الدالة على يقينه بربه ووعده ، وبأن العاقبة للحق ، وذلك أهم في هذا المقام من ذكر اندحاض سحرهم تجاه معجزة موسى عليه السلام " [4] .

ويعلّل سيد قطب اختصار موقف المباراة في هذه السورة بالتحديد بقوله : "لأن نهايته هي المقصودة" [5] ، أي نهاية فرعون ومن معه ، ولذلك جاء التركيز على

(١) سورة البقرة : الآية ٥٦ .
(٢) التحرير والتنوير ٥٠٨/١ .
(٣) سورة يونس : الآيات ٨٠ – ٨١ .
(٤) التحرير والتنوير ٢٥٥/١١ بتصرف .
(٥) في ظلال القرآن ١٨١٤/٣ .

رسم صورة الهلاك ، والإغراق في اليم ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيًا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[1] .

وعندما نقرأ سورة الكهف ، وما يتعلق بقصة موسى – عليه السلام – مع الخضر فسوف نلاحظ أن هناك كلمة جاءت بالتاء في قوله : ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾ ﴾[2] ، وبعد أن بين له الخضر السر الكامن وراء الأحداث قال في النهاية :﴿ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[3].

فكلمة ﴿ تَسۡطِع ﴾ في الآية الأولى جاءت بالتاء ، وفي الآية الأخرى حذفت منها التاء . نحن إذن بين ذكر وحذف ، ولبيان ذلك السر يقول صلاح الخالدي : "وقع موسى في حيرة ، في تأويل وتعليل الأحداث ، وكأنه صار في هم نفسيٍّ ، وشعوريّ ثقيل ، ولاحظ السياق ذلك الهم النفسي الثقيل ، فأثبت (التاء) مع الفعل أول مرة ؛ ليتفق ذلك مع الثقل النفسي الذي يعيشه موسى – عليه السلام – .

ولذلك قال له الخضر : "سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ، وبعدما علل الخضر لموسى – عليه السلام – حقيقة الأحداث عرف موسى وجه الصواب في تصرف الخضر ، لقد خرق السفينة ؛ لتنجو من مصادرة الملك الظالم ، وقتل الغلام ؛ ليستريح أبواه الصالحان من كفره ، وبنى الجدار ؛ ليغطي كنزاً لغلامين يتيمين تحته . عرف موسى أن الخضر على حق وصواب في تصرفاته الثلاثة ، وبذلك زال الهم الذي سيطر عليه ، والثقل النفسي الذي عاشه ، ولاحظ السياق زوال ذلك الثقل النفسي ، فحذفت (التاء) من الفعل (تسطع) ؛ لتشارك التخفيف النفسي عند موسى – عليه السلام – بخفةٍ في حروف الفعل " [4] .

---

(١) سورة يونس : الآية ٩٠ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٧٨ .

(٣) سورة الكهف : الآية ٨٢ .

(٤) لطائف قرآنية ، د. صلاح عبدالفتاح الخالدي ، دار القلم ، دمشق ، ط : ١ ، ص٥٣ – ٥٤ ، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .

وبعد أن كلّف الله – عزَّ وجل – موسى وأخاه هارون بالذهاب إلى فرعون بقوله : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [1] . إذ بجواب فرعون يأتي : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ [2] .

فلم تذكر الآيات مجيء موسى وهارون- عليهما السلام- إلى فرعون وهنا الإيجاز . "هذه حكاية جواب فرعون عن الكلام الذي أمر الله موسى وهارون بإبلاغه فرعون ، ففي الآية حذف جمل دلَّ عليها السياق قصداً للإيجاز ، والتقدير ، فأتياه فقالا له ما أمرا به ، فقال : فمن ربكما ؟" [3] .

وإذا ذهبنا إلى التماس الحذف في الحلقة التي جاء فيها ذكر رجوع موسى – عليه السلام – إلى قومه وقد وجدهم يعبدون العجل بعد أن ترك فيهم هارون – عليه السلام – فقال مخاطباً هارون : ﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ ﴾ [4] .

"وقبل قوله : ﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ ﴾ كلام محذوف تقديره فرجع موسى ووجدهم عاكفين على عبادة العجل قال يا هارون ..." [5] .

ومما لا شك فيه أن هذا الحذف كان قصداً للإيجاز ، ويضاف إلى قصد الإيجاز التدريب على سرعة الإنكار وخاصة إذا كان المنكر يتعلق بأمر عظيم فيه خدش للعقيدة ، وهذا ما حصل من بني إسرائيل جراء عبادتهم العجل ، فالسياق الرباني جعل القارئ يركز على قضية مهمة وهي سرعة الإنكار الذي حصل من موسى – عليه السلام – ، وهي الأهم هنا من ذكر كيفية الوصول ، وماذا وجد ، فالمنكر حاصل لذا اتجه السياق إلى الإنكار .

---

(١) سورة طه : الآية ٤٧ .

(٢) سورة طه : الآية ٤٩ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٣١/١٦ .

(٤) سورة طه : الآية ٩٢ – ٩٣ .

(٥) البحر المحيط ٢٧٣/٦، ٢٧٢ .

ويأتي الحذف في سياق حديث القرآن عن قصة موسى – عليه السلام – منذ البداية حتى النهاية حيث قصها القرآن في آية : ﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [1] .

وإذا ذهبنا نبحث في الآية وما فيها من تقدير نقول : "فأتياهم ، فأبلغاهم الرسالة ، فكذبوهما ، فدمرناهم تدميراً" [2] .

حذف من الآية جمل عدة ، فلم يكن القصد هنا سرد أحداث القصة بكاملها وإنما كان الغرض من ذلك الإشارة إلى مصارع الأمم السابقة ؛ لتعرف أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – ماذا حل بالمكذبين . وإذا كان الغرض من ذلك هو إبراز مصير المكذبين ، فقد جاء السياق بتأكيد ذلك .

يقول سيد قطب : "يرسم مصيرهم في عنفٍ وإجمال "﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ [3] وختم بها الآية ؛ ليكون وقعها في الآذان أبلغ .

ويأتي الحذف في الطلب الصادر من الله – عزَّ وجل – إلى موسى وهارون – عليهما السلام – بالأمر في الذهاب إلى فرعون ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [4] .

وإذا نظرنا إلى الآية وجدنا أنه قد حذف منها جُمل كثيرة ، والتقدير : "فأتياه فأبلغاه ذلك ، فلما سمعه قال : ألم نربك ؟ " [5] .حيث انتقل بنا السياق عندما قرأنا إجابة فرعون وكأنهما ماثلان أمامه ، وهذا ما جعلنا نقدر المحذوف .

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٣٦ .

(٢) مجاز القرآن ص١٤٢ .

(٣) في ظلال القرآن ٥/٢٥٦٤ .

(٤) سورة الشعراء : الآيات ١٦ – ١٧ – ١٨ .

(٥) مجاز القرآن ص ١٤٢ .

يقول سيد قطب : "وقد اختصر ما هو مفهوم بين المشهدين على طريقة العرض القرآنية الفنية" (١) .

ويتجلّى الحذف في حلقة الميلاد بعدما أوحى الله – عزَّ وجل – إلى أم موسى – عليه السلام – بأن ترضعه ، فإذا خافت عليه فلتلقه في اليم . فقال الله – عزَّ وجل – بعدها : ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ ﴾ (٢) .

وإن القارئ ليلحظ أن هناك حذفاً في مشاهد القصة ، فلم تذكر أحداث وتفاصيل الإلقاء ، ومع هذا لم يختل المعنى ، بل فُهِم من ورود كلمة ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ﴾ يقول البقاعي : "ولما كان الوحي إليها بهذا سبباً لإلقائه في البحر ، وإلقاؤه سبباً لالتقاطه ، قال : ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ﴾" (٣) ، فلا يمكن أن يكون هناك التقاط دون إلقاء ، وإذا أردنا أن نتلمس التقدير نقول : "ففعلت ما أمرت به من إرضاعه ومن إلقائه في اليم" (٤) .

فالحذف لم يؤثر على جريان أحداث القصة ، وما ذاك إلاّ لأنه قرآن معجز في رسمه ، وعرضه ، وطرق قصه . وإن كان هناك فجوة تلحظ في بعض المشاهد فإنها "فجوات فنية ، يملؤها الخيال ، فلا يفوت القارئ شيء من الأحداث والمناظر المتروكة بين المشهد والمشهد ، مع الاستمتاع الفني بحركة الخيال الحية" (٥) .

ومن الآيات التي جاء فيها حذف ساعد على جمال المعنى ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٦) .

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٥٩٠ .
(٢) سورة القصص : الآية ٨ .
(٣) نظم الدرر ٥/٤٦٦ .
(٤) البحر المحيط ٧/١٠٥ .
(٥) في ظلال القرآن ٥/٢٦٧٧ .
(٦) سورة القصص : الآية ٩ .

فإن تقدير المحذوف "عند قوم : وهم لا يشعرون أنه يكون لهم عدواً وحزناً ، وقيل : أو نتخذه ولداً ، وبنو إسرائيل لا يشعرون أنا اتخذناه ولداً ، بل يظنون أنه ولدنا حقيقة" (١) .

وجاء لفظ : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ مناسباً لسياق القصة ، ففرعون وقومه ومن باشر الالتقاط كلهم لا يعلمون من المُلْتَقَط ، ولماذا التُقِط ، وما مدى أثر هذا المُلْتَقَط فيهم "واختير يشعرون هنا ؛ لأنه من العلم الخفي ، أي لا يعلمون هذا الأمر الخفي" (٢) .

أقول : إذا كان فرعون يدعي الربوبية فكيف يلتقط من سيكون له عدواً وحزناً ؟ وهذا مخالف للربوبية التي يدعيها ، ولو أعمل آل فرعون عقولهم ولو للحظات لعرفوا أنهم في ضلالٍ مبين .

ويأتي الحذف في الحلقة التي جاءت لتصف لنا حال أم موسى – عليه السلام – بعدما أوحي إليها بأن تلقي وليدها ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (٣) ، استجابت لأمر الله – عزَّ وجل – ففعلت ما أمرت به ، وأقدمت على عمل لا يمكن أن يخطر على بال أم ، فضلاً على أن تقوم به ! ولكنه أمر الله .

"والتعبير القرآني يصور لنا فؤاد الأم المسكينة صورة حيّة (فارغاً) ، لا عقل فيه ولا وعي ، ولا قدرة على نظر أو تصريف !" (٤) .

والحذف هنا تقديره : "لتكون من المصدقين بوعد الله ؛ لأن الله وعدها بردِّه إليها وإرساله إلى خلقه ، فصدقت بهذا الوعد" (٥) .

---

(١) مجاز القرآن ص١٢٠ .
(٢) التحرير والتنوير ٨٠/٢٠ .
(٣) سورة القصص : الآية ١٠ .
(٤) في ظلال القرآن ٢٦٨٠/٥ .
(٥) مجاز القرآن ص١٢٠ .

ويأتي الحذف في حلقة البحث عن مرضعة بعدما رفض موسى – عليه السلام – كل المرضعات ، وبعدما اشتد قلق أم موسى – عليه السلام – على وليدها أمرت أخته في البحث عنه ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهُ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [1] .

حيث يخبر الله – عزَّ وجل – في ختام الآية أن آل فرعون لا يدركون مايحيط بهم وتقديرها : "وهم لا يشعرون بأنها أخته" [2] .

وساعد هذا التركيب على أن جعلنا نرسم ، ونتخيل أخت موسى – عليه السلام – وهي تسير في الطرقات متخفية ، تبحث عن أخيها ، وإذا بها تنظر إليه عن بُعْد ، فيقع نظرها على أخيها وهم يبحثون عن مرضعة يقبل ثدييها ، وكل هذا وهم لا يشعرون بأمرها .

وقد تتركب الآية من حذف ، وذكر ، فاجتمعا في آية واحدة ، كما جاء في الحلقة التي أعقبت سخرية فرعون ﴿ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [3] .

فأمّا الحذف فقال عنه البقاعي : "ولما كان الضار هو التزيين لا المزين الخاص ، بناه للمفعول فقال : (زين) أي : زين المزين النافذ الأمر ، وهو لله تعالى حقيقة بخلقه وإلزامه" [4] . وهنا جاء حذف الفاعل [5] .

أما الذكر فيظهر من خلال إعادة اسم فرعون . حيث : " أعاد الاسم و لم يضمره ؛ لئلا يخص بحيثية من الحيثيات فقال : (فرعون)" [6] .

---

(١) سورة القصص : الآية ١١ .
(٢) مجاز القرآن ص١٢٠ .
(٣) سورة غافر : الآية ٣٧ .
(٤) نظم الدرر ٥١٥/٦ .
(٥) أشار إلى هذا الموضع : أ. ماجد محمد الماجد ، الإعجاز البياني ص٢١ .
(٦) نظم الدرر ٥١٥/٦ .

ويأتي أسلوب **التعريف والتنكير** ، وهو من الأساليب التي تُعْنى بأحوال المخاطبين ، ومما جاء من هذا الأسلوب في قصة موسى عليه السلام .

تذكير بني إسرائيل بالنعم التي أسبغها الله – عزَّ وجل – عليهم في قوله : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [1] .

فقد جاء في ذيل الآية كلمتان نكَّرتان هما : (بلاء ، عظيم) .

يقول أبو السعود : "وتنكيرهما للتفخيم" [2] .

فالأسلوب القرآني جعلنا من خلال هذه الآية نستشعر البلاء العظيم الذي لحق ببني إسرائيل ، حيث أعطى هذا التنكير الخيال مساحات واسعة ؛ ليتصور ألواناً ، وأنواعاً من العذاب الذي طال بني إسرائيل .

ويطالعنا التنكير في حلقة المحاورة بين فرعون والسحرة ، والتي كان موضوعها يدور حول المفاوضة المالية ، ومدى صدق فرعون حال انتصار باطلهم وسحرهم على نبي الله موسى – عليه السلام – وما معه من الآيات والمعجزات ، ولكن هيهات هيهات! ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [3] .

يقول الزمخشري عن تنكير (لأجراً) : "كأنهم قالوا : لا بد لنا من أجر ، والتنكير للتعظيم ، كقول العرب : إن له لإبلاً ، وإن له لغنماً ، يقصدون الكثرة" [4] .

وبعد مقولة السحرة جاء القرآن ليعبر عن ردِّ فرعون عن سؤال السحرة ، فكان هناك نوع من التناسب بين السؤال والجواب الذي أجاب به فرعون مطالب السحرة بأن لهم أجراً ، ومع الأجر القربى ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [5] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٤٩ .

(٢) تفسير أبي السعود ١٣٣/١ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١١٣ .

(٤) الكشاف ١-٣٧٩/٢ .

(٥) سورة الأعراف : الآية ١١٤ .

ومن بلاغة التعريف التي جاءت في القرآن ما قد يكون بذكر العلم اسم معين يدل على صاحبه ، ومما جاء من ذلك . ذكر موسى بعينه كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴿١٥٠﴾ ﴾ [1] ، فالعلمية لها دور فَعَّال في تأدية الغرض المراد بذكر الاسم صراحة ؛ وذلك من أجل تخصيصه بما ورد في السياق ، وصرف النظر عن غيره .

وإذا كانت العلمية تأتي في القرآن لاعتبارات شتى فإن موسى – عليه السلام – جاء هنا "لإحضاره بعينه في ذهن السامع" [2] .

ومن بلاغة التنكير في قصة موسى – عليه السلام – ما جاء في ابتهال موسى – عليه السلام – لربه – عزَّ وجل – بعد تكليفه بالرسالة ، ومن دعائه ما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ ﴾ [3] .

فإن موسى – عليه السلام – لما استشعر عظم هذا التكليف ، طلب من الله – عزَّ وجل – بأن يعينه على أداء الرسالة ، وأن يكشف ما به من أمر قد يكون حائلاً بينه وبين إتمامها ، وهي العقدة التي في لسانه ، فجاء القرآن حاكياً عن هذا الدعاء بتنكير كلمة ﴿ عُقْدَةً ﴾ ؛ والسر في ذلك أن موسى – عليه السلام – "لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية ، بل حل عقدةٍ تمنع الإفهام ، ولذلك نكَّرها ، ووصفها بقوله : ﴿ مِّن لِّسَانِى ﴾، أي : عقدة كائنة من عقد لساني" [4] ، وقد ربط حل العقدة بإفهام قومه .

وإذا دل على شيء فإنما يدل على حرص الأنبياء على إيصال الرسالة إلى أممهم بأكمل صورة ، وأوضح بيان ؛ حتى تقام الحجة عليهم .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٥٠ .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ص٤٢ .

(٣) سورة طه : الآية ٢٧ .

(٤) تفسير أبي السعود ٤/٢٧٧ .

ومن المعلوم أن الدعوة والرسالة لا تتم إلاّ بالبيان ، فلذلك طلب موسى – عليه السلام – من ربه أن يحل عقدة من لسانه ، وهي عقدة البيان التي عن طريقها تُبلَّغ بها الدعوة .

ولا أدلَّ على حرصه – عليه السلام – على تبليغ الدعوة من طلبه بأن يكون هارون – عليه السلام – معيناً له ، كما جاء في سورة أخرى : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [1] ، فقد وصف أخاه هارون بالفصاحة ﴿ أَفْصَحُ ﴾، وهذا فيه دلالة على أن العقدة التي يشكو منها موسى – عليه السلام – هي عقدة البيان .

ويأتي أسلوب التعريف في قصة موسى – عليه السلام – ليؤكد لنا سبب الخوف الذي لحق بموسى – عليه السلام – عندما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ [2] .

ومن المعلوم اختلاف أقوال العلماء في سبب خوف موسى – عليه السلام – ، في الميدان الذي جمعه مع السحرة ؛ ولكننا إذا نظرنا إلى كلمة ﴿ الْأَعْلَىٰ ﴾ فإنها قد تحدد لنا سبب الخوف .

يقول ابن عاشور : "فتأكيد الجملة بحرف التأكيد ، وتقوية تأكيدها بضمير الفصل ، وبالتعريف في الأعلى دليل على أن ما خامره من الخوف إنما هو خوف ظهور السحرة عند العامة ولو في وقت ما ، وهو وإن كان مؤمناً بأن الله ينجز له ما أرسله لأجله ، لكنه لا مانع من أن يستدرج الله الكفرة مدة قليلة ؛ لإظهار ثبات المؤمنين" [3] .

ولا يقف جمال ودلالة كلمة ﴿ الْأَعْلَىٰ ﴾ إلى هذا الحد ، الذي بيناه سابقاً بل تتجاوز ذلك إلى الإعجاز التركيبي الذي يدرك من خلال ما في الآية من تعريض ،

(١) سورة القصص : الآية ٣٤ .

(٢) سورة طه : الآيات ٦٧ – ٦٨ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٥٩/١٦ .

وتناسب ، وهذا التعريض والتناسب في الآية جاء من خلال "التعبير بلفظ (الأعلى) ، ففيه تعريض بفرعون ، وسخرية من دعواه الباطلة ، إذ أنه كان يعلن أمام قومه أنه هو الأعلى ، وذلك بعد أن دعاهم موسى – عليه السلام – إلى عبادة الله– عزَّ وجل – .

قال تعالى على لسان فرعون : ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [1] . ومعنى هذا : أن قول الله – عزَّ وجل – : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ مخاطباً لموسى – عليه السلام – تناسب مع قول فرعون بعد أن دعي إلى عبادة الله سبحانه ، فقال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ " [2] .

ويأتي السياق القرآني مبيناً العذاب الذي لحق بفرعون وقومه بعد أن ساروا خلف موسى – عليه السلام – ومن معه ، وذلك من خلال بلاغة التعريف الذي حكى الله – عزَّ وجل – عن هذا العذاب بقوله : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾ [3] . فلم تحدد الآية الكمية التي أغرقت فرعون وقومه ، أو بالأصح لم تصف لنا حال الماء [4] .

"ليبقى وقعه في النفس شاملاً مهولاً ؛ لا يحدده التفصيل ، وقاد فرعون قومه إلى الضلال في الحياة كما قادهم إلى الضلال والبحر ، وكلاهما ضلال يؤدي إلى البوار" [5] .

---

(١) سورة النازعات : الآية ٢٤ .

(٢) الجانب الفني في قصص القرآن الكريم ، ص٢٠٠ .

(٣) سورة طه : الآية ٧٨ .

(٤) كما وصفه الرب – تبارك وتعالى– حينما كتب الغرق على قوم نوح – عليه السلام – حيث إن الماء تجاوز الجبال ، بدليل استواء السفينة على جبل الجودي ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .
[سورة هود: الآية ٤٤] .

(٥) في ظلال القرآن ٢٣٤٤/٤ .

واختار السياق أسلوب التعريف بالاسم الموصول [1] ؛ لأنه هو الأقدر على تأدية المعنى على أكمل صورة ، فجعل القارئ يتخيل شدة إحاطة الماء بفرعون ، ومن كان معه . حيث صورت الآية في الأذهان أنَّ الغرق قد وصل إلى أقسى درجاته .

وإذا كنا نتحدث عن بلاغة التعريف في قصة موسى – عليه السلام – فقد جاء هذا الأسلوب في قصة موسى – عليه السلام – منذ بداية التكليف بالرسالة ، ومخاطبة فرعون لعلّه يتذكر أو يخشى ، ولكن الطاغية فرعون استقبل موسى وهارون – عليهما السلام – بالسخرية ، والتندر ، والتمنّن ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [2] .

وجاء التعبير الإلهي حاكياً كلام فرعون بإضافة (الفَعْلَة) إلى ضمير المخاطب (فعلتك) ، دالاً على ما أراده فرعون وهو "تهويل مراد به التفظيع ، وأنها مشتهرة معلومة ، مع تحقيق إلصاق تبعتها به ؛ حتى لا يجد تنصلاً منها" [3] .

فالمتكلم أعني (فرعون) أراد أن يضعف من عزيمة موسى – عليه السلام – وإقباله على الدعوة إلى الله – عزَّ وجل – من خلال تذكيره بنعمه عليه ، وما اقترفت يداه ، شاناً بذلك حرباً نفسية على أولياء الله – عزَّ وجل – ، ولكن كل هذا ذهب أدراج الرياح مجرد أن سمع هذا الاعتراف المدوي من قِبل موسى – عليه السلام – بقوله : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [4] .

والبناء التركيبي اختصر لنا ما أراده فرعون من خلال الإضافة في قوله : ﴿ فَعْلَتَكَ ﴾ .

---

(١) ينظر : البلاغة فنونها وأفنانها ، علم المعاني ص ٣٢٠ .

(٢) سورة الشعراء : الآيات ١٨ – ١٩ .

(٣) التحرير والتنوير ١١٢/١٩ .

(٤) سورة الشعراء : الآية ٢٠ .

وتتجلى بلاغة التنكير في أرقى صورها في موطن المحاورة التي جرت بين مؤمن آل فرعون وقومه ، حيث حكى الله – عزَّ وجل – عن هذه المحاورة بقوله: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[1] .

وإن المتأمل في حكاية كلام الرجل المؤمن ليلحظ أنه نكَّر كلمة (رجل) في قوله : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا ﴾ ، وهو بذلك يريد أن يفتح باب الحوار في مسألة رسالة موسى – عليه السلام – بعد أن كانوا لا يسمعون إلاّ صوتاً واحداً هو صوت فرعون وإن أفضل وسيلة لإتمام عملية الحوار هو تجاهل الطرف الآخر (موسى)- عليه السلام – من أجل إتمام هذه العملية ، فلجأ إلى التنكير .

وثمة أمر آخر يفسر ظاهرة التنكير في هذا الموضع وهو أن القرآن الكريم قد يعبر أحياناً عن الاسم بالصفة ؛ من أجل أن يثبت أو ينفي حكماً من الأحكام له أو لغيره ، وهذا ما نلمسه فعلاً في هذا الموضع ، فقد نكر موسى – عليه السلام – وذكر علة قتله صراحة ﴿ أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ ، فجرمكم عظيم ، وفعلكم شنيع إذا قتلتم شخصاً بهذه الصفة سواء هذا الرجل (موسى) أو غيره ؟ .

ومن المباحث التي اهتم بها علماء البلاغة **(الإطلاق والتقييد)** [2] .

والتقييد يكون بأبواب عدة كالتوابع ، والنواسخ ، وأدوات الشرط ... الخ .

---

(١) سورة غافر : الآية ٢٨ .

(٢) الإطلاق والتقييد : وصفان للحكم ؛ فالإطلاق أن يُقْتَصر في الجملة على ذكر (المسند والمسند إليه) ، حيث لا غرض يدعو إلى حصر الحكم ضمن نطاق معين بوجه من الوجوه ، نحو : الوطن عزيز . و(التقييد) : أن يزاد على المسند والمسند إليه شيء يتعلق بهما ، أو بأحدهما ، مما لو أغفل لفاتت الفائدة المقصودة ، أو كان الحكم كاذباً ، نحو : الولد نجيب يسرُ أهله .
جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، أحمد الهاشمي ، تدقيق : سليمان الصالح ، دار المعرفة ، بيروت ، ط : ٢ ، ص١٤٤ ، ١٤٢٨- ٢٠٠٧م .

وسأبين من خلال استعراضي لحلقات قصة موسى – عليه السلام – ما ورد فيها من قيود ، محاولاً الكشف عن هذه القيود وما وراءها من أغراض بلاغية ، وحكم بيانية .

يمضي القرآن الكريم معدداً النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل بعدما طلبوا المستحيل وهي رؤية الله – عزَّ وجل – ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [1] .

وعندما نلحظ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ ، نجد أن تركيب الآية الكريمة جاء متناسباً مع المعنى المراد من الآية ، فقد جاءت لتثبت أن البعث جاء بعد موت حقيقي حيث : "قُيِّد البعث به لما أنه قد يكون من الإغماء ، وقد يكون من النوم" [2] . وهذا التقييد الذي جاء به القرآن ليرشدنا إلى شدة تعنّت وقسوة بني إسرائيل قديماً وحديثاً .

يقول سيد قطب : "والقرآن يواجههم هنا بهذا التحديف الذي صدر من آبائهم ؛ لينكشف تعنتهم القديم الذي يشابه تعنتهم الجديد مع الرسول الكريم ، وطلبهم الخوارق منه" [3] .

ويحكي لنا القرآن حال بني إسرائيل وموقفهم من حال الرخاء والشدة بقوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [4] .

---

(١) سورة البقرة : الآيات ٥٥ – ٥٦ .

(٢) تفسير أبي السعود ١٣٦/١ .

(٣) في ظلال القرآن ٧٢/١ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٣١ .

يقول الزمخشري : " ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾ من الخصب والرضا ، ﴿ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ أي هذه مختصة بنا ونحن مستحقوها ، ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ من ضيقة ، وجدب ، ﴿ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ ﴾ يتطيروا بهم ويتشاءموا ، ويقولوا : هذه بشؤمهم" [1] .

وقيّد الأسلوب القرآني (إذا) مع الحسنة ، و(إن) مع السيئة ، وقبل أن نعرف السر البلاغي الكامن وراء هذا التقيد لا بدّ من معرفة ما تختص به كل واحدة عن الأخرى ، وما قاله النحاة في ذلك .

فقد تكلّم النحاة عنهما وقالوا : "الفرق بين (إن) و (إذا) : أن الأولى تدخل على ما يُشَكّ في حصوله ، والثانية تدخل على ما هو محقق الحصول . فإن قلت : (إن جئت أكرمتك) ، فأنت شاك في مجيئه ، وإن قلت : (إذا جئت أكرمتك ، فأنت على يقين من مجيئه) [2] .

وإذ كنا قد عرفنا اختصاص كل واحدة عن الأخرى ، فإن القرآن استخدم مع الحسنة (إذا) ، ومع السيئة (إن) والسر في ذلك : "أن جنس الحسنة وقوعه كالواجب؛ لكثرته ، واتساعه . وأما السيئة فلا تقع إلاّ في الندرة ، ولا يقع إلا شيء منها ومنه قول بعضهم : قد عددت أيام البلاء ، فهل عددت أيام الرخاء" [3] .

والبناء الفني التركيبي لهذه الآية جعلتنا نشعر بالحياة المليئة بالخيرات التي عاشها بنو إسرائيل ، وقلة إصابتهم بالجدب ، والقحط ، ومع ذلك لم يجد منهم موسى – عليه السلام – إلاّ التعنت ، والتكبر ، وأن الخير الذي يصيبهم في –نظرهم- هم مستحقوه ، وأن الشر الذي يصيبهم بسبب موسى- عليه السلام- ومن معه ، فأي نكران أعظم من هذا النكران ؟ .

---

(١) الكشاف ١-٣٨١/٢ .

(٢) جامع الدروس العربية ، تأليف : الشيخ/ مصطفى الغلاييني ، راجعه : د. محمد أسعد النادري دار المكتبة العصرية ، بيروت ، ط : ٣٥ ، ١٩٠/٢ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

(٣) الكشاف ١-٣٨٢/٢ .

وتظهر بلاغة التقييد في قصة موسى – عليه السلام – عندما ظهر نور الحق ، وسطعت شمس الهداية ، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴿٢٥﴾ ﴾ [1] ، فما كان من فرعون ، وهامان ، وقارون إلاّ أن قابلوا ذلك الحق بقولهم : ﴿ قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [2].

لقد أطلق فرعون حكمه الأول أيام مولد موسى – عليه السلام – بقتل الأبناء سنة وإبقائهم سنة أخرى ، وهذا حكم عام .

يقول الرازي معلقاً على هذه الآية : "والصحيح أن هذا القتل غير القتل الذي وقع في وقت ولادة موسى – عليه السلام – ؛ لأن في ذلك الوقت أخبره المنجمون بولادة عدو له يظهر عليه ، فأمر بقتل الأولاد في ذلك الوقت .

وأما في هذا الوقت فموسى – عليه السلام – قد جاءه وأظهر المعجزات الظاهرة ، فعند هذا أمر بقتل أبناء الذين آمنوا معه ؛ لئلا ينشؤوا على دين موسى ، فيقوى بهم، وهذه العلة مختصة بالبنين دون البنات، فلهذا السبب أمر بقتل الأبناء" [3].

وعلى هذا يكون الحكم الأول حكماً عاماً ، وهو قتل الأبناء ، وأما الحكم الثاني فهو حكم خاص ، مقيد بالإيمان بالمخالف ، أي بموسى – عليه السلام – ﴿ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ .

ومن هنا جاء التناسب ؛ لأن الحكم الخاص بمثابة القيد ، فناسب أن يأتي بالقيد مع الحكم . ففرعون أراد أن يقيد الحكم الأول بالقيد الخاص ، وهو قتل كل من آمن بمخالفه .

---

(١) سورة غافر : الآية ٢٥ .

(٢) سورة غافر : الآية ٢٥ .

(٣) مفاتيح الغيب ٥٠٦/٢٧ .

ومن أساليب التركيب البلاغية ما يسمى **بالقصر** [١] .

وهو من الأساليب البلاغية المتعددة الطرق ، ويأتي لأسباب ، ودواعٍ يُراعى فيها أحوال المخاطبين ، وأشهر طرق القصر ما جاء فيه بالقصر بـ (إنما) [٢] .

ومما جاء على أسلوب القصر في قصة موسى – عليه السلام – حواره مع قومه الذين آمنوا معه ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[٣] .

أراد موسى – عليه السلام – أن يقوي إيمان من آمن معه ، ويربطهم بالله – عزَّ وجل – من خلال حثهم على التوكل عليه ، والالتجاء إليه .

ونظراً لأهميّة التوكل على الله وخاصة في مواطن الابتلاء زاد من أهمية التوكل من خلال تقديم المجرور على متعلقه في قوله : ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ ﴾ ؛" لإفادة القصر ، وهو قصر إضافي [٤] ، يفسره" قوله : ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[٥] [٦] .

---

(١) القصر : الحبس ، وهو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص .
معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ٣٦/٣ .

(٢) طرق القصر كثيرة ، كالقصر بالعطف ، وتقديم ما حقه التأخير ....الخ .

(٣) سورة يونس : الآية ٨٤ .

(٤) القصر الإضافي : وهو غير حقيقي ، وذلك بأن يكون القصر فيه بالإضافة إلى شيءٍ مخصوص ، لا إلى ما عدا المقصور عليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ [سورة آل عمران : الآية ١٤٤] . فـ (محمد) مقصور على الرسالة بالإضافة إلى شيءٍ آخر ، وليس المقصود أن الرسالة مختصة به وحده .
معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ٤٤٩/٢ .

(٥) سورة يونس : الآية ٨٣ .

(٦) التحرير والتنوير ٢٦٢/١١ .

وطلبُ موسى– عليه السلام – من قومه في بداية الرحلة أن يتوكلوا على الله، ناسب الحالة التي يمر بها من آمن معه ؛ لأنهم حديثو عهد بإيمان ، والمتوقع في مستقبل أيامهم أن يعترضهم ما يعترض المؤمن من الابتلاءات فأرشدهم إلى سلاح يحميهم ، ويكون خير معين لهم ، إذا هم توكلوا على الله ومن توكل على الله كفاه .

ونقرأ – قوله تعالى– حاكياً كلام السحرة بعدما آمنوا ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ﴾ [1] .

أراد هؤلاء السحرة في خطابهم الموجه إلى فرعون أن يجعلوه يقطع الأمل بعد أن سمعوا تهديده إن لم يتراجعوا ، فكان شعارهم آنذاك أن لا رجعة .

واختاروا للتعبير عن هذا الموقف أسلوب القصر بـ "إنما قصر موصوف على صفة ، أي أنك مقصور على القضاء في هذه الحياة الدنيا لا يتجاوزه إلى القضاء في الآخرة ، فهو قصر حقيقي" [2] .

أما الآخرة المقابلة للدنيا فلا يد لك فيها ، والآخرة خير وأبقى .

وتقرأ الخطاب الصادر من مؤمن آل فرعون إلى قومه طالباً منهم النظر ، وعدم الاستعجال ، وإعمال الذهن في ما يدعو إليه موسى – عليه السلام – مبيناً لهم حقيقة الدنيا ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [3] .

---

(١) سورة طه : الآية ٧٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٦٧/١٦ .

والقصر الحقيقي : وهو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الحقيقة لا يتعداه إلى غيره أصلاً ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الزمر : الآية ٩] ، فالتذكرة صفة لا تتجاوز إلى غيرهم من سائر الناس في الحقيقة والواقع .

معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ٤٤٩/٢ .

(٣) سورة غافر : الآية ٣٩ .

حيث إنَّ : "القصر المستفاد من قوله : ﴿ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾قصر موصوف على صفة ، أي : لا صفة للدنيا إلاّ أنها نفع مؤقت ، وهو قصر قلب [1] ؛ لتنزيل قومه في تهالكم على منافع الدنيا منزلة من يحسبها منافع خالدة "[2] .

ولم يقف كلام مؤمن آل فرعون ببيان حقيقة الدنيا ، بل أعقب ذلك ببيان حقيقة الآخرة ﴿ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ .

حيث إنَّ : " القصر المستفاد من ضمير الفصل في قوله : ﴿ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ ، قصر قلب نظير القصر في قوله : ﴿ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾، وهو مؤكد للقصر في قوله : ﴿ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾ ، من تأكيد إثبات ضد حكم لضد المحكوم عليه" [3] .

وإذا كانت حقيقة الدنيا متاعاً ، والآخرة قراراً ، فقد جاء في تركيب الآية "التقابل بين وصف الدارين فناء وبقاء ، وتماثلاً في أسلوب القصر" [4] .

ومن مباحث البلاغة التي حفلت بها كُتب البلاغة مبحث **الوصل والفصل**[5].

ويعتمد مبحث الوصل والفصل على الذوق اعتماداً كلياً ، يعرفه من أوتي حظاً من البلاغة والفصاحة .

---

(١) قصر القلب : إذا اعتقد المخاطب عكس الحكم الذي يثبت بالقصر .
معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ٤٥٠/٢ .

(٢) التحرير والتنوير ١٤٩/٢٤ .

(٣) المرجع السابق ١٤٩/٢٤ ، ١٥٠ .

(٤) مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب ، ماجد محمد الماجد ص٢٢ .

(٥) الوصل : عطف بعض الجمل على بعض ، والفصل تركه .
الإيضاح في علوم البلاغة ص١٤٩ .
يقول عبدالقاهر الجرجاني عن الوصل والفصل : "ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلاّ الأعراب الخُلَّص وإلاَّ قوم طُبِعوا على البلاغة ... وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدّاً للبلاغة ، فقد جاء عن بعضهم أنه سُئِلَ عنها ، فقال : (معرفة الفصل من الوصل) ، ذاك لغموضه ، ودقة مسلكه ، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد ، إلا كمل لسائر معاني البلاغة" .
دلائل الإعجاز ص٢٢٢ .

وإذا كنا نتلمس الوصل والفصل ، فلا بد أن نلحظهما من خلال المعاني التي تنتج عن الوصل أو الفصل ، وبهذا ندرك المواطن التي يحسن فيها الوصل من الفصل .

وإذا تعقبنا قصة موسى – عليه السلام – نلحظ أن الفصل جاء في تذكير بني إسرائيل بنعمه – عزَّ وجل – ، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [1] .فحلقة موسى – عليه السلام – في هذا الموضع بصدد التذكير بنعم الله – عزَّ وجل – لبني إسرائيل .

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وقد جاء بين الجملتين ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾و ﴿يُذَبِّحُونَ﴾فصل ، حيث ذكرت ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بلا واو .

ولتوضيح هذا الفصل يقول الرازي : "وأما هذه الآية لم يرد الأمر إلا بتذكير جنس النعمة وهي قوله : ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [2] ، فسواء كان المراد من سوء العذاب هو الذبح أو غيره كان تذكير النعمة حاصلاً."[3].

ولذلك لم يأت العطف بالواو ؛ لما بين الجملتين من كمال الاتصال [4] ، وهذا من مواطن الفصل ، حيث إن الجملة الثانية بياناً للجملة الأولى [5] .

وجاء البيان الرباني راسماً ومذكراً بني إسرائيل "صورة الكرب الذي كانوا فيه باعتبار أنهم أبناء هذا الأصل البعيد" [6] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٤٩ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٤٠ .

(٣) مفاتيح الغيب ٥٠٦/٣ .

(٤) نعني بكمال الاتصال "هو أن تكون الجملة الثانية متصلة اتصالاً تاماً بالجملة الأولى" . معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ١٥٣/٣ .

(٥) ينظر: تفسير البيضاوي ١٠٠/١ .

(٦) في ظلال القرآن ٧٠/١ .

ويأتي أسلوب الفصل في الحوار الذي دار بين موسى – عليه السلام – وبين فرعون – قبحه الله – محاولاً تشتيت الأفكار ، بادئاً حواره المشين عن رب العالمين ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) ﴾ [1] .

وإذا أمعنا في هذه الآيات الكريمات نجد أنها جاءت مفصولة بعضها عن بعض ولعل السبب الذي دعا إلى ذلك في –نظري– اختلاف المتحاورين في المبدأ ، ففرعون يريد أن يتهرب من المواجهة ؛ لذلك جاءت أسئلته مشتتة أحياناً يسأل عن رب العالمين ، وينتقل بعدها إلى سؤال المستمعين ، ويتهم موسى – عليه السلام – بعد ذلك بالجنون ، وأخيراً يُحذر ، ويتوعد بالسجن لمن خالف أمره .

أمَّا موسى – عليه السلام – فمن البداية نلحظ أنه يؤكد على مبدأ واحد ولا غير ، الدعوة إلى الربوبية ، فالفصل بين السؤال والجواب جاء متزامناً مع انفصال المبادئ بين الطرفين .

وثمة أمر آخر دعا إلى الفصل بين الجمل وهو أن أسلوب القرآن يختار من الألفاظ ما يخدم السياق ، حيث إن لفظ (قال) بدون حرف العطف يمتاز بالدقة ، والتركيز وخاصة في المواطن الحاسمة ، كمثل هذا اللقاء الذي جمع بين الحق والباطل ، مما يدفع بالحوار إلى نتائج إيجابية كما حصل في هذا اللقاء

وهذه الآيات ذكرها علماء البلاغة أنها من شبه كمال الاتصال [2] .

---

(١) سورة الشعراء : الآيات ٢٣ – ٣١ .

(٢) نعني بشبه كمال الاتصال : "وهو أن تكون الجملة الثانية في الفصل بمنزلة المتصلة بالأولى ؛ لكونها جواباً عن سؤال اقتضته الأولى فتنزل منزلته فتنفصل الثانية عنها ، كما يفصل الجواب عن السؤال" . معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ٥٢/٣ .

ومن هذا القبيل ما جاء في بيت أبي تمام [1] :

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتب ٠٠ في حدهِ الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ

"فكأنه استفهم ، وقال : لم كان السيف أصدق ؟ فأجاب بقوله : في حده : الخ ، فالمانع من العطف في هذا الموضع وجود الرابطة القوية بين الجملتين ، فأشبهت حالة اتحاد الجملتين ، ولهذا وجب أيضاً الفصل" [2] .

ولقد جاء التناسب في إجابات موسى – عليه السلام – من حيث تركيزها ، وتأكيدها على توحيد الربوبية ، فلقد تكرر لفظ (الرب) في معظم إجابات موسى – عليه السلام – ، رغم أن فرعون يحاول صرف النظر ، وتشتيت الأفكار من خلال صرف حواره عن موسى – عليه السلام – ، والاتجاه لقومه ، ﴿ **قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ** ﴾ .

وفي حلقة العذاب الذي توعَّد الله به – عزَّ وجل – آل فرعون بعد الحوار الذي جرى بينهم وبين مؤمن آل فرعون فلم يستجيبوا لندائه المتكرر ، فكان مصيرهم ﴿ **فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾** ﴾ [3] .

يخبرنا الله – عزَّ وجل – عن عذاب آل فرعون إجمالاً ، وتفصيلاً ، فإن الله لما أجمل في قوله : ﴿ **وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ** ﴾ عاد فبين المراد بسوء العذاب ، فقال : ﴿ **ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا** ﴾ ، وقد جاء التفصيل بعد الإجمال بلا

---

(١) هو : حبيب بن أوس الطائي ، والبيت موجود في الديوان ، قافية (الياء) .
ديوان أبي تمام ، شرح : د. محيي الدين صبحي ، دار صادر ، بيروت ، ط : ١ ، ٥/١ ، ٩٦ ، ١٩٩٧م .

(٢) جواهر البلاغة ص١٩٢ .

(٣) سورة غافر : الآيات ٤٥ – ٤٦ .

عاطف في تركيب بلاغي هو الفصل ، فإن الآية قد تلت سابقتها بلا عاطف ؛ لكمال الاتصال بين الآيتين ، فالثانية بيان للأولى ، وجملة البيان لا تحتاج إلى عاطف [١] .

وقد عرض لنا القرآن عذاب آل فرعون عرضاً فنياً من خلال استخدام كلمة (حاق) ، فقد جاء في لسان العرب : "وقيل حاق بهم العذاب ، أي : أحاط بهم ، ونزل ، كأنه وجب عليهم" [٢] .

ومن المعلوم أن عذاب فرعون وقومه كان بالغرق ، وعلى هذا يكون التناسب ظاهراً بين نوع العذاب وهو الغرق بالماء الذي يحيط بالإنسان من كل اتجاه ، وهذا ما حصل لفرعون وقومه ، ثم إن الآية الثانية البيانية للأولى ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا ﴾ أثبتت حكماً جديداً ، أخذ منه علماء الشريعة إثبات عذاب القبر ونعيمه .

يقول سيد قطب : "والنص يلهم أن عرضهم على النار غدواً وعشياً ، هو في الفترة من بعد الموت إلى قيام الساعة ، وقد يكون هذا هو عذاب القبر . إذ إنه يقول بعد هذا : ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ " [٣] .

ويأتي أسلوب الوصل في حلقات قصة موسى – عليه السلام – في حلقة الحديث عن نعم الله – عزَّ وجل – على بني إسرائيل ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦ ﴾ [٤] .

---

(١) ينظر : الإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون ، ص٢٧ .

(٢) لسان العرب ٤٢٠/٣ ، مادة (حيق) .

(٣) في ظلال القرآن ٣٠٨٤/٥ .

(٤) سورة إبراهيم : الآية ٦ .

وقد وردت هذه الآية في سورة إبراهيم بالوصل بين جملتين ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ و ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

أما لماذا ركبت الآية بالوصل فيما بين الجمل ؟

يقول الرازي : "إنه تعالى قال قبل تلك الآية : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ﴾ ، والتذكير بأيام الله لا يحصل إلاّ بتعديد نعم الله تعالى ، فوجب أن يكون المراد من قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ نوعاً من العذاب ، والمراد من قوله : ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ نوعاً آخر ، "فلهذا وجب ذكر العطف" (١) .

وفي موضع آخر يقول : "وأدخل الواو فيه ؛ لأن المعنى أنهم يعذبونهم بغير التذبيح ، وبالتذبيح أيضاً ، فقوله : ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ نوع آخر من العذاب لا أنه تفسير لما قبله" (٢) .

وبهذا جاء العطف ليؤكد تعدد أنواع العذاب ؛ ليحقق الوصل المغايرة بين الجملتين المعطوفتين ؛ لأن القصد من ذلك تعداد نعم الله – عزَّ وجل – على بني إسرائيل ، خلافاً لآية البقرة التي تحدثنا عنها سابقاً ، والتي جاءت بالفصل ؛ لأن المقصد من ذلك ذكر النعمة .

نخلص إلى أن قصة موسى – عليه السلام – اتسعت للجوانب البنائية التركيبية وهذا الاتساع جاء متسقاً مع تكرار القصة ذاتها ، مما جعل من قصة موسى – عليه السلام – منجماً من مناجم علم المعاني الذي يجد الباحث فيه بغيته ، فلا تكاد تخلو القصة من تلك الأبواب ، مما يدل على عظمة القرآن ، وأسلوبه ، وشرف علم المعاني الذي ما زال ولا يزال علماء البلاغة يبحثون عن تراكيب بيانية أخرى من خلال الأسلوب المعجز الخالد .

---

(١) مفاتيح الغيب ٥٠٦/٣ .

(٢) المرجع السابق ٦٦/١٩ .

ثالثاً

البناء الفني الإيقاعي في قصة مُوسى عليه السلام

يُعدُّ الإيقاع من أهم أركان النظم القرآني ، وركيزة أساسية في السياق القرآني يتوقف القارئ المرة بعد المرة متعجباً من هذا الجرس الذي يعشقه القلب قبل الأذن ، والنفس قبل العين ، ولا غرابة في هذا ؛ وذلك لما للإيقاع من دور فعَّال في تذوق جمال الأداء الصوتي . فمن خلال الإيقاع أستطيع أن أتذوق جماليات النص القرآني .

ومن خلال الإيقاع أستطيع الكشف عن دلالات السياق الذي "ينساب انسياب الماء ليسقي الغرس ويبهر الحواس ، وينعش الأنفاس" [(١)] .

ومن خلال الإيقاع أتمكن من الإبحار في أسرار الانسجام بين المعاني والألفاظ والتي بدورها تنعكس على النفس البشرية ، فيحرك ذاك الانسجام ما في النفس من عواطف ، وانفعالات ، وأحاسيس .

ولكي أستطيع الكشف عن البناء الإيقاعي في قصة سيدنا موسى – عليه السلام – فإنني سأحاول جاهداً الوقوف على الإيقاع الظاهري المتمثل في "التناسب التام بين الكلمات والأجزاء ، والحركات والسكنات ... وكذلك الوقوف على الإيقاع الخفي والمتمثل في تنسيق العبارات ، وتخير الألفاظ ، وائتلافها ، وانسجامها ونظمها في نسق خاص مع الجو النفسي الماثل في وحدة الأحاسيس والمشاعر ، والخطوات النفسية التي تصاحب النصوص ..." [(٢)] .

دامجاً بذلك بين الإيقاعين ؛ لأخرج برؤية شاملة كاملة من حيث البناء الإيقاعي لقصة موسى عليه السلام .

---

(١) الوحدة الفنية في القصة القرآنية ، د. محمد الدالي ص١٢ .

(٢) المرجع السابق ص٢٢٠ بتصرف .

وسنطوف سوياً عبر الصفحات القادمة متأملين تلك النغمات الرنانة ، والعبارات المتناسقة الواردة في حلقات قصة موسى عليه السلام .

يتحدث القرآن عن الصفات الملازمة لبني إسرائيل ، والخوف المسيطر على تلك القلوب الواهية الخاوية من الشجاعة ، وقد حكى الله – عزَّ وجل – عنهم ذلك بقوله : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [1] .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا ..... دَاخِلُونَ ﴾ ، فإنك تلاحظ هذا الترنيم العجيب ، وهذا **الجناس** [2] اللطيف ، قد جاء ليؤكد صفة الجبن عند بني إسرائيل ، فلا مساومة ولا محاورة إلاّ بخروجهم . "إن جبلة يهود لتبدو هنا على حقيقتها ، مكشوفةَ بلا حجاب .... ذلك أنهم أمام الخطر ؛ فلا بغية إذن من تجمل ولا محاولة إذن للتشجع" [3] .

ومن مظاهر الإيقاع في القرآن ما جاء في تحريض قوم فرعون لفرعون من عدم ترك موسى ليفسد في الأرض في – نظرهم – كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [4] .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٢٢ . وقد أشار إلى هذا الموضع الهرري .
ينظر: حدائق الروح والريحان ٢٢٤/٧ .

(٢) حقيقة الجناس : أن يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً .
معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ٥٣/٢ .

(٣) في ظلال القرآن ٨٧٠/٢ بتصرف .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٢٧ .

فالجناس الوارد في الآية الكريمة جاء من خلال تكرار كلمة (أتذر- ويذرك) فقد استطاع هذا الإيقاع أن يشعرنا بلذّة في القراءة من خلال ترداد هذه الكلمة ، وجعلتنا نشعر بجمال الصوت الذي انبثق من جمال هذه الآية .

ويتجلى أسلوب الجناس من خلال وروده مكثّفاً في آية واحدة جاءت متحدثة عن السامري وصنيعه ، ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ ﴾[1] .

وإن الملاحظ لهذه الآية ليجد "الجناس المماثل في قوله ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ ، وجناس الاشتقاق في قوله ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً ﴾"[2] .

وإذا ذهبنا نفسر كثافة هذا الجناس في الآية السابقة نلحظ أن مرده إلى سعي السامري ، ومحاولته التأثير على موسى – عليه السلام – فهو في موقف المعتذر ، النادم على ما فعل بين يدي قائد يملك السلطة والقدرة على الإيقاع به ، ومعاقبته لذلك لجأ إلى الصيغة الفنية (الجناس) القادرة على حمل المشاعر المؤثرة ، والعواطف الصادقة التي تؤثر في المتلقي ، فما كان من موسى –عليه السلام –إلا أن ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾[3] .

وفي مطلع رسالة نبينا موسى – عليه السلام – إلى فرعون وبعد أن أعلم موسى – عليه السلام – فرعون بأنه رسول من عند الله أخذ فرعون يذكر موسى بأنه تربى في بيته وهو صغير ، وعشت بيننا مدة ليست بالقصيرة ، ومع ذلك قتلت نفساً وفعلت جرماً ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[4] .

---

(١) سورة طه : الآية ٩٦ .

(٢) حدائق الروح والريحان ١٧/٤٤٠ .

(٣) سورة طه : الآية ٩٧ .

(٤) سورة الشعراء : الآية ١٩ .

ويظهر جمال الفن في هذه الآية من خلال ترداد كلمة بعينها (وفعلت) ، وهذا التناغم والانسجام بين مقاطع الكلمات ليحدث أصواتاً تطرب إليها النفس ، وتعشقها الآذان من خلال ذلك الجناس الناقص بين (فَعَلْتَ) و (فَعْلَتَكَ) [1] .

وهذا يجعلنا أمام إيقاع رفيع المستوى يسهل على القارئ تذوقه ، وحفظه .

ويظهر لونٌ من ألوان البديع في حلقة المحاورة بين مُوسى – عليه السلام – والسحرة وذلك قبل المنازلة التي جرت بينهما ، وهو ما يمكن أن نسميه **رد العجز على الصدر** [2] في قوله تعالى : ﴿ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾ [3] .

وعند التأمل نلحظ أن كلمة ﴿ لَا تَفْتَرُوا ﴾ جاءت في مطلع الآية وإذا بها تتكرر ولكن هذه المرة في النهاية ، فتعانق كلٌ من البداية والنهاية على التحذير من الافتراء على الله كذباً ، وأن الهلاك ، والدمار ، والخسران كان له نصيب من هذا الافتراء . والملاحظ في الآية الكريمة أنها أشارت إلى الجامع المشترك بين كل من مواجه موسى – عليه السلام – وأن الكذب صفة ملازمة لهم (فرعون و السحرة) .

ومن مظاهر الإيقاع تنوع **الفاصلة** [4] في حلقة معينة ، كما نجد ذلك في قصة موسى – عليه السلام – الواردة في سورة الأعراف ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [5] ، وإن المتعقب لفواصل هذا المقطع ليلحظ اختلاف الروي في فواصلها، حيث جاء (العالمين،

---

(١) ينظر : حدائق الروح والريحان ١٩٢/٢٠ .

(٢) هو : أن يجعل أحد اللفظين المكررين ، أو المتجانسين ، أو الملحقين بهمها في أول الفقرة ، والآخر في آخرها . الإيضاح في علوم البلاغة ص٣٣٨ .

(٣) سورة طه : الآية ٦١. وقد أشار إلى هذه الآية الهرري في كتابه (حدائق الروح والريحان) ٣٥٣/١٧.

(٤) الفاصلة : نعني بها تلك الكلمة التي تختم بها الآية من القرآن .
بلاغة القرآن ، أحمد بدوي ص٦٤ .

(٥) سورة الأعراف : الآية ١٠٣ .

إسرائيل ، الصادقين...) ولعلّ تغير هذه الفواصل بطريقة مفاجئة تحدث "لفتة عند القارئ ، والسامع ، وتجعله ينتبه لما يقرأ وما يسمع ؛ إذ إنه حينما يتعود على سماع شيء متجانس ، وفجأة يرى فيها شيئاً من التغيير لا كل التغيير ، ثم بعد ذلك تأتي النغمة التي ألفها أولاً ، يكون ذلك أدعى للصوق الموسيقي بسمعه والمعنى بنفسه ... فعندما نسمع كلمة (إسرائيل) نحس بأن القصة إنما كانت في هؤلاء القوم المعروفين ، وهم بنو إسرائيل ، لا في غيرهم من البشر" [1] وقس على ذلك ، وكأن هذه الوقفات المؤكدة لمعاني الآيات تجعلنا أمام صورة الناطق بالأحكام النهائية ، وهنا تتكامل الفاصلة مع المعاني لتعطينا الجمال الفني لسياقات القصص القرآنية .

وفي قوله تعالى : ﴿ ...فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ تطالعنا كلمتي ﴿ فَٱغۡفِرۡ ﴾ و ﴿ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴾ ، حيث ختم هذه الآية بالتأكيد على صفة المغفرة ﴿ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴾ ، وهذه الفاصلة جاءت لتؤكد على أمر مهم ذكره الرازي بقوله : "إن كل من سواك فإنما يتجاوز عن الذنب إما طلباً للثناء الجميل أو للثواب الجزيل ... أما أنت فتغفر ذنوب عبادك لا لطلب عوض وغرض ، بل لمحض الفضل والكرم ، فوجب القطع بكونه خير الغافرين" [2] .

وفي حديث القرآن عن الخوف الذي لحق بموسى – عليه السلام – بعدما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم كما قال تعالى حاكياً عن ذلك بقوله : ﴿ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [3] .

يذكر الزركشي سبب تأخير الفاعل بقوله : "تأخير ما أصله أن يقدم ؛ لأن أصل الكلام أن يتصل الفعل بفاعله ، ويؤخر المفعول ، لكن أخرّ الفاعل وهو موسى لأجل رعاية الفاصلة" [4] .

---

(١) الجانب الفني في قصص القرآن الكريم ، ص١٧٢ بتصرف.

(٢) مفاتيح الغيب ٣٧٨/١٥ بتصرف .

(٣) سورة طه : الآية ٦٧ .

(٤) البرهان في علوم القرآن ٩٣/١ .

ويضيف تعليلاً آخر حول هذه الظاهرة بقوله : "للتأخير حكمة أخرى ، وهي أن النفس تتشوق لفاعل (أوجس) ، فإذا جاء بعد أن أُخِّر وقع بموقع" [1] .

أقول : ومع هذا التأخير فإن الفاصلة أحدثت نوعاً من الجمال الفني المتمثل بالترنيم ، والإيقاع الذي حصل جراء هذا التأخير ، مع انسجام القصة مع الجو العام للسورة ككل .

ويأتي السجع [2] في قصة موسى – عليه السلام – ليزيد من جمال العرض ، فمن ذلك ما جاء في حادثة الإلقاء وما تبعه من سجود السحرة والخضوع لله رب العالمين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [3] .

ولقد شَرَّقَ العلماء وَغرَّبوا في مسألة تأخير موسى – عليه السلام – عن هارون أقوالاً عدة تمخض من هذه الأقوال شدة اختلافهم في أسلوب السجع ، هل في القرآن سجع أم لا ؟ ، وهذه الآية من أقوى الأدلة التي استدل بها من قال بالسجع في القرآن .

ومن حجتهم في ذلك قولهم : الاتفاق على أن موسى أفضلُ من هارون – عليهما السلام – ، ولما كان السجع قيل في موضع "هارون وموسى ، ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل "موسى وهارون" [4] .

ولقد ردَّ الباقلاني زعمهم هذا ، ونفى أن يكون في القرآن سجع وخرَّج كلامهم هذا بقوله : "وأما ما ذكروه من تقديم موسى على هارون – عليهما السلام – في موضع وتأخيره عنه في موضع لمكان سجع ولتساوي مقاطع الكلام فليس

---

(١) المرجع السابق ٩٣/١ .

(٢) السجع : هو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد .
الإيضاح في علوم البلاغة ص٣٤٠ .

(٣) سورة طه : الآية ٧٠ .

(٤) البرهان في علوم القرآن ٨٦/١ .

بصحيح ؛ لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه ، وهي أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة وتؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب الذي تظهر به الفصاحة ، وتتبين به البلاغة ، وأعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكرراً" (١) .

أقول : ومع هذا الكلام الرائع من قِبَل الباقلاني إلا أنني لست معه فيما ذهب إليه في هذا الموضع ، وقد تتبعت أقوال المفسرين فوجدت أن معظمهم كان يقول برعاية الفواصل في هذا الموضع ، وهذا مما لا شك فيه ، فقد قامت سورة (طه) في معظمها على روي واحد من أولها إلى آخرها ، وهو حرف (الألف) ، وإذا نظرنا إلى سورة (الأعراف) جاءت في قصة موسى – عليه السلام – على وتيرة واحدة غالباً ، فتناسب تقديم وتأخير موسى – عليه السلام – في كلا الموضعين .

ومن الأقوال التي جمعت خلاصة معظم أقوال المفسرين في هذا الموضع قول البيضاوي : "قُدِّم هارون لكبر سنه، أو لروي الآية، أو لأن فرعون ربَّى موسى في صغرهِ فلو اقتُصر على موسى أو قُدِّم ذِكْرُه لربما تُوُهِّم أن المراد فرعونُ وذِكْرُ هارون على الاستتباع" (٢) .

وفي سياق حديث القرآن عن الحوار الذي دار بين موسى – عليه السلام – وفرعون في بداية الرسالة ، ومحاولة فرعون تجاهله من خلال تشتيت الأذهان عندما حوَّل فرعون مسار الحوار إلى قومه ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾ ﴾(٣). إذا بالسياق يحكي كلام موسى – عليه السلام – ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٤) ، وإذا أمعنا النظر في فواصل الآيات نلحظ أن ﴿ إِن كُنتُمۡ

(١) إعجاز القرآن ، للقاضي أبي بكر الباقلاني ، دراسة وتحقيق وتعليق : أ.د : محمود محمد مزروعة ، دار كنوز المعرفة ، ط : ١ ص١٣٥ ، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م .

(٢) تفسير البيضاوي ٣٩٧/٢ .

(٣) سورة الشعراء : الآية ٢٧ .

(٤) سورة الشعراء : الآية ٢٨ .

﴿ تَعْقِلُونَ ﴾ جاءت "مقابلَ قولِ فرعون : (إن رسولكم لمجنون) ؛ لأن الجنون يقابله العقل فكأن موسى – عليه السلام- يقول لهم قولاً ليناً ابتداءً ، فلما رأى منهم المكابرة ووصفوه بالجنون خاشنهم في القول ، وعارض قول فرعون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ ، فقال : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ " [1] .

وتأتي الفاصلة في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [2] ، لتتناسب مع الجو العام للسورة، وتتناسق مع التعبير وغرض هذه الحلقة ، فجاءت (المرسلين) .

يقول سيد قطب : "حرف الفاصلة في السورة هو الميم أو النون وقبلها مد . فقوله : ﴿ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ يتمشى موسيقياً مع الإيقاع السائد في السورة . بعكس ما لو قيل : وجعلني رسولاً . ولكنه مع هذا يؤدي معنى مقصوداً ، وهو أنه واحد من كثير وأن الأمر ليس بفذ ولا عجيب . وهكذا يجتمع التناسق الفني والديني في التعبير"[3].

وإذا أمعنا النظر في قصة موسى – عليه السلام – الواردة في سورة القصص نلحظ أن غالبية الفواصل جاءت بصيغة (الجمع) . يحذرون/ المرسلين/ لا يشعرون/ ناصحون/ ... الخ ، باستثناء عدد قليل من الفواصل التي جاءت متفرقة في القصة ، وهذا النمط الإيقاعي الجمعي جاء متسقاً مع القصة نفسها ، وذلك من خلال لفت القارئ والسامع بأن أعداء موسى – عليه السلام – يتصفون منذ بداية القصة بصفة قد افتقدها موسى – عليه السلام – وهي صفة اجتماعهم على حرب موسى – عليه السلام – ، كما جاء ذلك في اجتماع فرعون وهامان وجنودهما لصدِّ الناس عن

(١) التحرير والتنوير ١٢١/١٩.

(٢) سورة الشعراء : الآية ٢٠ – ٢١ .

(٣) في ظلال القرآن ٢٥٩١/٥ (في الهامش) .

دعوة موسى – عليه السلام- ﴿ ...إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [1] .

ولقد عُنِيَ القرآن أشد العناية **بالإيقاع** والترنيم المحبب للنفوس ، ومن مظاهر العناية أن "يُعْدَل في التعبير عن الصورة القياسية للكلمة إلى صورة خاصة" [2] .

وإذا ذهبنا نتلمس هذه الظاهرة في قصة موسى – عليه السلام – نجد ذلك في حلقة الرحلة التي قام بها موسى – عليه السلام – مع غلامه من أجل أن يلتقي بالخضر وبعد أن فقدوا الحوت قال له مُوسى – عليه السلام - : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [3] .

يقول سيد قطب : "فلو مددت ياء نبغي كما هو القياس لاختلّ الوزن نوعاً من الاختلال" [4] .وثمة أمر آخر ظهر لي من خلال عناية القرآن بالإيقاع ، وهو أنَّ السياق عدل عن القياس من أجل أن يصور لنا عدول موسى – عليه السلام – عن طريقه ، ورجوعه إلى مكان فقدان (الحوت) الذي هو علامة على مكان ذلك العبد الصالح ؛ حيث كان خروجه من أجل ملاقاته فلما رجع موسى – عليه السلام – كان اللقاء . فتأمّل هذه الدقة التي حظي بها القرآن لتأتي المعجزة بأكمل صورة ، وأروع بيان .

ومن السور التي جاء ذكر قصة موسى – عليه السلام – فيها بارزاً سورة (طه) ، وإذا نظرنا إلى الإيقاع المصاحب لها وجدناه يتلاءم مع الجو العام للسورة وخاصة ما يتعلق بحلقة الرعاية أي : رعاية الله لموسى – عليه السلام – وحين تقرأ القصة في سورة (طه) تلحظ السكينة تحيط بك من كل جانب ، وهذا الصوت

(١) سورة القصص : الآية ٨ .
(٢) التصوير الفني في القرآن ص١٠٤ .
(٣) سورة الكهف : الآية ٦٤ .
(٤) التصوير الفني في القرآن ص١٠٦ .

الرحيم يجعلك تتصور ما ورد فيها من حلقات قبل قصِّها ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ ﴾ [١] .

فالقصة من أولها إلى آخرها جاء الإيقاع "يستطرد في مثل هذا الجو من مطلعها إلى خاتمتها رخياً ، شجياً ، ندياً بذلك المد الذاهب مع الألف المقصورة في القافية كلها تقريبا" [٢] .

والذي دفع السياق إلى ذلك الإيقاع هو مقصد السورة ذاتها ، وهي تسلية قلب النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – ، ولا يصلح لمثل هذا الغرض إلاّ ذلك الإيقاع الشجي ، الندي ، لذلك أعقب هذا البيان بقصة نبي الله موسى – عليه السلام – ، وذلك لما بين موسى ومحمد – عليهما السلام – من نقاط اتفاق شملت الأحداث والأقوام ، والظروف ، فكان هذا من باب التثبيت له ، ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [٣] .

وصورة أخرى توحي باجتماع القوم ، وتآمرهم على قتله ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [٤] ، مما يوحي بأن الأطراف المتنازعة غير متكافئة ، وبالتالي يعطينا هذا الإيقاع الجمعي صورة موسى – عليه السلام – المتصف بصفة (الوحدة) التي طغت على معظم مراحل حياته حتى وهو مع قومه يقول : ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [٥] .

من السور التي وردت مختصرة قصة موسى – عليه السلام – من بدايتها حتى النهاية . ما جاء في سورة النازعات ، ولقد تميزت بسرعة الإيقاع والذي دفعها إلى

---

(١) سورة طه : الآية ٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٣٢٧/٤ .

(٣) سورة هود : الآية ١٢٠ .

(٤) سورة القصص : الآية ٢١ .

(٥) سورة الشعراء : الآية ٦٢ .

ذلك طبيعة السورة ، فقد وردت بآيات قصيرة ، وذلك مما يسهل حفظها ، وجاءت القصة منسجمة مع السورة وهو حقيقة الآخرة [1] ، إلاّ أن الفاصلة تتحول مع بداية عرض قصة موسى – عليه السلام – ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [2] .

يقول سيد قطب : "ثم يهدأ الإيقاع شيئاً ما ، في الجولة القادمة ؛ ليناسب جو القصص وهو يعرض ما كان بين موسى وفرعون" [3] .

وسِرُّ جمال هذا الإيقاع يظهر من خلال انسياب الآيات مع اختلاف فواصلها دون أن يشعر القارئ بذلك الاختلاف .

نخلص إلى أن البناء الإيقاعي على مختلف ألوانه ، وأشكاله ، واختيار ألفاظه ، وإيقاعه جاء من أجل أن يؤدي دوراً يتمثّل في تسخيره لخدمة السياق ، حيث ساعد القارئ والمتأمل على كشف ما خفي من أسرار ، سواءً كانت متعلقة بالأحداث ، أو المواقف ، أو الشخصيات ، تاركاً القارئ يعيش في أجواء القصة من خلال إيقاعاته المختلفة .

*****

(١) ينظر : في ظلال القرآن ٦/٣٨١٤ .

(٢) سورة النازعات : الآية ١٥ .

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٨١٣ .

الفصل الثالث

بلاغة السرد في قصة مُوسى عليه السلام

مفهوم السردية :

كل قصة تشتمل على عناصر عدة كالأحداث ، والشخصيات . يختلف كل (سارد) عن الآخر بإدارة تلك العناصر مما يجعلني أمام طرق مختلفة أمام سرد القصص .

وإذا جئت أحدد مفهوم الفعل (سرد) فإنه "يدل على إحكام الصنعة ، وإتقانها ، وقد وردت الكلمة مصدراً في قوله تعالى : ﴿ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ ﴾ [1] ، وقد استعيرت الكلمة للدلالة على حسن صياغة الحدث القصصي ، وإتقان سبك عناصره ، بحيث يكون محكم البناء ، متماسك الأجزاء ، ويشكل (وحدة فنيـة) لعالم المتخيَّل السردي" [2] .

مصطلح السرد في المعاجم العربية :

وردت كلمة (سرد) في المعاجم العربية وهي تدور حول : "تقدمة شيء إلى شيءٍ تأتي به متسقاً بعضه في إثر بعض متتابعاً . سرد الحديث ونَحْوَه يسرده سرداً إذا تابعه ، وفلان يسرد الحديث سرداً إذا كان جيّد السياق له ، وفي صفة كلامه ، صلى الله عليه وسلم : لم يكن يَسْرُدُ الحديث كسردكم... أي : يتابعه ، ويستعجل فيه ، وسرد القرآن : تابع قراءته ..." [3] .

وإذا كانت هذا حقيقة السرد فإن القصة بشكلٍ عام ، وقصص القرآن بشكلٍ خاص تمر عبر القناة التالية :

(١) سورة سبأ : الآية ١١ .

(٢) القصة بين التراث والمعاصرة ، ص٢١٨ بتصرف .

(٣) لسان العرب، مادة (سرد) ٢٣٣/٦ وقد ورد الحديث في : مختصر صحيح مسلم ص ٤٥٦ .

(٤) بنية النص السردي ، د. حميد لحميداني. المركز الثقافي العربي ، بيروت، ط : ١ ، ص٤٥ ، ١٩٩١م .

فالقصة تتخذ شكلاً معيناً عبر تلك القناة التي تمر بها .

إذن نحن أمام قصة تجمع أحداثاً مختلفة ، والراوي يعرض تلك الأحداث بطريقة معينة ، وهذا يسمى سرداً "ذلك أن قصة واحدة يمكن أن تحكى بطرق متعددة ولهذا السبب فإن السرد هو الذي يُعْتمَدُ عليه في تميز أنماط الحكي بشكلٍ أساسي" [(١)].

السرد القرآني :

عرفنا فيما سبق أن القصة تمر عبر قناة معينة تضم الراوي ، والقصة ، والمروى له ، والسرد القرآني ليس بمعزل عن هذا كله ، فالراوي تجاوزاً (الله) – عزَّ وجل – ، وقد سجَّل القرآن قصصاً عدة ، ومنها القصة التي نحن بصدد الحديث عنها قصة موسى – عليه السلام – ، والمُسْتَقبِلُ لهذه القصص هم محمد – صلى الله عليه وسلم – ، وأمته .

وقبل الدخول لبيان سردية القرآن لا بد أن نبين الآتي [(٢)] :

١- الراوي تجاوزاً الله – عزَّ وجل – لا يلجأ إلى الخيال ، ولا يعتمد على كلمة القص للشروع في السرد ؛ لأنه لا يحتاج إلى تقصي الخبر أو تتبعه ؛ لأنه مطلع عليه بصورة كلية وشاملة من قبل حدوثه ، وأثناء حدوثه ، وبعده ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [(٣)] .

٢- يروي قصصاً حقيقية وواقعية ، تستند على الصدق المحض ، كمعيار تفريقي عن القصص الأخرى غير الصادقة ، ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [(٤)] .

---

(١) بنية النص السردي ص٤٥ .

(٢) ينظر : بنية السرد في القصص القرآني وأثرها في بناء الشخصية ، ص ١٣ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ٧ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ٦٢ .

ولكي نكشف سردية القرآن من خلال قصة موسى – عليه السلام – فإننا سننطلق من ثلاثة محاور هي :

١- المشاهد ، والمواقف ، والأحداث .

٢- الشخوص ، والنماذج البشرية .

٣- الحوار ، والسرد في القصة .

.....

المبحث الأول
المشاهد ، والمواقف ، والأحداث

المبحث الأول
المشاهد ، والمواقف ، والأحداث

في هذا المبحث سأدرس بنية الحدث في قصة موسى – عليه السلام – من خلال الاتجاهات الآتية :

أولاً : مرجعية الأحداث في قصة موسى – عليه السلام – ، ووظائفها .

ثانياً : الأحداث بين البساطة ، والتعقيد .

لاحظت من خلال قراءتي لقصة موسى – عليه السلام – أنه يمكنني أن أقسم القصة إلى ثلاث مراحل أساسية ، وهي :

المرحلة الأولى : (الميلاد – البعثة) .

والمرحلة الثانية : (البعثة – هلاك فرعون) .

والمرحلة الثالثة : (هلاك فرعون – موت موسى عليه السلام) .

ثالثاً : بنائية الحدث :

سأدرس في هذه الجزئية اتجاه الزمن في قصة موسى – عليه السلام – لأحدد الشكل الذي اتخذته الأحداث في قصة موسى – عليه السلام – وما إذا كان هذا الشكل متتابعاً تصاعدياً ، أو متتابعاً تراجعياً ، أو متداخلاً . وسنفيد من بعض ما أنجزه البنيويون في حقل الزمن .

.....

أولاً

مرجعية الأحداث في قصة موسى – عليه السلام - ، ووظائفها

يُعدُّ عنصر الحدث في القصص بشكلٍ عام ، وقصص القرآن بشكلٍ خاص عنصراً فعّالاً في سير أحداث القصة ، وهو العنصر المشوّق الذي يدفع القارئ إلى استمراره في القراءة ، وربما عُدّ الحدث العنصر الأهم في السرد القديم ، و"يحمل القارئ على تقليب صفحات القصة ، بلذَّةٍ ، ونهم ؛ لكي يكتشف النهاية التي تبلغها الحوادث في سيرها الحثيث" [(١)] .

وإذا كنت أتكلم عن قصة من قصص القرآن وهي قصة موسى – عليه السلام – فإن أحداثها لا تخرج عن ثلاثة أنواع [(٢)] :

أولاً : نوع من الأحداث الذي يكون نتيجة تدخل القضاء والقدر .

ثانياً : نوع من الأحداث يعتبر من الخوارق ، أو المعجزات .

ثالثاً : نوع يقوم على الأحداث العادية ، أو المألوفة التي وقعت للأبطال .

وبعد استقرائنا لأحداث قصة موسى – عليه السلام – وجدت أن الأنواع الثلاثة موجودة في أحداث القصة .

فقد ظهر عنصر القضاء والقدر من خلال إصرار فرعون وقومه على الكفر بعد أن ظهرت لهم الآيات المؤيدة لرسالته ، وبعد عنادهم تدخل القضاء والقدر فكان مصيرهم الهلاك ، والبوار ، ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ﴾ [(٣)] .

---

(١) فن القصة ص٢٦ .

(٢) ذكر هذه الأنواع محمد أحمد خلف الله في كتابه : (الفن القصصي في القرآن الكريم)، مؤسسة الانتشار العربي ، سينا للنشر ، (د.ط) ، (ب.ت) ، ما بين صفحة (٣١٠-٣١٣) .

(٣) سورة يونس : الآية ٩٠ .

وأما نوع المعجزات والخوارق ، فقد جاء في الآيات المؤيدة للنبي موسى – عليه السلام – كانقلاب العصا حيّة ، وإدخاله يده في جيبه تخرج بيضاء للناظرين ، وانفلاق البحر ، ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [1] .

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [2] .

أما النوع الثالث وهي الأحداث العادية والمألوفة ، فلم تخلُ قصة موسى – عليه السلام – منها ، كإحساسه بالجوع عندما سقى للمرأتين ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [3] .

وكحاجته للدفء الذي يحتاجه أي إنسان بعد أن انتهت مدة الاستئجار ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [4] .

ولا بد من الإشارة إلى أن "تسلسل الأحداث في القصة يخضع للغرض ، أو القصد الذي من أجله نزلت القصة" [5] .

---

(١) سورة القصص : الآية ٣١-٣٢ .

(٢) سورة الشعراء : الآية ٦٣ .

(٣) سورة القصص : الآية ٢٤ .

(٤) سورة القصص : الآية ٢٩ .

(٥) الفن القصصي في القرآن الكريم ص٣١٤ .

يقول محمد أحمد خلف الله : "فإن كان التخويف فإنه يقصد إلى الحادثة ، حيث هي ، ويصورها ؛ لتلقي الرعب في القلوب ، وتبث الخشية في النفوس . أمّا إذا كان تخفيف الضغط العاطفي ، أو تثبيت قلب النبي جعل المحور الذي تدور حوله الأحداث هو الشخص نفسه ، وتصور الحادثة على أنها الحادثة التي وقعت له ، فلم تضعف نفسه ، و لم تهن عزمه" [(١)] .

ولا تخلو هذه الأحداث من تنوع في الأسلوب ، يخدم القصة ، والغرض الذي سيقت من أجله .

أمّا ما يتعلق بأحداث ، ومواقف ، ومشاهد قصة موسى – عليه السلام – فقد وردت في مواطن قرآنية عدة كالتي جاءت في سورة الأعراف ، والكهف ، وطه والشعراء ، والقصص ، والنازعات [(٢)] .

وقد أغنانا عن سرد هذه الأحداث أحد الباحثين في مصر ، ولن أذكرها خشية الإطالة [(٣)] . ولسوف أكتفي بشرح هذه الأحداث ، واستنباط أهم النتائج ذات الصلة الوثيقة بموضوع البحث .

• • • • •

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم ص٣١٤ .

(٢) اقتبست بعض المشاهد من حيث بدايتها وانتهائها من كتاب : (في ظلال القرآن) .

(٣) ينظر : بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم ، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه ، د. محمد مشرف خضر ، إشراف : د. عبدالرحيم محمود زلط ، د. محمد عبدالمطلب ، د. مختار جبلي ، جامعة طنطا بصفحة الانترنت العالمية ص٤٠ .

وحيث وصل إلى أن هناك وظائف في قصة موسى – عليه السلام – جاءت متكررة في السياق كلما تكررت القصة غالباً ، ومنها : الدعوة ، والإرسال ، والتكذيب ، والهلاك ، والإنجاء ...

ثانياً
الأحداث بين البساطة والتعقيد

تحدث النقاد عن مستويين للشخصية في السرد الحديث ، هما : الأحداث السطحية ، والأحداث المعقدة ، وهذان المستويان يصلحان للتعبير عن البنية الحدثية أيضاً ، بحيث يكون الحدث البسيط هو ذاك الحدث الذي يؤدي إلى نتيجة وظيفية محددة ، فلا يشتمل على مفاجآت ، ولا تناقضات ، ويكون الحدث هو الذي يتأسس على النمو والتعقيد ، ويحتاج فيما يحتاج إلى متلقٍ من نوع خاص ، وفي هذه الجزئية سنتناول هذين المستويين انطلاقاً من خريطة الأحداث التي استوعبتها قصة موسى – عليه السلام – مستثمرين ما كنّا عرضناه من مراحلها الثلاث [1] ، وسنحاول أن نميز بين تلك المراحل من حيث الأحداث المعقدة ، والبسيطة في كل مرحلة .

أولاً : الأحداث المعقدة (من الميلاد حتى البعثة) :

– طفولة موسى عليه السلام :

مرّ موسى – عليه السلام – بطفولة معقدة ، أقرب ما تكون إلى الخيال ، لولا أن الله – عزَّ وجل – قد ذكرها في كتابهِ العزيز : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [2] .

تسرد الأحداث حياة طفل ركب أهوال البحر ، وهو ما زال في المهد ، والأمر الذي يصعب تصوره أن الذي باشر إلقاءه هو أقرب الناس إليه (أمه) ، فالعقل البشري لا يمكن أن يتصوّر تلك الحادثة ، فكيف بمن باشرها !! .

---

(١) لمعرفة المراحل من حيث بدايتها وانتهائها يرجع إلى ص ١٩٥ .

(٢) سورة القصص : الآية ٧ .

موسى – عليه السلام – يُلقى في البحر الذي هو مظنة الهلاك ، مما زاد الأمر تعقيداً ، ولكن الذي خلق البحر جعله مركباً للنجاة ، إنها لمفارقة عجيبة ، وفي النهاية تسير الأحداث ، ويتحقق وعد الله ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ .

– الخروج إلى مدين :

أخذت الأحداث تسرد ما حصل لموسى – عليه السلام – وهو في المدينة بعد أن استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾[1] .

فقام موسى – عليه السلام – بضرب القبطي فقتله وهو لم يقصد قتله ، وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنه يدل على القوة ، والشدة التي يمتلكها موسى – عليه السلام – ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾[2] .

هذا الحدث حوَّل حياة موسى – عليه السلام – إلى تعقيد أكثر ، ممّا دفعه إلى مغادرة مصر إلى جهة مجهولة لم يسبقها تخطيط دنيوي (أرضي) ، بل دفعته هذه الأحداث إلى أن يولي وجهه حيث لا يدري !! .

– العودة إلى مصر :

ذهب موسى – عليه السلام – حيث أراد الله ، فولّى وجهه شطر مدين ، ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾[3] . قدَّر الله – عزَّ وجل – أن يرد ماء مدين ، ووجد أناساً يسقون ، وبين القوم امرأتان تريدان أن تسقيا غنمهما ، ولكن لضعفهما لا تستطيعان أن تسقيا مع القوم ، فإذا كوامن

(١) سورة القصص : الآية ١٥ .

(٢) سورة القصص : الآية ٢٦ .

(٣) سورة القصص : الآية ٢٢ .

العطف تتحرك في موسى – عليه السلام – ، فيهب إلى مساعدتهما ، ثم يلجأ إلى الظل لينتهي المشهد في ذلك .

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾[1] .

أقول : إن موسى – عليه السلام – رجل سارت به الأحداث حتى جعلته يهرب من عدو ذي بأس إلى جهة مجهولة ، لم يذق الطعام منذ مدة ، ومع ذلك لم ينسَ مبدأ العطف كل هذه الأحداث تجاذبته ، وأنشأت أحداثاً مُعقدة ، فلا يدرى هل يفكر بالعدو الذي يتربص به ، أم المجهول الذي ينتظره ، أم الجوع الذي يفتت كبده

فلما أُغْلِقَت أمام وجهه السبل فُتِحَ باب الأمل ، فلجأ إلى الله – عزَّ وجل – ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ، و لم يشعر بأن العطف ساقه بإرادة الله – عزَّ وجل – إلى طريق النجاة .

ثانياً : الأحداث البسيطة (من البعثة حتى هلاك فرعون) :

– إرسال موسى – عليه السلام – إلى فرعون :

بعث الله – عزَّ وجل – موسى – عليه السلام – إلى فرعون ، وقد جاء في غير ما موضع آيات عدة تحكي لنا أحداث لقاء التكليف ، وما صحبه من أحداث خارقة للعادة ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[2] .

---

(١) سورة القصص : الآية ٢٤ .

(٢) سورة القصص : الآيات ٣٠ – ٣١ – ٣٢ .

وعلى الرغم من ذلك وجدنا أن الأحداث الآنفة الذكر على غرابتها ، فإن حدث الإرسال المصاحب لها حدث بسيط ، إذا نظرنا إليه من جهة حياة الرسل ، فإرسال موسى – عليه السلام – لم يكن بِدْعَاً من الرسل ، بل شهد هذا الإرسال ، والتكليف غيره من الرسل والأنبياء من قبله كنوح ، وإبراهيم ، ... الخ .

– استكبار فرعون ، وتكذيبه :

أُرسِلَ موسى – عليه السلام – إلى أعتى طاغية في ذلك الوقت ، وموسى – عليه السلام – يعرف أنه سيواجه من تجرأ ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ ﴾[1] ، إذن هناك صراع حقيقي بين الحق ، والباطل ، وإذا كان الأمر كذلك ، فالصراع بين الحق والباطل كان حدثاً بسيطاً ، إذا علمنا أن الصراع بين الحق والباطل صراع خارجي ، تاريخه عريق منذ نزل آدم – عليه السلام – وزوجته حواء إلى الأرض ، ونشأ الصراع بينه وبين إبليس ، فالصراع بين الحق والباطل باقٍ إلى أن تقوم الساعة ، فكل نبي قد واجه الباطل في زمانهِ ، فالحدث حدث بسيط إذا نظرنا إليه من جهة تكراره في الأمم السابقة ، واللاحقة .

– نجاة بني إسرائيل ، وإهلاك فرعون :

لا بدّ لكل صراع من نهاية ، ونهاية الأحداث التي صحبت صراع موسى – عليه السلام– مع فرعون كان انتصار الحق على الباطل بعد أن هلك فرعون ومن معه، ونجى بني إسرائيل ، وهذه النهاية بغض النظر عن طريقة النهاية إلاّ أن الأحداث قد سرت باتجاهها المعتاد ، وهو أن لكل صراع نهاية ، وهذا ما حصل لموسى – عليه السلام – وللأنبياء من قبله ومن بعده .

(١) سورة النازعات : الآية ٢٤ .

ثالثاً : الأحداث المشتركة بين المعقد والبسيط : (هلاك فرعون وموت موسى عليه السلام) :

يُلاحظ الدارس أن هذه المرحلة قد تأسست على أحداث معقدة ، وبسيطة ، ومَرَدُّ ذلك إلى أن الأحداث البسيطة هي بقية ما خلفته المرحلة السابقة من صراع خارجي ، فبقايا فرعون وأتباعه بعد سقوطه – بطبيعة الحال – لم يغتسلوا جيداً من أدران تلك المرحلة ، فظلَّ نوع من الصراع بين فلول الباطل والحق المنتصر ، حصل بموجبه حدث بسيط في مقابلة حدث معقد ، جعلت من موسى – عليه السلام – يشعر بأنه سيواجه أعداء مجهولين .بمعنى : أنه كان في السابق يواجه خصماً محدداً وهو (فرعون) ، أمّا الآن فقد حصل لصورة هذا الخصم نوعٌ من تشتيت الأحداث ، ممّا جعلها تميل نحو التعقيد شيئاً ما .

أما الأحداث البسيطة فأهمها :

– مواجهة موسى – عليه السلام – لانحراف قومه :

سبق وأن أشرنا إلى أن انتصار موسى – عليه السلام – على فرعون أنتج لنا أقواماً لم يزالوا عالقين بأوحال الضلال مما نتج عن ذلك صراع داخلي ، وهذه بطبيعة الحال نتيجة طبيعية [1] ، فلم تكن نجاة بني إسرائيل من الغرق هي خاتمة القصة كما هو معهود ، بل إن نجاتهم كان "بداية لجانب آخر من القصة ، يتكفل بإظهار فساد طبيعة بني إسرائيل ، وانحراف فطرتهم ، وهم الفريق الناجي المفترض فيه الإيمان ، لكن طبيعتهم تمنعهم عن أن يثبتوا على العقيدة الصحيحة ؛ فينحرفوا مرة بعد مرة ، وما يزال الرسول بين ظهرانيهم" [2] .

---

(١) أخذ منها رسولنا الكريم محمد – صلى الله عليه وسلم – دروساً وعبراً ؛ لمقاومة الشرك وأهله بعد أن مَنَّ الله عليه بفتح مكة ، فكانت قصة موسى – عليه السلام – بمثابة النموذج الحي ، الذي استطاع من خلاله نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – أن يقاوم البقية الباقية من المنافقين واليهود في زمانه .

(٢) بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم ، ص٣٨ .

ومسيرة موسى – عليه السلام – مع البقية الباقية من بني إسرائيل أنتج أحداثاً بسيطة على مر الزمان ، مما جعل هناك نوعاً من التراكمية التي أنتجت أحداثاً معقدة .

الأحداث المعقدة ، ومنها :

– حادثة عبادة العجل :

فبعد أن أنجى الله – عزَّ وجل – بني إسرائيل من قبضة فرعون ، وشقَّ لهم البحر ، إذا بموسى – عليه السلام – يرى منهم أمراً لم يتوقعه ، حيث اتخذوا عجلاً معبوداً من دون الله وموسى– عليه السلام – غائب عنهم ، يُكلِّم الله – عزَّ وجل – بعدما كلّف هارون بخلافته ، فما كان من السامري إلاّ أن صنع عجلاً جسداً له خوار ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [1] .

يظهر السرد القرآني من خلال هذه الحادثة انتكاس فطرة بني إسرائيل ، فبعد أن عاينوا الآيات ، وعلامات صدق موسى – عليه السلام – من انقلاب العصا حيّة، واليد التي تخرج بيضاء ، وانفلاق البحر أمام أعينهم ، إذا بهم يشركون !! .

وكان المفترض لمن عاين الآيات التمسك بالعقيدة الصحيحة ، مما خلَّفت هذه الحادثة نوعاً من التعقيد في مسيرة موسى – عليه السلام – مع بني إسرائيل من خلال انحرافهم عن الصراط المستقيم ، وهنا نلحظ أن السرد توقف ، وأخذ يعالج الموضوع بكل جدية من خلال الغضب الذي لحق بموسى – عليه السلام – لما رجع إلى قومه ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [2] . فكيف لا يغضب ، والأمر أمر عقيدة !! ، كيف لا يغضب والأمر أمر كفر وإيمان !! .

---

(١) سورة الأعراف : ١٤٨ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٥٠ .

– التيه :

يحكي القرآن الكريم حادثة التيه التي عاقب الله – عزَّ وجل – بها بني إسرائيل بعد أن رفضوا دخول الأرض المقدسة ، معللين ذلك بأن فيها قوماً جبارين ، مما جعل موسى – عليه السلام – يلجأ إلى الله – عزَّ وجل – مُتضرِّعاً له ، حيث أغلقت الأبواب دونه ، ورأى منهم ما لم يتوقعه ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [1] . فلما رأى منهم الله – عزَّ وجل – هذا التعنت الذي أدى بدوره إلى تعقيد مسيرة الإيمان ، إذا بالله – عزَّ وجل – يوقعهم في التيه ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [2] .

والملاحظ في هذا الموضع من حلقة موسى – عليه السلام – أن العبرة النفسية اجتمعت مع الجمال الفني حيث " يتركهم السياق هنا – في التيه – لا يزيد على ذلك ، وهو موقف تجتمع فيه العبرة النفسية مع الجمال الفني ، على طريقة القرآن في التعبير " [3] .

• • • • • •

(١) سورة المائدة : الآيات ٢١ – ٢٢ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٢٦ .

(٣) في ظلال القرآن ٨٧١/٢ .

ثالثاً
بنائية الحدث

ومن خلال تأملنا لبلاغة السرد في قصة موسى – عليه السلام – وجدنا أن الزمن يأخذ شكلاً متتابعاً ومتصاعداً ، فجاءت وفق التسلسل المنطقي المحكوم بقاعدة (ماذا بعد) ، لكننا نلاحظ أن قصة موسى – عليه السلام – اشتملت على عددٍ من التقنيات التي كسرت الترتيب الزمني ، ومن هذه التقنيات التي ذكرها المعاصرون : الاسترجاع [١] ، والاستباق [٢] .

(١) يقصد بالاسترجاع : "مخالفة سير زمن السرد ، بحيث تقوم هذه المخالفة على عودة الراوي إلى حدثٍ سابق ، مولدة داخل الرواية نوعاً من الحكاية الثانوية" . معجم مصطلحات نقد الرواية ، لطيف الزيتوني ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ط : ١ ، ص١٨ ، ٢٠٠٢م] .
والراوي عندما يسترجع أحداثاً ماضية عبر السرد يفعل ذلك من أجل تنبه القارئ إلى أمر مضى وبالتالي يدفعه ذلك إلى استحضاره ، وجماله عندما تتسق تلك التقنية مع الموضع الذي وردت فيه من مواقف ، وأحداث ، ومشاهد مسرودة .
والراوي عندما يسترجع فإن هذا الاسترجاع قد يكون خارج الحقل السردي أو داخله وإلى هذا يقسم (جنيت) الاسترجاع إلى قسمين : استرجاع خارجي ، واسترجاع داخلي .
وقد ربط (جنيت) الاسترجاع بنقطة البداية ، "فالاسترجاعات الخارجية لمجرد كونها خارجية لا توشك في أي لحظة أن تتداخل مع الحكاية الأولى ؛ لأن وظيفتها الوحيدة هي إكمال الحكاية الأولى عن طريق تنوير القارئ بخصوص هذه السابقة ، أو تلك ، وليس ذلك حال الاسترجاعات الداخلية التي حقلها الزمني متضمن في الحقل الزمني للحكاية الأولى" . [خطاب الحكاية بحث في المنهج ، جيرار جنيت ، ت : محمد معتصم وآخرون ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، ط : ٢ ، ص٦١ ، ١٩٩٧م] . وقد وجد كلا الأمرين في قصة موسى عليه السلام .

(٢) إذا كان الاسترجاع يعني التوقف والرجوع إلى الوراء ، فإن الاستباق على العكس من ذلك ، وإن كانا يشتركان في التوقف ، فإن مع التوقف قفزاً إلى الأمام . ونقصد به : "القفز على فترة ما من زمن القصة ، وتجاوز النقطة التي وصلها الخطاب لاستشراف مستقبل الأحداث ، والتطلُّع إلى ما سيحصل من مستجدات الرواية" .
[بنية الشكل الروائي ، حسن بحراوي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط : ١ ، ص١٣٢ ، ١٩٩٠م] . وكان لهذه التقنية حضور في قصة موسى – عليه السلام – التي كان لها الأثر الأكبر في تشويق القارئ إلى الاستمرار في القراءة ، والذي غالباً ما تبدأ به القصة من سور القرآن ، وهو كسابقه من حيث الاستباقات الخارجية والداخلية ، وارتباطها بالحقل الزمني .

وأخذت قصة موسى – عليه السلام – شكلاً متتابعاً متصاعداً ، وأحداثاً مترابطة ، وهذا التصاعد والتتابع راجع إلى طبيعة الزمن في القصة كما بينا ، إلاّ أنه مع ذلك شاعت مجموعة من التقنيات التي حاولت أن تكسِّر تلك البنية الزمنية كتقنية الاسترجاعات ، والاستباقات ، لكنها في الأخير تعطي رؤية زمنية متصاعدة من نقطة الصفر إلى النهاية .

وقد درس محمد خضر ظواهر الاسترجاع ، والاستباق [1] في قصة موسى – عليه السلام – متعقباً تلك التقنيات في سور القرآن (كالأعراف ، وطه ، والشعراء ، والقصص ..." مما أغنانا عن تكرارها .

وذكر منها على سبيل الاستباق التمهيدي : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [2] .

وفي سورة (طه) أشار إلى الاسترجاع الخارجي في قوله : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ [3] .

ومن بلاغة الاسترجاع في سرد قصة موسى أن يقوي من عزم موسى – عليه السلام – ومن قوة إيمانه ، إذ يُذكِّره الله – عزَّ وجل – بحفظه أيام طفولته ، فكيف لا نحفظك وأنت تدعو إلى توحيدهِ ؟ .

وهذا الاسترجاع قد أعطى موسى – عليه السلام – نوعاً من الدافعية للإقدام على التكاليف إذا عرف أن حفظ الله له كان منذ طفولته المبكرة .

ويبين الجدول التالي تسلسل الأحداث في قصة موسى – عليه السلام – في سورة القصص :

---

(١) ينظر : بلاغة السرد القصصي في القرآن ، ص٩٩ – ١٠٦ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٠٣ .

(٣) سورة طه : الآيات ٣٨ – ٣٩ .

م	الحدث	الآية الدالة عليه
١-	ولادة موسى – عليه السلام – وإرضاعه.	﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الآيات : ٧-١٣] .
٢-	خروج موسى – عليه السلام – بعد حادثة القتل إلى مصر.	﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الآيات : ١٤-٢١] .
٣-	موسى – عليه السلام – يصل إلى مدين.	﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الآيات : ٢٢-٢٨] .
٤-	البعثة وما تبعها من أحداث.	﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الآيات : ٢٩-٣٥] .
٥-	فرعون يجادل موسى – عليه السلام – بعد أن دل السياق على تبليغ موسى رسالة إلى فرعون وقومه.	﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[الآيات : ٣٦-٣٩]
٦-	هلاك فرعون وجنوده.	﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الآيات : ٤٠-٤١] .

هكذا نرى السرد يبدأ من نقطة (الصفر) ، وينتهي بالنهاية التي قدَّرها الله – عزَّ وجل – على فرعون ومن تبعه حيث كان .. (الغرق) .

ونلاحظ من الجدول السابق أن أحداث القصة بدأت بحادثة الولادة ، وانتهت بانتهاء الصراع بين الحق والباطل ، وفق تسلسل زمني ، منطقي ، متصاعد ، على

الرغم من وجود تقنيات جديدة كتقنية الحذف التي كسرت الترتيب الزمني ، إذ لم تذكر الآيات ما حصل بين موسى – عليه السلام – والسحرة إلاَّ أن هذا لم يمنع من تسلسل الأحداث المحكومة بقاعدة (ماذا بعد) .

وبعد أن تعقبنا أحداث قصة موسى – عليه السلام – في القرآن ، وخاصة في المواضع التي جاءت مسرودة تبيّن لنا فيها أمورٌ ، منها :

١- هناك بعض الوظائف ، والأحداث (كالدعوة ، والإرسال ، والتكذيب ، والإهلاك ، والإنجاء) جاءت مُتكررة في السياق كلما تكررت القصة ، كما في سورة الأعراف ، وطه ، والشعراء ، والقصص [١] .

٢- استقلت سورة الكهف بسرد أحداث موسى – عليه السلام – مع الخضر مُنذ بدايتها حتى نهايتها ، بخلاف السور الأخرى التي لم تتطرق لهذه الحادثة ألبتة ، ولعل ورود هذه الحلقة من قصة موسى – عليه السلام – جاء مناسباً لطبيعة السورة نفسها ، أي : سورة الكهف القائمة على مسألة ترك الغيب لله .

يقول سيد قطب : "وهكذا ترتبط – في سياق السورة – قصة موسى – عليه السلام – والعبد الصالح ، بقصة أصحاب الكهف في ترك الغيب لله ، الذي يدبر الأمر بحكمته ، وفق علمه الشامل الذي يقصر عنه البشر ، الواقفون وراء الأستار ، لا يكشف عمّا وراءه من الأسرار إلاّ بمقدار ..." [٢] .

٣- تبين لنا بعد استقراء أحداث قصة موسى – عليه السلام – أن هناك أحداثاً ، ومواقف ، ومشاهد ارتبطت غالباً بالسور المكيّة كالدعوة ، والتكذيب ، والنجاة ، والهلاك كما في سورة الأعراف ، وطه ، والشعراء ، والقصص ، وأحداثاً ، ومواقف ، ومشاهد أخرى ارتبطت بالسور المدنية ، كالحديث عن بني إسرائيل ، وحلقة التيه كما في سورتي البقرة ، والمائدة ، ويعزو بعض الباحثين تلك الظاهرة إلى

(١) ينظر : بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم ، ص٣٨ – ٤٠ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٢٨٢/٤ .

طبيعة ، وخاصية المكي والمدني ، فالمكي الذي غالباً ما يكون حديثه مُنصباً على "معالجة قضايا العقيدة ، وإقامة الدليل ، والدعوة إلى نبذ عبادة الأصنام ، وخلع المعتقدات الفاسدة" (١) .

وهذا ما لمسته في أحداث السور المكية ؛ لذلك جاءت أحداث قصة موسى – عليه السلام – لتعالج تلك القضايا بخلاف السور المدنية التي جاءت بعد استقرار الإسلام ؛ لتقيم الشرائع ، ولتفضح طوائف قد اندست بين المسلمين ، وأخذت من الإسلام غطاءً ساتراً يحميها ؛ لتمارس ما تريده من مخالفات شرعية ، فجاءت السور المدنية "بفضح المنافقين ، ومكائدهم ، وكشف اليهود ، وتعريتهم على حقيقتهم" (٢).

فكان هناك تناسب بين الحدث المسرود ، وحالة المسلمين في ذلك المكان (المدينة) . فالإسلام قد تمكن ، وانتفت معظم صور الوثنية ، ولم يبق إلاَّ تصفية الشارع الإسلامي من براثن اليهود ، وتذكيرهم ما آل إليه أسلافهم ممن كان في زمن موسى – عليه السلام – ، وفضح هؤلاء المندسين الذين يأكلون من خيرات المسلمين وما هم منهم .

٤- بعد تقسيمنا قصة موسى – عليه السلام – ثلاثة أقسام وجدنا أن المرحلة الأولى (الميلاد ، والبعثة) شاعت فيها الأحداث المعقدة التي انعكست على موسى – عليه السلام – ، فبدا متردداً بين الشدة واللين ، وفي المرحلة الثانية (البعثة ، وهلاك فرعون) وجدنا أن الأحداث الشائعة في هذه المرحلة أحداث بسيطة ، ومرد ذلك إلى أن هذه المرحلة قد تأسست على الصراع الخارجي بين أقطاب (الحق والباطل) ، وهو صراع تأسست عليه هذه الحياة ، ولا تختلف في قصة موسى – عليه السلام – عمّا شهدته قصص إخوته من الأنبياء والمرسلين . وفي المرحلة الثالثة (هلاك فرعون ، وموت موسى – عليه السلام) وجدنا أنها تأسست على أحداث مزجت بين المعقدة

(١) المنار في علوم القرآن ، د. محمد علي الحسن ، مطبعة الشرق ، عمان ، ط : ١ ، ص٨١ ، ١٩٨٣م

(٢) المرجع السابق ص٨٢ .

والبسيطة ، ومرد ذلك أن الأحداث البسيطة هي بقية ما خلفته المرحلة الثانية من صراعٍ خارجي فبقايا فرعون وأتباعه بعد سقوطه دخلوا في نسيجٍ قومي ، وبطبيعة الحال لم يغتسلوا جيداً من أدران تلك المرحلة – كما ذكرنا – ، فحصل الصراع بين فلول الباطل المنهزم ، والحق المنتصر، مما أدى إلى حدث بسيط في مقابله حدث معقد، جعل من موسى – عليه السلام – يشعر بأنه سيواجه أعداء ولكنهم مجهولون .

٥- انعكس الزمن المتصاعد المتتابع في قصة موسى – عليه السلام – على الأحداث ، فجاءت وفق تسلسل زمني ، منطقي ، على الرغم من وجود تقنيات كسرت الترتيب الزمني ، إلاّ أنها في الأخير أعطتنا رؤية زمنية متصاعدة من البداية حتى النهاية ، كما وضحنا في الجدول السابق .

*****

المبحث الثاني
الشخوص ، والنماذج البشرية

المبحث الثاني
الشخوص والنماذج البشرية [1]

للشخوص مكانة رفيعة في عالم القصص القرآني ، ولا يخلو كتاب تناول قصص القرآن من عنصر الشخصية ؛ وذلك لما لهذا العنصر من أهمية في اكتشاف العلاقات القائمة ، والأسرار الكامنة بين عناصر القصة ، حتى حدا ببعضهم إلى القول : "كل قصة هي قصة شخصيات " [2] .

وإذا كنا نتحدث عن شخوص قصة موسى – عليه السلام – ، ومدى علاقتها بالسرد ، فإن ذلك لا يتأتى إلاّ بعد معرفة "علاقتها مع نمطية شخصية القصة ؛ ذلك لأن فاعلية السرد لا تضاء إلاَّ من خلال الإيحاءات التي تشي بها الشخصيات ، سواء على مستوى الخطاب ، أم على مستوى الحركة المفعَّلة في القصة" [3] . لذلك لا بد من التعرّف على شخوص قصة موسى – عليه السلام – ، ولكي نصل إلى ذلك هناك عدة وسائل ، منها [4] :

- ما يُخْبِرُ به الراوي .
- ما تُخبِر به الشخصيات ذاتها .
- ما يستنتجه القارئ من أخبار عن طريق سلوك الشخصيات .

---

(١) علم السرد يفرق ما بين (الشخص) ، و(الشخصية) فيجعل الأول دالاً على الشخص الحقيقي (الكائن الإنساني من لحم ودم) وأما الشخصية فتعني في علم السرد الكائن الورقي الذي تصنعه اللغة. نحن – هنا – وقد استخدمت في بحثي الشخوص لأنني أتحدث عن القصة القرآنية ، والتي تنتمي جميع شخوصها إلى عالم الحقيقة ، وليس إلى عالم الورق أو اللغة . ينظر : بنية الشكل الروائي ص ٢١٠

(٢) مقدمة لتحليل الرواية ، رويتر (نقلاً عن طرائق تحليل القصة ، د. الصادق قسومة ، دار الجنوب ، تونس ، ط : ١ ، ص ٩٦ ،٢٠٠٠م .

(٣) بنية السرد في القصص القرآني وأثرها في بناء الشخصية ، ص١٤ .

(٤) ينظر : بنية النص السردي ، ص٥١ .

وأهم من ذلك كله "العلاقات القائمة بين تلك الشخصيات ، والتي تقوم بدور كبير في الكشف عن طبيعة الشخصية السردية" [١] .

وإذا نظرنا إلى قصة موسى – عليه السلام – وجدنا أن الذي يُحرِّكها ، ويدير أحداثها شخصيات إمّا رئيسة تقوم عليها أحداث القصة بشكلٍ كبير ، وإمّا أشخاص ثانوية ، تظهر وتغيب ، وظهورها وغيابها راجع إلى دورها في تطور أحداث القصة .

ومن النماذج الإنسانية التي قدمتها لنا قصة موسى – عليه السلام – ما يلي :

أ - مُوسى عليه السلام :

تظهر شخصية موسى – عليه السلام – من خلال سردها في القرآن أنها شخصية تمثل رمزاً للخير الذي جاء ليحرر بني إسرائيل من رِقِّ العبودية التي تسلَّط بها فرعون عليهم أعواماً عديدة ، وهي شخصية رئيسة ، نامية من بداية القصة حتى نهايتها ، لذا نلمس ارتباطها الوثيق مع جميع الشخصيات سواء الرئيسة منها ، أم الثانوية ، وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن بطل [٢] قصة مُوسى – عليه السلام – في القرآن هو (مُوسى عليه السلام) .

وتبدأ أحداث بطلنا مُوسى – عليه السلام – بداية عجيبة ليست كبداية الأطفال الذين نعموا برعاية أبوية ، حيث أجبرته الظروف مغادرة أمه وهو في نعومة أظفاره ، فأنعم الله عليه برعايته ، حيث أسبغ عليه المحبة التي جعلت كل من ينظر إليه

---

(١) بلاغة السرد القصصي في القرآن ، ص٥٢ .

(٢) ليس مقصدنا من هذه التسمية أن نسوي بين نبي مبعوث ومجتبى ومحروس بعناية الخالق ، وبين شخص ما من البشر ، وظف فنياً ليحوز بطولة بطل في أي منزع نثري ، وإنما غرضنا أن نفهم الدور العظيم الذي يقوم به الرسول في القصة القرآنية . فإطلاقنا للبطل على نبي من الأنبياء لا يعدو أن يكون مجرد تسمية شكلية ، عرضية .
مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية ، دراسة ، د. شارف مزاري ، منشورات اتحاد الكتاب العربي ، دمشق ، ص١٥ ، ٢٠٠١م .

يحبه ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ [1] ، فكانت المحبة بديلاً عن الأمومة التي فقدها جراء الظلم ، والطغيان ، ولما اشتد عوده ، وبلغ أشده "آتاه العلم ، والحكمة ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [2] .

وبعد ذلك يتجلّى أثر هذا العلم وتلك الحكمة فيما يأتي به من أفعال ، أو يجري على لسانه من أقوال ؛ فهو رابط الجأش ، ثابت الجنان ، فصيح في كل حواراته مع ربه" [3] . وتتعاقب الأحداث لتدل على القوة الجسمانية التي يمتلكها موسى – عليه السلام – عندما رأى رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته ، وآخر من عدوه ، ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [4] .

وحاول سيد قطب من خلال تعقبه لشخصية موسى – عليه السلام – أن يؤكد صفة الانفعال ، والعصبية في شخصية موسى – عليه السلام – وهذا ما لمسته من خلال أقواله التي ربطها بمراحل حياته عليه السلام .

ومن أقواله في ذلك : "فلندعه هنا لنلتقي به في فترة ثانية من حياته بعد عشر سنوات ، فلعلّه قد هدأ ، وصار رجلاً هادئ الطبع ، حليم النفس . كلا..." [5] . ثم يقول : "ثم لندعه فترة أخرى ، لنرى ماذا يصنع الزمن في أعصابه" [6] . فهو عنده "نموذج المندفع العصبي المزاج" [7] .

---

(١) سورة طه : الآية ٣٩ .
(٢) سورة القصص : الآية ١٤ .
(٣) بلاغة السرد القصصي في القرآن ، ص٦٢ .
(٤) سورة القصص : الآية ١٥ .
(٥) التصوير الفني في القرآن ص٢٠١ .
(٦) المرجع السابق ، ص ٢٠١ .
(٧) المرجع السابق ، ص٢٠٠ .

ويمكن الرد على مقولات سيد قطب السابقة بقولنا : إن حادثة القتل التي وقعت لموسى – عليه السلام – كانت قبل البعثة ، وهو في هذه المرحلة كأي إنسان يخطئ ويتوب إلى ربه ، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [1] .

أمَّا في مراحلِه التالية من حياته – عليه السلام – فهو نبي معصوم ، لا يليق بنا أن نصف أحداً منهم بمثل هذه الأوصاف ، وكان يجب على سيد قطب أن يفرق بين مراحل حياته – عليه السلام – وإذا قلنا – جدلاً – بما قال به سيد قطب فإن ذلك لا يعدو أن تكون تلك الصفات منحصرة بما قبل البعثة ، أمَّا إلحاقه صفة (العصبية) فيما بعد مرحلة البعثة فلست معه فيما ذهب إليه [2] ؛ لما في ذلك من التعرض لمقام الأنبياء الذين هم صفوة الخلق –لا سيما– أولو العزم من الرسل .

وبعد حادثة الوكز [3] التي أدَّت إلى القتل ، تتجلّى صفة (الترقب) ، فأصبح في المدينة خائفاً يترقب . وهذا التعبير يجعلنا نتصور "هيئة المتفزع ، المتلفت ، المتوقع للشر في كل حركة ..." [4] .

ويخرج موسى – عليه السلام – مُتجهاً إلى حيث أراده الله – عزَّ وجل – إلى مدين ، ومرَّ على أمة من الناس يسقون ، ومن بينهم امرأتان لا تستطيعان السقيا ، وإذا بصفة (العطف) تتحرك داخل هذه الشخصية الكريمة ، ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [5]، يخرج موسى–عليه السلام– من بين هؤلاء الأقوام المتزاحمين على الماء ؛ ليساعد المرأتين مع أنه في أمسِّ الحاجة إلى

(١) سورة القصص : الآية ١٦ .

(٢) أكد سيد قطب صفة (العصبية) لموسى – عليه السلام – في حلقة ذهابه إلى ميعاد ربه . ينظر : التصوير الفني في القرآن ص٢٠٢ .

(٣) **الوكز** : الدفع بأطراف الأصابع ، وقيل : بجمع الكف . الكشاف ٣-٤/٨٧٥ .

(٤) التصوير الفني في القرآن ص٢٠١ .

(٥) سورة القصص : الآية ٢٤ .

المساعدة ، ولكنها أخلاق إرهاصات النبوة التي تجعله يتحلَّى بصفة (المبادرة) ، والمبادرة كما هو معلوم لا يتحلَّى بها إلاّ العظماء أمثال الأنبياء .

ويتابع المشهد تفاصيل الحادثة ليؤكد صفة (الفقر) الذي لحق بهذا النبي الكريم ، ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [1] .

ولما استقر به المقام تحت ظل الشجرة تأتي إحدى المرأتين لتدعوه إلى لقاء أبيها (شعيب) ، بعد أن أخبراه بما صنع لهما ذاك الرجل الغريب ، فأحبَّ شعيب لقاءه بعدما عرف أنه قوي ، وأمين ، ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [2] . وفي طريق ذهابهما إلى بيت شعيب تظهر شخصية موسى – عليه السلام – (العفيف) الذي أمر البنت بالمشي خلفه ؛ لئلا تظهر الرياح شيئاً من جسدها ، فإذا اختلف عليه الطريق أمرها بأن تحذف حصاة ؛ لترشده إلى الطريق الصحيح [3] .

وبعد أن استقر به المقام في بيت شعيب ، وأُجْرِيَ بينهما عقد الإجارة مُقابل نكاح إحدى ابنتي شعيب ، يظهر في السرد خصلة (الوفاء بالعهد) ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [4] ، وهو بهذا يلقي الأمة

(١) سورة القصص : الآية ٢٤ .

(٢) سورة القصص : الآية ٢٦ .

(٣) هذا الخبر جاء عن طريق عمر ، وابن عباس ، وشريح القاضي ، وأبو مالك ، وقتادة ، ومحمد بن إسحاق وغير واحد "... وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال : كوني من ورائي ، فإذا اختلف الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق" .
قصص الأنبياء ، ابن كثير ، تحقيق : أبي الفداء أحمد بن بدر الدين ، المكتبة الإسلامية ، القاهرة ، ط : ١ ، ص٢٤٣ ، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م .

(٤) سورة القصص : الآية ٢٩ .

درساً في الوفاء بالعهود ، وهو في طريق الرجوع إلى مصر بعدما حنَّ إلى موطنهِ الأصلي (مصر) ، ومعه أهله أخذ بطلب الدفء فشاهد ناراً ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [1] .

وإذ بهذه النار تفصح عن حقيقتها ، إنه النور! ، وهنا تأتي صفة (الخوف) [2] بعدما طُلِبَ منه إلقاء العصا ، وإدخال يده في جيبه ، ومع أن موسى – عليه السلام – يحمل بين جنبيه نفساً بشرية نبوية ، إلاّ أن ذلك لم يمنعه من الخوف ؛ لأن "النفس الإنسانية لا تستطيع أن تتخلص من ضعفها ، والغرائز المركوزة فيها ، حتى وإن كانت هذه النفس نبوية ، فالخوف مظهر من مظاهر غريزة البقاء ، وهو حتمي الوجود ، ووجوده فطرة في الإنسان ، ولا يظهر إلاّ بعامل يثيره ، وشأن الخوف شأن النوازع النفسية الأخرى في الإنسان في الدلالة على النفس السوية ذات العقل المميز ، والفطنة المفكرة" [3] .

---

(١) سورة القصص : الآية ٣٠ .

(٢) صفة الخوف صفة طبيعية بشرية ، ويرجع ظهور الخوف على ملامح موسى – عليه السلام – وعدمه غالباً إلى خدمة السياق ، من خلال الدفع بأحداثها إلى الأمام ، وهذا ما لمسته من خلال حبس الخوف وإضماره داخل موسى – عليه السلام – من خلال موقفه مع السحرة ، ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة طه : ٦٧] ، أدى ذلك إلى تصعيد الأحداث بخلاف ظهورها على ملامح موسى – عليه السلام – وقت لقائه بشعيب ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة القصص : ٢٥] ، وهذا الظهور دفع بالأحداث إلى الأمام من خلال انتقال موسى – عليه السلام – من المرحلة التي شابها نوع من الخوف إلى مرحلة الاستقرار .

(٣) بناء الشخصية في القصة القرآنية ، د. مصطفى عليان ، دار البشير ، عمان ، ط : ١ ، ص٤٥ – ٤٦ ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .

وإذا نظرنا إلى الخوف من ناحية أخرى ، نجد أن هذا الخوف "سيتحول إلى طمأنينة شديدة فيما بعد ، وهو يواجه سحرة فرعون لا بشيء غير تلك العصا ، التي رأى من أمرها ما رأى . وثمَّ موقف آخر كان أولى بالخوف ، والهلع ، لكنه كان فيه ثابتاً ، وذلك حين تبعهم فرعون وجنوده ، وأيقن بنو إسرائيل أنهم مدركون ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ " [1] [2] .

ويتجسّد في اللقاء الأول خصال وصفات هذا النبي العظيم (موسى) – عليه السلام – فلما اطمأن وارتاحت نفسه ، وعلم أنه مرسل إلى طاغية قد تجاوز الحد في الطغيان انتهز هذا اللقاء ، وطلب من الله – عزَّ وجل – كل ما يعينه على المواجهة وبكلمات بسيطة استطاع أن يجمع أسلحة عديدة ، فهو "فصيح في كل حواراته مع ربه في التعبير عن أهم متطلبات الدعوة" [3] ، التي تمكنه من إنجاز المهمة ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ ﴾ [4] .

وبعد أن طُلِبَ منه الذهاب إلى فرعون بادر وأسرع إلى أمر قد أشغل باله ، وهو قتل القبطي ، وهنا تظهر صفة "الذكاء ، والفطنة ، بدليل أنه حينما تلقى الأمر بالذهاب لدعوة فرعون ، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [5] ، كيف أدعوهم وأنا قاتل منهم نفساً " [6] .

---

(١) سورة الشعراء : الآيات ٦١ – ٦٢ .

(٢) بلاغة السرد القصصي في القرآن ، ص٦٣ – ٦٤ .

(٣) المرجع السابق ص٦٢ .

(٤) سورة طه : الآية ٢٥ – ٣٢ .

(٥) سورة القصص : الآية ٣٣ .

(٦) الجانب الفني في قصص القرآن الكريم ، ص١١٢ .

وبعد أن ذهب موسى – عليه السلام – للقاء فرعون استخدم موسى – عليه السلام – صفة تتطلبها الدعوة ، ولا بد من أن نستخدمها هنا ، ألا وهي صفة (الاعتزاز) ، حيث قال باعتزاز المؤمن بدينه ، ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [1] ، أهكذا وفي أول لقاء إنها عزة المؤمن !! .

يقول عبدالكريم الخطيب : "وما كان لموسى أن يقول هذه المقولة : يا فرعون! ولا أن يقول بعدها : إني ؟ هذا الضمير المحقق لشخصيته ، والمؤكد لذاتيته : إني .. لا أحد غيري ﴿ رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ ، ولحرف الجر ﴿ مِّن ﴾ هنا ما له من الإشعار بهذا الاعتزاز بتلك الشخصية" [2] .

وبعد أن حقّق الله – عزَّ وجل – لموسى – عليه السلام – النصر على فرعون، والسحرة ، واجتاز ببني إسرائيل البحر ذهب لميقات ربه بعد أن استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون ، وبعد سماعه لكلام ربه ظهرت صفتا (الحب ، والشوق لرؤية ربه). ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [3] ، ولهذا لقِّب موسى – عليه السلام – بـ (كليم الله) .

وبعد عودته – عليه السلام – من لقاءِ ربه ، وجد بني إسرائيل قد أُبتُلوا بعبادة العجل بعد أن صنع لهم السامري عجلاً جسداً له خوار ، فما كان من موسى – عليه السلام – إلاّ أن أسرع ، واندفع بغضبٍ شديد ، ومن شدّة غضبه ألقى الألواح ، ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [4] .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٠٤ .

(٢) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، ص٢٥٦ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٤٣ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٥٠ .

ولّما كان الأمر يتعلّق بالعقيدة ، اتخذ موسى – عليه السلام – إجراءات سريعة لصد تلك الدعوات المغرضة ، فاستخدم القول ، والفعل ؛ لمنع كُل ما فيه خدش للعقيدة ، فكانت شخصية(الغضب) لله هي الأنسب في مثل هذه المواضع .

وفي الأحداث التي جمعت بين موسى – عليه السلام – والخضر نلحظ (نفاد صبر) موسى – عليه السلام – تجاه الأفعال التي قام بها الخضر من خرق للسفينة ، وقتل للغلام ، وإصلاح لجدار أهل القرية بعد أن رفضوا إطعامهم .

حيث جاءت مقولة موسى – عليه السلام – حيال حادثة خرق السفينة : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾ (١)

وقال عن قتل الغلام : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾ (٢) .

وقال بعد حادثة إصلاح الجدار : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾ (٣) .

نعم موسى – عليه السلام – لم يصبر حيال تلك التصرفات التي قام بها الخضر بنص القرآن : ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾ (٤) .

(١) سورة الكهف : الآية ٧١ .
(٢) سورة الكهف : الآية ٧٤ .
(٣) سورة الكهف : الآية ٧٧ .
(٤) سورة الكهف : الآية ٧٨ .

وإذا كانت هذه الأفعال لا يستطيع أن يسكت عن إنكارها الرجل العادي ، فكيف بنبي يوحى إليه . فموسى – عليه السلام – وجد نفسه أمام منكرات في ظاهرها ، تخفي الخير في بواطنها ، وعلى هذا فلا بدَّ من الإسراع في الإنكار ؛ لتخرج بعد ذلك من بين تلك الأحداث الحكمة التي سبقت من أجلها هذه المواقف ، وهي أن الإنسان مهما بلغ من العلم فإن علمه بمقدار القطرة من البحر .

ويبرز في السياق صفة (العجلة) التي جاء ذكرها عند ذهاب موسى – عليه السلام – لملاقاة ربه (المواعدة) ، ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ [1] .

تقدم موسى – عليه السلام – على قومهِ من أجل لقاء ربه ، والعجلة وإن كانت مذمومة إلاّ أنها قد تكون ممدوحة في الدين ، وموسى – عليه السلام – استعجل وسبق قومه شوقاً لسماع كلام الله – عزَّ وجل – ، فكأن الشوق هو الذي يحرك موسى – عليه السلام – الذي سبق وسمع كلام ربه ، وطلباً لرضاه ﴿ وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴾ .

ب- فرعون :

تعتبر شخصية فرعون من أبرز الشخصيات السلبية في قصة موسى – عليه السلام – ، وقلَّما يذكر موسى – عليه السلام – إلاّ ويذكر فرعون ، ويمثل نموذجاً للشر في القصة . وإذا أردنا أن نتلمس شخصيته من خلال السرد نلحظ ما يلي :

تظهر شخصية فرعون من خلال حواراته المتعدّدة ، ولعلّ أبرزها صفة التجاهل من خلال الأسئلة التي يطرحها بين الفينة والأخرى [2] على موسى – عليه السلام –

(١) سورة طه : الآيات ٨٣ – ٨٤ .

(٢) قيل : إن فرعون كان عارفاً بالله – عزَّ وجل – إلاَّ أنه كان يظهر الإنكار تكبراً ، وتجبراً ، وزوراً ، وبهتاناً . ينظر : مفاتيح الغيب ٥٦/٢٢ .

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ [1] ، ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ [2] ، وهو أُسلوب العاجز ، الذي يُحاول التملُّصَ من الحقائق التي إن أقرَّ بها زلزلت أركان عرشه – في نظرهِ – وإلاّ فهي في حقيقة الأمر عِزٌّ ، وشرفٌ ، وتمكينٌ في الأرض .

وإذا استمرت المحاورة مع موسى – عليه السلام – نلحظ الغضب يظهر على فرعون ، ويكتفي بأن "يتهمه بالسحر ، ويتحداه بسحرته" [3] ، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾ [4] .

وأمّا إذا حاولنا أن نبين سبب عزوف فرعون عن الإيمان برب موسى- عليه السلام- أرجعنا ذلك إلى فساد عقله ، وفكره ، وفطرته ، فإن ذا العقل السليم ، والفكر المستنير ، والفطرة السليمة خاصة بعد معاينة المعجزات الحسيّة ، لا مجال لها إلاّ القبول ، "ولذلك فإن الفارق مميز بين فطرة فرعون ، وفطرة السحرة ، فسرعان ما استجاب السحرة لربهم بالإيمان برسالة موسى – عليه السلام – ، بعد أن بدت لهم حقيقة معجزته ، فأزاحت ما غشي أبصارهم من زيف الواقع ، وبطلانه" [5] .

ويبدو أن فرعون مع ما فيه من الصفات السابقة ، إلاَّ أنه يتمتع بدهاء شديد ، يظهر ذلك في بعض مواطن الحوار مع موسى – عليه السلام – ، حيث "إنه لما تيقن من ضعف حجته أمام حجج موسى – عليه السلام – حوَّل مجرى الحوار ، وألقى مهمة المواجهة على كاهل السحرة ، فلم يدخل في مواجهة مباشرة مع موسى – عليه السلام – " [6] .

---

(١) سورة طه : الآية ٤٩ .

(٢) سورة طه : الآية ٥١ .

(٣) بلاغة السرد القصصي في القرآن ، ص٦٥ .

(٤) سورة طه : الآيات ٥٧ – ٥٨ .

(٥) بناء الشخصية في القصة القرآنية ص٧٧ .

(٦) جماليات التلقي في السرد القرآني ، د. يادكار لطيف الشهرزوري ، دار الزمان ، دمشق ، ط١ ، ص١٣٣ ، ٢٠١٠م .

هكذا يفعل أعداء الله عندما تعجز ألسنتهم عن مواجهة الحق ، فلا سلاح لهم إلاَّ المكر ، والخداع وبهذه الطريقة الدنيئة يبرز لنا السرد صفة تراكمية لفرعون ، وهي اعتماده [1] المفرط على الملأ من قومه كلما ضاقت به السبل .

ومما جاء من ذلك : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [2] .

ومع اعتماده على الملأ من قومه ، إلاَّ أنهم لم يسلموا من سخريته لهم ، جاء ذلك في حلقة التماس إله موسى – عليه السلام – ، والبحث عنه : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [3] .

وهكذا شخصية فرعون "شخصية متباينة ، متناقض سلوكه مع نفسيته ، قوياً في ظاهرهِ ، ضعيفاً في باطنهِ ، أيقن الصدق ، وخادع قومه ، سلَّم قياده لغرائزه ، ومدركاته الحسية ، فكان من الغاوين" [4] .

ج- هارون عليه السلام :

شخصية هارون – عليه السلام – شخصية ملازمة لموسى – عليه السلام – منذ انطلقت الرسالة بعد أن طلب موسى – عليه السلام – من ربه أن يجعل له وزيراً من أهله ، ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ ﴾ [5] ، فكان الرجل المناسب في المكان المناسب ، رجل فصيح ، ﴿ وَأَخِى

(١) أشار إلى هذه الصفة : د. محمد خضر ، بلاغة السرد ص٦٥ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٢٧ .

(٣) سورة القصص : الآية ٣٨ .

(٤) بناء الشخصية في القصة القرآنية ص٨٠ .

(٥) سورة طه : الآيات ٢٩ – ٣٢ .

هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [1] ، يتمتع بخصال ساعدت على نجاح الدعوة الإيمانية ، ظهرت شخصيته في مواطن عدة من القصة ، وخاصة حادثة عبادة العجل ، فقد قابلها بهدوء ، وعقل راجح بعدما أخذ موسى – عليه السلام – بمعاتبته ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [2] .

وإلى جانب ما سبق نلمح أن شخصية هارون – عليه السلام – تتمتع بمبدأ الأخوة الصادقة ، التي لا يمكن أن يتخلى عن أخيه وصديقه ولو في أحلك الظروف ، ها هو مع موسى – عليه السلام – أمام فرعون ، وهاهو يلتزم أمر موسى – عليه السلام – عندما أخلفه على قومه ، مما جعله يتمتع بخصال تؤهله لأن يكون عضد موسى – عليه السلام – في رحلته الدعوية .

د- السحرة :

يظهر السحرة في السرد أنهم أصحاب مبدأ ، وأصحاب ثقة ، وأصحاب فطر سليمة ، ففي المرحلة التي سبقت بزوغ نور الحق عليهم وبعد العقد الذي أبرموه مع فرعون من أجل إخماد الحق ، وعند مشهد المباراة ، تظهر ثقتهم بسحرهم ، ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾ [3] . ولما تبين لهم الحق لم يراوغوا ، ولم يمانعوا كما فعل فرعون ، بل استجابوا لله رب العالمين ، ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ [4] ؛ وهنا تتجسد فطرهم السليمة من خلال أقوالهم ، وأفعالهم .

---

(١) سورة القصص : الآية ٣٤ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٥٠ .

(٣) سورة طه : الآية ٦٥ .

(٤) سورة طه : الآيات ٧٢ – ٧٣ .

هـ- بنو إسرائيل :

على الرغم من أن الله – عزَّ وجل – نجاهم من فرعون وظلمه ، ومنَّ عليهم بالإيمان ، واتباع موسى – عليه السلام – ، إلاَّ أن هذا لم يمنعهم من الارتداد على أعقابهم ، فقد أظهر السرد القرآني نفسياتهم الخاوية ، الانهزامية ، ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩ ﴾ [1] . والعجيب في أمرهم أنهم عاينوا الآيات الحسية التي جاء بها موسى – عليه السلام – ، من انفلاق البحر أمام أعينهم بعد أن قالوا : ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢ ﴾ [2] .

ومع ذلك جاءت أحداث بعدها تدل على قِلّة عقولهم [3] ، وجهلهم المتراكم فصار من السهل إضلالهم ، ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨ ﴾ [4] .

ونظراً لكثرة انتكاساتهم ، وترددهم ، جعل موسى – عليه السلام – يشك في دخولهم الأرض المقدسة ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ ﴾ [5] .

ويُجمل سيد قطب صفاتهم بقوله : "ولكن إسرائيل ، هي إسرائيل !!! الجبن ، والتمحل ، والنكوص على الأعقاب ، ونقض الميثاق" [6] .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٢٩ .

(٢) سورة الشعراء : الآيات ٦١ – ٦٢ .

(٣) أشار إلى هذه الصفة . محمد خضر ، بلاغة السرد ص٦٦ بتصرف .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٤٨ .

(٥) سورة المائدة : الآية ٢١ .

(٦) في ظلال القرآن ٨٧٠/٢ . قد يلتبس على القارئ الكريم أن هذه الصفات للنبي إسرائيل – عليه السلام – ؛ ولكن الصحيح هي صفات بني إسرائيل ، ونظراً لأنها جاءت في المرجع هكذا اضطررت إلى نقلها حرفياً مع التنبيه لذلك.

و- آل فرعون :

"شخصيات خفية ، نفثت سموم أفكارها في أذن فرعون ، فتقوده إلى هلاكه ، ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [1] ، يرددون كلام المترفين في كل عصر لينهوا الموقف في سرعة ، ودون جدال كثير ، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [2] ، وهم فوق ذلك حانثون في وعودهم ، ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [3] [4] " .

ز- مؤمن آل فرعون :

أمّا شخصية مؤمن آل فرعون ، فالملاحظ فيها أنها تظهر حيناً ، وتختفي أحياناً تبعاً لحاجة القصة ، حيث تقمص شخصية الناصح المحذر لموسى – عليه السلام – مما دفعه إلى مغادرة مصر ، ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [5] ، ونظراً لتحركاته المتعددة نستطيع أن نطلق عليه (البطل المجهول) [6] في القصة .

وقد كان لحواره المتميز النصيب الأكبر في نجاحاته المتعددة من خلال حواره مع قومه ، وتقديم نداء (يا قوم) في كثير من حواراته ؛ ليشعرهم أنه واحد منهم ،

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٢٧ .

(٢) سورة القصص : الآية ٣٦ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٣٥ .

(٤) بلاغة السرد القصصي في القرآن ، ص٦٦ .

(٥) سورة القصص : الآية ٢٠ .

(٦) ينظر : الإعجاز القصصي في القرآن ص١٠١ .

وأنه يريد مصلحتهم ، وبراعته في الحوار أبعد الشك عن فرعون أنَّ فيه ميلاً إلى موسى – عليه السلام – ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [1] .

وإذا أجملنا صفات مؤمن آل فرعون نجد أنه مدرسة للدعاة، الذي عرف الحق. ولم يكتفِ بالمعرفة ، والصمت ، والمشاهدة ، بل سارع إلى إنقاذ قومه من براثن الوثنية .

ح- شعيب [2] :

أمّا شعيب فالسرد يظهره لنا شيخاً طاعناً في السن ، لا يقدر على القيام بشؤون البيت الضرورية ؛ وذلك لكبره ، مما جعله يأمر ابنتيه بسقي الأنعام ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [3] .

ولما طلب من إحدى ابنتيه دعوته ليجازيه على صنيعه ، وبعد أن استمع إلى قصة موسى – عليه السلام – واستشعر الخوف الذي أثقل كاهل موسى – عليه السلام – ، ونظراً لحكمته ، وحنكته ، سارع وبادر إلى طمأنة موسى – عليه السلام

---

(١) سورة غافر : الآية ٢٨ .

(٢) روى ابن كثير أنهم اختلفوا في هذا الشيخ من هو ؟ فقيل : هو شعيب – عليه السلام – ، وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وممن نص عليه الحسن البصري ، ومالك بن أنس ، وجاء مُصرَّحاً به في حديث . ولكن في إسناده نظر ، وصرّح طائفة بأن شعيب – عليه السلام – عاش عمراً طويلاً بعد هلاك قومه ، حتى أدركه موسى – عليه السلام – ، وتزوج بابنته .
وقيل : إن صاحب موسى – عليه السلام – اسمه شعيب ، وكان سيد الماء ... الخ .
قصص الأنبياء ص٢٤٢ .

(٣) سورة القصص : الآية ٢٣ .

– ؛ لأنه عرف أن موسى – عليه السلام – يحتاج إلى استقرار ، واطمئنان ، فبادر قائلاً : ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١) .

وبعد أن استقرت حال موسى – عليه السلام –ونظراً لفراسة الشيخ ، وبُعْد نظره طلب من موسى – عليه السلام – أن يتزوج إحدى ابنتيه ؛ لأنه عرف أنه رجل يستحق المصاهرة ؛ لما يحمله من صفات تؤهله أن يكون زوجاً مثالياً ، ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢) .

وختم حواره مع موسى – عليه السلام – بإضفاء الرحمة ، والشفقة عليه ؛ ليزيد من طَمْأَنتهِ طُمَأْنِيْنَة . فكان هذا اللقاء بمثابة نقلة نوعية لحياة موسى – عليه السلام – تُنبئ عن حياة هادئة ، مستقرة ، تمهيداً لرحلة جديدة من حياته ألا وهي (الرسالة) .

ط- الرعـاة :

بعد أن وصل موسى– عليه السلام – إلى مدين ، وبالتحديد عند وروده الماء. تظهر هناك شخصيات الرعاة من خلال موقفهم من المرأتين المتمثل بعدم مراعاة ضعفهما ، وأنَّ غالبهم يتصفون بصفات كثيرة ، أظهرها (الأنانية) ، ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة القصص : الآية ٢٥ .

(٢) سورة القصص : الآية ٢٧ .

(٣) سورة القصص : الآية ٢٣ .

والذي دفعنا إلى هذا الحكم أنهم (أُمَّة) ، أي : جماعة فلم يتحرك واحد منهم لمساعدة المرأتين ، مما جعلنا أمام خصلة ، جاهلية ، ذميمة دفعت موسى – عليه السلام– إلى نبذها من خلال الوقوف مع المرأتين رغم ما به من ألم ، وخوف، وجوع .

ي - أُم مُوسى عليه السلام :

من الطبيعي أن تكون شخصية المرأة شخصية تتصف بالحنان ، والعطف ، ولكن من غير الطبيعي أن تقوم امرأة بإلقاء طفلها في النهر ، إلاَّ أن تكون هذه المرأة فيها من الصفات ما يؤهلها إلى تقبل هذا الامتحان الرهيب .

وهذا ما حصل فعلاً لأم موسى– عليه السلام – حيث بدأ الخوف يدب إلى نفسها ، وقتئذ أمر فرعون بقتل الأطفال سنة ، وتركهم سنة ، إثر الرؤيا التي رآها ، والتي زاد من قلقها أن ولادة طفلها سيكون في العام الذي يُقْتَلُ فيه الأطفال الذكور، ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾[1] ، ففعلت ما أمرها الله – عزَّ وجل – ، مما يدل على اليقين ، والتوكل الذي ملأ قلبها ، فكيف يعقل بامرأة تلقي فلذة كبدها في البحر الذي هو مظِّنَة الهلاك ، ولكن في حقيقة الأمر صار البحر سفينة النجاة .

ولكنها حينما استشعرت عظمة الله – تعالى– برزت عندها شخصية المرأة المؤمنة فتوكلت على الله ، وأقدمت على ما أمرت به . ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ .

ك - امرأة فرعون :

تلعب امرأة فرعون دوراً ثانوياً في القصة ، وتبدأ رحلتها مع موسى – عليه السلام – مُنذ طفولته ، بعد أن حطّ التابوت رحله على شواطئ قصر فرعون ، فما

(١) سورة القصص : الآية ٧ .

إن نظرت إليه إلاّ وأحبته ، فتحقق بذلك وعد الله ، ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾[1] .

ولما كانت المرأة في أصل خلقتها تتمتع بالعطف، والحنان ، وامرأة فرعون من جملة النساء ، جاءت شخصيتها لتقدم الدور المناسب في حياة موسى – عليه السلام – الذي ما إن رأى النور حتى فقد أمه الحنون ، وسارت الأحداث حتى عوضه الله – عزَّ وجل – عن أمه بامرأة فرعون ، فغمرته بالرعاية ، والحنان الذي فقده .

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2] .

يقول سيد قطب : "لقد حمته بالمحبة ، ذلك الستار الرقيق الشفيف ، لا بالسلاح ، ولا بالجاه ، ولا بالمال . حمته بالحب الحاني في قلب امرأة . وتحدّت به قسوة فرعون ، وغلظته ، وحرصه ، وحذره ، وهان فرعون على الله أن يحمي منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف!" [3] .

ل- أخت مُوسى عليه السلام :

يظهر لنا السرد القرآني شخصية أخت موسى – عليه السلام – في حلقة الميلاد ، فكانت بمثابة حلقة الوصل بين موسى – عليه السلام – وأمه ، حيث كانت بارعة في التحري ، والتخفي ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾[4] .

---

(١) سورة طه : الآية ٣٩ .

(٢) سورة القصص : الآية ٩ .

(٣) في ظلال القرآن ٢٦٧٩/٥ .

(٤) سورة القصص : الآية ١١ .

حيث كان لشخصيتها الدور الأكبر في إتمام عملية وصول موسى – عليه السلام – إلى أمه وهم لا يشعرون ، أن لها علاقة بالوليد ، أو أنهم لا يشعرون أثناء طلب المراضع أنها تنظر إليهم ، وعلى كلا الأمرين فقد نجحت في تحقيق المهمة المكلفة بها .

م- ابنتا شعيب :

كان لقاء موسى – عليه السلام – بابنتي شعيب نقطة تحول في حياة موسى – عليه السلام – شملت جوانب عدة من حياته ، وكان اللقاء عندما ورد ماء مدين وسألهما موسى – عليه السلام – عن سبب عدم ورودهما الماء ، ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [1] . وبعد أن سقى لهما وذهبتا إلى أبيهما ، وأخبراه الخبر ، ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [2] .

وهنا تتجسّد لنا شخصية تلك المرأة تمشي على استحياء ، فالمرأة الطاهرة العفيفة عندما تقبل على الرجال تمشي مشياً لا تغنج ، ولا تبذل ، ولا سفور فيه ، ومع هذه الخصلة الحميدة (الحياء) نلحظ " الإبانة ، والدقة ، والوضوح" [3] .

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [4] .

---

(١) سورة القصص : الآية ٢٣ .

(٢) سورة القصص : الآية ٢٥ .

(٣) الإعجاز القصصي في القرآن ص١٠٦ .

(٤) سورة القصص : الآية ٢٥ .

فقد أبانت عن ماهية الدعوة خوفاً من أن يتسلل الشك إلى نفس موسى – عليه السلام – ، فالدعوة مقدمة من الأب .

وعندما حصل اللقاء بين موسى – عليه السلام – ، والأب شعيب ، واستحسن شعيب أخلاق موسى – عليه السلام – دعَّمت هذا الاستحسان بأدلة تقطع التردد عن أبيها إن كان هناك ثَمَّة تردد ، ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [1] ، فلم يمنعها حياؤها السابق من إبداء الرأي التي تتمتع بها تلك المرأة العفيفة .

ولعلّنا بعد استعراض تلك الشخصيات سواء الأساسية منها ، أم الثانوية يمكن أن نخلص إلى التالي :

١- "لما كان قصص القرآن يخضع تماماً للمقصد الديني ، فإننا نرى في كثيرٍ منه أن عنصر الشخصية يكاد يختفي تماماً ، ويبرز عنصر الحدث" [2] . وهذا ما لمسته من خلال تعقبنا لقصة موسى – عليه السلام – ، فقد لاحظت أن الأسماء تكاد تكون معدومة ، وإنما سيقت الشخصيات ؛ لتنهض بهذه الأحداث ، وأعطيت من الأحوال ما يجعلها قادرة على النهوض بالأفعال (الأحداث) .

٢- ظهرت الشخصيات النسائية في قصة موسى – عليه السلام – ظهوراً مبكراً ؛ وذلك راجع إلى طبيعة القصة نفسها ، والظروف التي عاشها البطل موسى – عليه السلام – ، وهذه الظروف تتطلب حضور العنصر النسائي الذي قام بأدوار لا يمكن أن يقوم الرجل بمثلها ، وهذا دليل على أن للمرأة مواقف مؤثرة ، وجوهرية في جريان أحداث القصص – لا سيما – إذا كانت القصة تتعلق بشخصية نبي كريم مبعوث لبني إسرائيل .

---

(١) سورة القصص : الآية ٢٦ .

(٢) منهج القصة في القرآن ، محمد شديد ، مكتبات عكاظ ، جدة ، ط١ ، ص٧٧ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

٣- لم تحفل الشخصية في قصة موسى – عليه السلام – بالصفات الجسدية ، ولم نلحظ تلك الصفات الجسدية إلاّ نزراً يسيراً يكاد يكون معدوماً ، كما جاء في وصف موسى – عليه السلام – بالقوة ، ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [1] ، حتى إن هذه القوة "لم يمتدحها بإطلاق ، بل رُدِفَت بالأمانة ضابطاً لها" [2] . وإني لأعزو تلك الظاهرة إلى المنهج الذي التزمه القرآن في سائر قصصه ، من حيث التركيز على ما يمكن أن يحقق في ذواتنا الخير والصلاح كالعفة ، والعطف ، والوفاء بالعهد ... ولأن مبدأ الثواب والعقاب راجع إلى ما تتصف به تلك النفس البشرية من صفات معنوية ، بخلاف الصفات الجسدية التي لا يترتب عليها شيء من ذلك .

٤- سارت الشخصيات الرئيسة عبر خطوط متباينة ، كشفها لنا السرد القرآني من خلال الأدوار المهمة التي قامت بها تلك الشخصيات الرئيسة كشخصية موسى – عليه السلام – ، وفرعون ، ومع أهمية هذه الأدوار إلاَّ أنني لاحظت أن الشخصية التي تمثل الحق جاءت بارزة ، واضحة المعالم والأهداف من خلال أقوالها، وأفعالها، كشخصية موسى– عليه السلام– ، بينما الشخصية التي تمثل الشر جاءت غامضة ، متباينة ، مضطربة كاضطراب الباطل ، كما جاء ذلك في شخصية فرعون .

*****

(١) سورة القصص : الآية ٢٦ .

(٢) بناء الشخصية في القصة القرآنية ص١٩ بتصرف .

المبحث الثالث
الحوار والسرد في القصة

الحوار ، والسرد في القصة [١]

يشكل الحوار والسرد معاً الهيكلَ العامَّ للقصة بحيث يُقَدِّمُ السردُ الأفعال والأحوال ، ويُقَدِّمُ الحوار الأقوال فهو كما "الروح الذي يسري في كيان العمل القصصي ، وبغير الحوار يتحول هـذا العمل إلى كتلـة باردة متحجـرة من الكلمات !" [٢] .

والحوار أداة من أدوات الإقناع الذي يتخذه أطرافه ؛ لإبداء آرائهم ، وتوضيح أفكارهم ، فمن خلاله تتحرك الشخصيات ، وتتلون ، وتتباين مواقفها ، وتنكشف أسرارها ، وتتحدد معالمها .

والحوار في القرآن "يخاطب الكائن البشري كله : عقله ، وضميره ، ووجدانه يحرك الفكر والخيال ، ويلمس الحس والبصيرة ، ويثير الانفعال والشعور ، فيستغل في الإنسان كل طاقاته ومواهبه ، وينفذ إلى صميمه من كل منافذه ، ويؤثر فيه بكل المؤثرات" [٣] .

وتتراوح جمل الحوار ما بين طول ، وقصر ، وإيجاز ، وإطناب ، وكل ذلك راجع إلى طبيعة السورة ، أو سعي الشخصية إلى إقرار فكرة ما ، أو غير ذلك من الدواعي والأسباب .

ونظراً لتكرار قصة موسى – عليه السلام – في القرآن ، فقد تعددت أشكاله الحوارية ، وهذا التعدد خاضع لطبيعة السياق الذي يفرض نمطاً دون آخر . وسأحاول جاهداً التعرف على الأنماط التي يتطلبها سياق قصة موسى عليه السلام .

---

(١) الحور : الرجوع ، ومنه : مراجعة النطق ، وتحاوروا : تراجعوا في الكلام بينهم ، القاموس المحيط ٣٨٠- ٣٨١ .

(٢) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، ص١٢٣ .

(٣) منهج القصة في القرآن ، ص١٣ .

أولاً
الحوار الباطني (المُونولوج) [1]

سجَّلت قصة موسى – عليه السلام – بعضاً من الحوارات الباطنية تطلبتها بعض المواقف التي مرّت بها بعض الشخصيات الواردة في القصة ، ومن هذه الحوارات – على سبيل المثال– ما يأتي :

رأينا فيما سبق أن شخصية فرعون شخصية رئيسة ، احتلت مكاناً بارزاً طوال أحداث القصة ، ظهر منذ بداية ميلاد موسى – عليه السلام – حتى انتهت حياته بالغرق ، ولما أحسَّ بدنو أجله ، وأنه هالك لا محالة حكى الله – عزَّ وجل – مقولته في ذلك الوقت بقوله : ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ﴾ [2] .

أخذ فرعون يردِّد هذه الكلمات في نفسه [3] ، ويعلن إيمانه بالله– عزَّ وجل– وهو يعالج الأمواج، والموت يحيط به من كل مكان، ومشهد الهلاك يراه في كل اتجاه، فكان لا بد من الحوار الداخلي مع النفس ، والتوجه إلى خالق هذه الأمواج ، مما أدى إلى الخضوع التام ، فلجأ إلى الاسترحام ، لعلّ في ذلك إدراكاً لرحمة ربه .

---

(١) تعددت تعريفات (الحوار الباطني) ، ومنها على سبيل المثال : قول همفري هو : "الحوار الآحادي الداخلي المباشر" . مقدمة لتحليل الرواية ، نقلاً عن طرائق تحليل القصة ، ص٢٥٤ ، وأغلب هذه التعريفات ترجع إلى أن الحوار الباطني (الداخلي) يسعى إلى كشف البواطن الداخلية ، والمشاعر ، والأحاسيس الداخلية للشخصية من خلال حديثها مع ذاتها .

(٢) سورة يونس : الآية ٩٠ .

(٣) ذكر ذلك الإمام الرازي في تفسيره ينظر : مفاتيح الغيب ٢٩٥/١٧ .

وبعد أن بلغ موسى – عليه السلام – أشده ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [1] ، وعند دخوله المدينة إذا به يرى رجلين يقتتلان ، أحدهما من شيعته ، والآخر من عدوه ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [2] .

وبعد أن قتل موسى – عليه السلام – القبطي حصل هناك تحول في حياة موسى – عليه السلام – لا من حيث الأحداث فقط ، بل شمل الحوار الذي لم نعهده قبل هذه الحادثة ، ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ ، حيث أخذ يلوم نفسه بعد هذه الحادثة التي لم يتعمد موسى – عليه السلام – قتل القبطي ، ولكن لما وقع ما وقع ، ولم يجد من يناصره اتجه إلى حوار ذاته لعلها تخفف ما به من ألم [3] وقع المصيبة ، وكأن هناك مؤشراً يدعونا إلى القول بأن حياة موسى – عليه السلام – في الفترة التي قضاها ما بين حادثة القتل حتى الإرسال كان فيها نوع من القلق ، ولا أدل على ذلك من سرعته في اتخاذ قرار الرحيل إلى جهة لم يحددها مسبقاً بل ساقته الأقدار إلى مدين التي كان لها الدور الأكبر في استقرار حياته ، ومن ثمّ الإرسال .

وفي طريق الرحلة إلى مدين هارباً من فرعون وجنده وحيداً طريداً ، إذا به يخاطب نفسه خطاباً يحمل بين طيَّاته الاتجاه إلى الله – عزَّ وجل – : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [4] .

---

(١) سورة القصص : الآية ١٤ .

(٢) سورة القصص : الآية ١٥ .

(٣) ذكر ابن عاشور أن هذا الكلام وقع في نفسه . ينظر : التحرير والتنوير ٢٠/٩٠ .

(٤) سورة القصص : الآية ٢٢ .

ويبرز هنا السياق الحواري الداخلي عند موسى – عليه السلام – والذي دفعه إلى هذا الحوار الذاتي هو المجهول الذي ينتظره ، حيث إنه أمام رحلة لا يعلم متى ستنتهي ، لذلك لجأ إلى الابتهال ، والدعاء ؛ ليكون بذلك خير معين بعد أن فقد كل الأسباب البشرية المعينة له في مثل هذه الرحلة المجهولة .

.....

ثانياً
الحوار الخارجي

يعتبر سيدنا موسى – عليه السلام – من أكثر الأنبياء وروداً ، وذكراً في القرآن ، وهذا راجع إلى الأحداث ، والمواقف المتشعبة ، والكثيرة التي عاشها وعاصرها انطلاقاً من أحداث ولادته الغريبة ، ومروراً بصراعاته الخارجية مع فرعون وبني إسرائيل ، وانتهاءً بالمواقف الحرجة التي شكلت صراعات داخلية مع من نجا من بني إسرائيل .

ونظراً لكثرة أحداث قصته كان لازماً أن يكون هناك تعدد لشخصيات تباينت مواقفها تجاه رسالة موسى – عليه السلام – مما أنتجت لنا تلك التعددية حوارات شتى .

نحاول أن نسجل بعض الحوارات الواردة في أحداث ومشاهد القصة ، حيث يُعدُّ الحوار الخارجي هو الأبرز في قصة موسى – عليه السلام – ؛ نظراً لتعدد أطرافها واتساع مراحلها .

وإذا نظرنا إلى مشاهد قصة موسى – عليه السلام – رأينا تلك المشاهد تتسع أحياناً ، وتضيق حيناً آخر ، تتراوح بين جمل طويلة ، وأخرى قصيرة ، تُخْتَصَرُ في أحداث ، وتُفَصَّلُ في أخرى .

ولعلَّ من أبرز حوارات قصة موسى – عليه السلام– ما يلي :

أ- حوار موسى – عليه السلام – مع شعيب وابنتيه :

المشهد الذي جمعه معهم بعدما خرج من مصر في رحلةٍ لا يدري إلى أن يكون مصيره ، فانتهى به المطاف إلى مدين وكان اللقاء .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [1] .

بدأ الحوار بسؤال موسى – عليه السلام – عن شأن المرأتين ، وهذه تعتبر مبادرة ، وشجاعة تحلَّى بها موسى – عليه السلام – يوم تخلى عنها الكثيرون : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ فأتى جواب المرأتين بشيءٍ من التفصيل الذي يتطلبه الموقف ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ، عندها عرف موسى – عليه السلام – حقيقة ابتعادهما عن موارد الماء عندها تحركت الرحمة في قلب ذاك النبي العظيم ، و لم ينطق ببنت شفة ، وترجم هذا الحوار إلى أفعال ، ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [2] .

عبارة تحس منها أن التعب والنصب قد لحقا بموسى – عليه السلام – ، و لم يمض الوقت طويلاً حتى عادت إحدى البنتين تدعوه ، ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [3] .

يوحي السرد أن الذي وجه الدعوة هو الأب (شعيب) ﴿ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ ﴾ جاءته ؛ لتقدم إليه "دعوة في أقصر لفظ ، وأوجزه ، وأدله" [4] .

ويتجاوز السرد وصف الطريق الذي سلكه موسى – عليه السلام – حتى وصل إلى شعيب ، وقصَّ عليه قصته ، فقال له شعيب : ﴿ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ، بادره شعيب بتطمينه ، والتهدئة من روعه ، وكون شعيب يتلقى

(١) سورة القصص : الآية ٢٣ .
(٢) سورة القصص : الآية ٢٤ .
(٣) سورة القصص : الآية ٢٥ .
(٤) الإعجاز القصصي في القرآن ص١٠٦ .

موسى – عليه السلام – بهذه العبارة ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ دلالة أكيدة على أن الخوف هنا قد ظهر على موسى – عليه السلام – ، وإزالة الخوف عنه هنا أشد حاجة من إزالة ألم الجوع ، والطعام .

وبعد أن اطمأن موسى – عليه السلام – أخذ الحوار منحى آخر بين شعيب وابنته : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [1] .

ونظراً لأن المرأة رأت من موسى – عليه السلام – أمراً لم يشهده أبوها بادرت إلى الإفصاح عن الحقيقة الغائبة "حين كشفت عن الصفات الطيبة التي يشتمل عليها ، والتي هي مطلوب كل من يريد عاملاً يعمل له ، ويتولى شأناً من شئونه .. و لم تقل : "إنه قوي أمين" ، بل إنها جعلت ذلك قضية من القضايا المسلم بها .

﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [2] "، وهذه اللفتة من تلك المرأة التي جمعت بين الحياء، والفطنة ، والذكاء ساعدت على إطالة الحوار ، وتطوّر الأحداث التي جعلت من القارئ والسامع يزداد شوقه ؛ لمعرفة نهاية الرحلة المجهولة التي بدأها موسى – عليه السلام – .

وبعدما ازدادت رغبة شعيب باحتواء موسى – عليه السلام – والذي دفعه إلى ذلك تلك الصفات المطلوبة (القوة ، والأمانة) رغب بأن يقوي صلته به: ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [3] .

أطال شعيب الحوار هنا ، مما يدل على رغبته الأكيدة باحتوائه ، ولا أدل على ذلك من تخييره ﴿ إِحْدَى ابْنَتَيَّ ﴾ ، وترك له الخيار في إكمال المدة ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ .

---

(١) سورة القصص : الآية ٢٦ .

(٢) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، ص١٢٧ بتصرف .

(٣) سورة القصص : الآية ٢٧ .

إنه عرض مُفصَّل ، قائم على الوضوح ، والبيان ، "وشعيب حين يدخل في صفقة مع موسى – عليه السلام – يقدم له شروطاً واضحة ، مفصلة ، لا تحتاج إلى تخريج وتأويل ؛ فكل كلمة أخذت مكانها من المحتوى الذي يقوم عليه هذا العرض المعروض ، ويتلقى موسى – عليه السلام – هذا العرض الواضح المفصل بإجابةٍ واضحة مفصلة ، لا لبس فيها ولا غموض" [1] ، ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [2] .

وهكذا اطمأن كل طرف على صاحبه ، وهكذا تكون الاتفاقات ، بحيث يعرف كل طرف ما له ، وما عليه .

ب- حوار الرسالة والتكليف :

بعد أن قضى موسى – عليه السلام – مدة أحد الأجلين حَنَّ إلى موطنه الأصلي (مصر) ، وهو في طريق العودة رأى ناراً ﴿ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾ [3] ، كان هدف موسى – عليه السلام – هو الحصول على الدفء ، ولكن السرد يفاجِئُنا أن النار صارت نوراً ، ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ [4] .

---

(١) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، ص١٢٧ .

(٢) سورة القصص : الآية ٢٨ .

(٣) سورة طه : الآية ١٠ .

(٤) سورة طه : الآيات ١١- ١٦ .

لما وصل موسى – عليه السلام – إذا به يسمع كلام الرحمن ، ولكن مع ذلك لا يمكن أن نتصور الخوف الذي أَلَمَّ به – عليه السلام – ، فالمكان مظلم ، والبرد شديد بدليل طلبه النار ، وهو مع ذلك كله فريد طريد . ومباشرة وبدون مقدمات يؤكد له الرحمن بمؤكدات متوالية ، وسريعة ، والتي كانت بمثابة (التسكين) لذلك القلب الخائف ، ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ ، ويمضي السرد بجمل قصيرة ، متلاحقة ؛ لاحتواء الموقف ، وإعلامه بوقوع الاختيار عليه ، ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ ، وهذا الاختيار ليس اختياراً عادياً ، كيف ذلك ؟ ؛ لأنه الذي اختارك هو "الله بذاته" [1] ، والسياق بهذا الأسلوب يرفع مؤشر التحفز لدى موسى – عليه السلام – والانتباه ؛ ليستمع ما يوحى إليه ، وجاء الأمر هنا بالذات ؛ لأن القضايا التي ستذكر بعد هذا الأمر مهمة ، وتحتاج إلى تركيز ، وهي المحاور التي ستقوم دعوتك عليها ، ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ "ثلاثة أمور مترابطة الاعتقاد بالوحدانية ، والتوجه بالعبادة ، والإيمان بالساعة" [2] .

وبعد هذه المقدمة التي هيَّأت موسى – عليه السلام – وسكَّنت من روعة ، بدأ الحوار المباشر الثنائي ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [3] ، عَرَفَ موسى – عليه السلام – أنه رسول من عند الله – عزَّ وجل – وسَكَنَت نفسه ، وهدأت أنفاسه ، ولا أدَلَّ على ذلك من استرساله بالإجابة ، مع أن السؤال واضح ومحدد وأخذ الحوار منحى التواصل بين الطرفين ، وسؤال الله – عزَّ وجل – عن العصا التي في يد موسى – عليه السلام – يريد بذلك أن تبدأ مراحل كشف الأسرار للشخصية (موسى) – عليه

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٣٣١ .

(٢) المرجع السابق ٤/٢٣٣١

(٣) سورة طه : الآيات ١٧ – ١٨ .

السلام – ، وأن لها وظائف غير التي يعرفها ، وهنا أخذ السرد منحىً آخر يقوم على مبدأ الكشف عن الحقائق الغائبة ، والآية المعجزة ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾ [1] .

هناك وقف الحوار بين الطرفين أوامر من الله – عزَّ وجل – قابلها موسى – عليه السلام – بشيءٍ من الوجوم الذي خَيَّمَ على ذاك المكان الطاهر .

ولقد جاء في سورة (القصص) أنه فعلاً خاف ، وهرب بعد أن ألقى العصا ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [2] . كيف لا يخاف موسى – عليه السلام – ؟ وهو بشر يعتريه ما يعتريهم من خوفٍ ، وفزع ، وفرح ... الخ .

كيف لا يخاف وهو أمام منظر خارق للعادة عصا تنقلب حيَّة ! ، ويد تخرج بيضاء !! ، ولكن الذي خلق تلك المعجزة قادر على تأمين تلك النفس البشرية من الفزع ، والخوف ، ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ، وبعد أن هيأ الله – عزَّ وجل – موسى – عليه السلام – للرسالة ، وأعطاه من المعجزات المؤيدة لرسالته أمره بعد ذلك بالذهاب إلى فرعون ، وتبليغه دين الله – عزَّ وجل – .

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [3] . لما عرف موسى – عليه السلام – أنه مرسل إلى فرعون ذاك الذي ادَّعَى الألوهية وموسى – عليه السلام – يعرفه أشد المعرفة ، فقد تربى في قصرهِ ، وترعرع أمام ناظريه ، ويعرف شدة شراسته ، وبطشه ، كل ذلك جعله يتشجع ، وينتهز فرصة اللقاء ، ويطلب ما يعينه على أداء الرسالة

(١) سورة طه : الآيات ١٩ – ٢٣ .

(٢) سورة القصص : الآية ٣١ .

(٣) سورة طه : الآية ٢٤ .

على أكمل وجه ، و لم يجد ما يعينه على مهمته خيراً من الدعاء ، ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ (١) .

يمضي السياق بذكر تلك الطلبات ، والأسباب المعينة لموسى – عليه السلام – من أجل القيام بالمهمة الصعبة وهذه الطلبات جاءت سريعة الإيقاع، قصيرة الجمل، مما يدل على الرغبة الأكيدة لدى موسى – عليه السلام – لتنفيذ الأوامر الربانية ، وهو مع ذلك يحس بعظم المسئولية ، ولذلك جاء السرد بالكم الهائل من الأقوال المتتالية ، والمتتابعة ، مما ساعدنا على استكناه باطن نفسية موسى – عليه السلام – ، فجاء الحوار سلساً ، مرتباً ، بدأ بالأهم فالأهم ، وختم هذا الدعاء بصفة (البصير) ، مما يشعر القارئ بأن موسى – عليه السلام – يرد العلم إلى الله – عزَّ وجل – ، وهو أعلم بحاجاتنا وإن لم نسأل .

وفور انتهاء موسى – عليه السلام – من سؤاله ، تأتي الإجابة الفورية الغير مشروطة ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٢) .

أخذ الحوار بعد ذلك يذكر موسى – عليه السلام – يوم أن كان عند فرعون ضعيفاً رضيعاً ، ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة طه : الآيات ٢٥ – ٣٥ .

(٢) سورة طه : الآية ٣٦ .

(٣) سورة طه : الآيات ٣٧ – ٤٠ .

وهنا يزيد الله – عزَّ وجل – من طمأنينة موسى – عليه السلام – من خلال التذكير بأننا حفظناك حال ضعفك في اليم الذي احتواك وأنت في التابوت وعشت في قصر فرعون ، ومع ذلك حفظناك ، أفلا نحفظك وأنت تقوم بالدعوة إلى الربوبية ؟

وبعد تلك الدفعة النفسية الإيجابية يأتي التكليف مرة أخرى ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [1] .

وهكذا يمضي الحوار حتى قال الحق – تبارك وتعالى – : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾ [2] .

بعد هذه الأوامر الصادرة من الله – عزَّ وجل – لموسى – عليه السلام – وأخيه هارون أن يذهبا إلى فرعون ، ويبلغاه الدعوة حصلت نقلة ليست على مستوى الحوار فقط ، بل شملت تلك النقلة الأحداث ، والحوار ، والزمان ، والمكان ، ولم نشعر إلاّ ونحن أمام فرعون ، وتلك الفجوات من الخصائص الفنية التي كان لها حضورها في قصص القرآن ، بحيث "تترك بين كل مشهدين أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال ، ويستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد السابق ، والمشهد اللاحق" [3] .

وبعد أن مثل موسى وهارون – عليهما السلام – أمام فرعون يبدأ الحوار بداية قوية أشبه ما تكون "برميات الرصاص" [4] ، وكانت البداية من عند فرعون .

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ

(١) سورة طه : الآيات ٤٢ – ٤٥ .

(٢) سورة طه : الآية ٤٧ .

(٣) التصوير الفني في القرآن ص١٨٧ – ١٨٨ .

(٤) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، ص١٣٤ .

لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ [1] .

حوار واضح ، متسلسل في أغلبه ، وإن كان هناك عناصر دخلت على المتحاورين ، حيث " أخذت الموقف منهم لتدلي برأيها فيما يتحاورون فيه ، أو لتقيم لأحد الطرفين حجته ، أو تقوم منطقه" [2] ، وهذا ما حصل فعلاً في حوار موسى – عليه السلام – مع فرعون ، حيث إن موسى – عليه السلام – لم يكد يكمل جوابه عن سؤال فرعون ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ "حتى ينطق الحق بما ينطق به الوجود كله ؛ مكملاً هذا الجواب : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ ، فهذا قول الحق ، نطقت به الحال وشهد له كل موجود " [3] .

وملمح آخر يضفي على إجابة موسى – عليه السلام – ألواناً من الحجج الدامغة على هذا الطاغية ، فانظر "كيف جعل إنزال الماء مضافاً إلى الله وحده ، على

(١) سورة طه : الآيات ٤٩ – ٦٤ .
(٢) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، ص١٣٦ .
(٣) المرجع السابق ص١٣٦ – ١٣٧ .

حين أن إخراج النبات من الأرض قد جعله إلى ضمير المتكلمين ، أو المتكلم المعظم نفسه" [1] [2] .

وإذا نظرنا إلى إجابات موسى – عليه السلام – نجد أنها تميل إلى التركيز ، مع السرعة والدقة في الإجابة ، وذلك واضح عندما سأل فرعون موسى – عليه السلام – عن الإله ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾[3] ، " وكان ذلك مما سبيله الاستدلال ، أجاب بما هو الصواب بأوجز عبارة ، وأحسن معنى ، ولما سأله عن شأن القرون الأولى وكان ذلك مما سببه الإخبار، ولم يأته في ذلك خبر وكله إلى عالم الغيوب" [4].

وإذا كنا نلحظ الصراع الحواري بين طرفين أحدهما يمثل الخير (موسى) – عليه السلام – ، والآخر يمثل الشر (فرعون) ، فإن هذا الحوار المتأزم الذي كان يدور في فلك إثبات مبادئ التوحيد ، ونفي الشرك ، والضلال ، قد تحوَّل فيما بعد إلى صراع ميداني ، وهذا هو منطق الطاغية (فرعون) ، حيث إنه لما عجز عن الثبات أمام محاورة موسى – عليه السلام – لجأ إلى التهرب ، وغرضه من ذلك تشتيت الأذهان ،

---

(١) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، ص١٣٧ .

(٢) اختلف المفسرون في قوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ ، هل هو من كلام الله – عزَّ وجل – ، أم من كلام موسى – عليه السلام – ؟ ، والصحيح أن هذا هو من كلام الله – عزَّ وجل – ؛ لأن ما جاء بعد هذه الآية من قوله : ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ لا يليق بموسى – عليه السلام – ؛ لأن أكثر ما في قدرة موسى صرف المياه إلى سقي الأرض ، وأما إخراج النبات فليس بمقدور موسى – عليه السلام – ، فلم يبق إلاّ أن يقال : إن كلام موسى – عليه السلام – ، ثم عند قوله : ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ ثم ابتدأ كلام الله تعالى من قوله : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ ، ويكون التقدير : هو الذي جعل لكم الأرض فيكون الذي خبر مبتدأ محذوف .
مفاتيح الغيب ٦١/٢٢ بتصرف .

(٣) سورة طه : الآية ٤٩ .

(٤) مفاتيح الغيب ٦٠/٢٢ .

فحواراته مع موسى – عليه السلام – جلُّها ، وأغلبها تتميز بميزة (المراوغة والسخرية) رغم الحجج والبراهين التي يقدمها موسى – عليه السلام – .

ومن ذلك ما جاء في سورة (الشعراء) بعد أن ذكر السياق مثول موسى وهارون – عليهما السلام – أمام فرعون كما ذكرنا آنفاً ، جاء في هذا الحوار من الأدلة الحسيّة ، والعقليّة الكافية لإثبات الربوبية لله رب العالمين .

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [1] .

بدأ حوار فرعون مع موسى – عليه السلام – مذكراً له بالامتنان عليه بالتربية منذ صغره . و لم تُقَدِّر أي : يا موسى تلك التربية ، بل قتلت منّا نفساً ، ووليت هارباً والآن تأتي بدعوة تدعيها .

وتأتي إجابة موسى – عليه السلام – بالإقرار بتلك الفعلة التي فعلها حيث كان ذلك "قبل أن يوحى إليَّ ، وينزل عليَّ" [2] .

وقد أجاب على الامتنان الذي مَنّهُ عليه بإجابة مقنعة مفحمة ، تدل على بلاغة ذلك النبي العظيم ، وهي "أنك أحسنت إليَّ ، وأنا رجل واحد من بني إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكامله ، واستعبدتهم في أعمالك ، وخدمتك وأشغالك" [3] .

فكان إنعامك مُنصباً على شخص ، ومصير البقية الإساءة ، والإذلال ، فأين المنة التي تدعيها ، وهذه الحجج العقلية ، والمنطقية أشبه ما تكون بقذائف جعلت من فرعون يُحَوِّلُ الحوار إلى الغرض الأساسي الذي جاء من أجله موسى – عليه السلام

(١) سورة الشعراء : الآيات ١٨ – ٢٢ .

(٢) قصص الأنبياء ص٢٥٠ .

(٣) المرجع السابق ص٢٥٠ .

– ألا وهو الدعوة إلى التوحيد ، فقال في مكابرة وتغطرس : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١) .

حاول أن يتخلص مرة أخرى من مواجهة موسى – عليه السلام – ، ومحاورته بعد أن رأى من موسى – عليه السلام – الحجج تلو الحجج ، لكن موسى – عليه السلام – الواثق بنصر الله يستمر في الحوار ، و لم يلتفت إلى السخرية ، بل دمغه بدليلٍ حسي يشاهده صباح مساء ، إنه رب السماء التي تظلكم ، والأرض التي تقلكم .

استمر فرعون بالسخرية من موسى – عليه السلام – ، وزعم أنه قد أصابه الجنون ، والتفت إلى قومه واستفهم منهم هذا الأمر ، فهل يا قوم تسمعون ما أسمع ؟ كل ذلك محاولة منه تشويش دعوة موسى – عليه السلام –، ولكنه لم يلق بالاً لهذا الطاغية ، واستمر – عليه السلام – في حواره ، ولما عرف مبدأ فرعون في الحوار وهو مبدأ السخرية ، والتندر ، أخذ يدمغه بالأدلة تلو الأدلة ، ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢) .

ولما انكشف فرعون أمام ملئه وبدأت بوادر الهزيمة تحيط به من كل جانب بعد أن جَرَّبَ كل الحيل التي باءت بالفشل ، فلم تحقق كلاً من السخرية ، والتفاته إلى قومه، ومحاولة التقليل من شأن المحاور موسى – عليه السلام – من خلال استرجاع أفعاله عندها ظهر فرعون بوجهٍ آخر ، وحوار صبغه بالتهديد ، والوعيد ، ﴿ قَالَ لَئِنِ

(١) سورة الشعراء : الآيات ٢٣ – ٢٥ .

(٢) سورة الشعراء : الآيات ٢٦ – ٢٨ .

﴿ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [1] .

بعد ذلك خضع فرعون رغم أنفه وعاد بالحوار إلى مساره الصحيح ، وموسى – عليه السلام – صاحب مبدأ لم يبالِ بفرعون وأعوانه الموافقين له ، المزينين له أعماله الباطلة ، حيث إنه لما عرض موسى – عليه السلام – الآيات التي جاء بها من عند الله التفت فرعون لهم ، و: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [2] .

هكذا كان جواب حاشية الضلال الذين ينفثون السم ولا يبالون ، همهم أنفسهم فقط ولا غير، تجدهم أمامك في الرخاء وتبحث عنهم في الشدائد لا يهمهم في أي وادٍ هلك الناس ، وبعدها أخذ الحوار مساراً آخر ، وتشعبت أطرافه .

ج - المحاورة بين موسى – عليه السلام – والسحرة :

أخذ الحوار أبعاداً أخرى بعد أن كان محصوراً في مجلس فرعون وحاشيته المقربين !! ، واتسع ليشمل حوار السحرة وفي مكان عام ، وهو يوم عيدهم ، ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ [3] .

والحوار مع موسى – عليه السلام – في السابق كان قد أخذ طابع الثنائية الانفرادية ، والآن يواجه محاورة جماعية . إذن سيكون هناك اختلاف على مستويات عدة لا تشمل الأحداث فقط ، بل الأماكن ، والأشخاص ، والحوارات .

---

(١) سورة الشعراء : الآيات ٢٩ – ٣١ .

(٢) سورة الشعراء : الآيات ٣٤ – ٣٧ .

(٣) سورة طه : الآية ٥٩ .

وقبل أن تبدأ المباراة أخذ هؤلاء السحرة المواثيق ، والعهود من فرعون بأن لهم الأجر إن حققوا النصر ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾[1] . وهو حوار يجعلنا أمام شخصيات مرتابة غير واثقة للعهود والمواعيد ، وهكذا حال من كان أساسه الغش والخداع ، وبعد أن أخذوا العهود والمواعيد من فرعون بدأت المباراة ، وقد أتوا صفاً واحداً ، وقلوبهم قد امتلأت ثقةً بأن الغلبة لهم ، لذلك : ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾[2] .

خيّروا موسى – عليه السلام – إمّا أن يلقوا ، أو تلقي أنت أولاً ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾[3] . بعد الإلقاء أخذ السرد يلقي نظرة على نبينا موسى – عليه السلام – ، وأن الخوف قد تملكه ، ولكن لم يظهر على ملامحه ، فلو ظهر لكان سبباً في تأخر هداية هذه الجماهير التي تنظر إلى الميدان .

جاءت الأوامر بإلقاء العصا ، وبعدها ألقي السحرة سُجَّداً ، فتحول الحوار من حوار في الكلام إلى حوار في الأفعال ، فكان إلقاء العصا بمثابة السؤال ، وجاء الجواب مباشرة من خلال اندفاع السحرة بالسجود ، فحصل هناك تحول في الأحداث كانت نتيجته التسليم ، والانقياد ، ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾[4] .

وفي هذه اللحظات أخذ فرعون يتلفت كالمجنون من هول ما رأى .سلاحه الذي أتى به ليكون معه إذا به يتحول ضده ، إنه الإيمان وكفى !! .

---

(١) سورة الأعراف : الآيات ١١٣ – ١١٤ .

(٢) سورة طه : الآية ٦٥ .

(٣) سورة طه : الآيات ٦٦ – ٦٧ .

(٤) سورة طه : الآية ٧٠ .

هنا أخذ الحوار والسرد منحى آخر جعل موسى – عليه السلام – يقف موقف المتفرج حيث التفت فرعون إلى السحرة مهدداً ، ومتوعداً ، ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾ [1] ، إنه منطق المتكبرين الذين يجابهون الحجة بالتهديد ، والوعيد ، مؤكداً ، ومتوعداً العذاب ، والنكال ، والتصليب ، والتشريد لمن خالف أمره ، ولكن مع ذلك يأتي الإيمان ليقول قولته ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴾ [2] .

افعل يا فرعون ما يحلو لك ، فلا رجعة إلى ذلك الطريق المظلم ، فقد أبدلنا الله خيراً منه (الإيمان) ، والعجيب في أمر هؤلاء السحرة أنهم شرعوا في الدعوة إلى الله – عزَّ وجل – بعد إيمانهم مباشرة ، فقد جاء في حوارهم التهديد لمن مات على الإجرام والظلام ، والترغيب لمن أتى ربه مؤمناً ، فإن له الدرجات العلى .

د- حوار أحداث هلاك آل فرعون :

بعد أن قرر فرعون وملؤه الانتقام من موسى – عليه السلام – والسحرة ، ومن آمن معهم ، وكتب الله – عزَّ وجل – الهلاك ، والدمار ، والغرق على فرعون وجنوده ، جاء السرد يحكي لنا هذه الواقعة بعد أن أصبح البحر من أمام موسى – عليه السلام – والعدو من خلفهم ، حيث جرى في ذلك المكان الرهيب الحوار التالي: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾

(١) سورة طه : الآية ٧١ .

(٢) سورة طه : الآيات ٧٢ – ٧٥.

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [1] .

أوضح لنا السرد أن موسى – عليه السلام- أُمِرَ أن يخرج ببني إسرائيل بعد أن اشتط غضب فرعون ، وتوعد بالانتقام ، ولكن لم يذكر الطريق وما حصل فيه ، وهذه عادة القرآن تاركاً ومفسحاً لخيالنا أن نتصور ونعيش أجواء القصة ، وفجأة ينتقل بنا السرد إلى مكان التراءي ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [2] . ومعنى ﴿ تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ ﴾ : "لم يبق ثمة ريب ، ولا لبس ، وعاين كل من الفريقين صاحبه ، وتحققه ، ورآه ، ولم يبق إلى المقاتلة ، والمجادلة" [3] .

عندها أكَّد أصحاب موسى – عليه السلام – أنهم هالكون لا محالة بحر يتلاطم من أمامهم ، وعدو يتربص بهم من خلفهم ، ويجيبهم الكريم بأن معه ربه سيرشده إلى الطريق القويم ، ويهديه إلى طريق النجاة مبدداً تلك الأوهام بكلمة (كلا) التي توحي بثقة ذاك النبي الكريم بنصر رب العالمين ، هنا انقطع الحوار ، ووجمت الأفواه ، وتسارعت الأنفاس ، وبلغت القلوب الحناجر إذا بالكريم يأمر الكليم وبسرعة تحول الحوار إلى أفعال ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [4] . فتحقق بذلك نصر المؤمنين ، وخذلان الكافرين .

هـ- حوار موسى وهارون – عليهما السلام – وحادثة عبادة العجل :

(١) سورة الشعراء : الآيات ٦١ – ٦٨ .

(٢) سورة الشعراء : الآية ٦١ .

(٣) قصص الأنبياء ص٢٧٧ .

(٤) سورة الشعراء : الآية ٦٣ .

قبل أن يقع بنو إسرائيل في عبادة العجل انطلق موسى – عليه السلام – لملاقاة ربه (المواعدة) بعد أن خلَّف عليهم أخاه هارون – عليه السلام- ، ولما وصل صعد موسى – عليه السلام – الجبل فأخبره ربه بما حصل لقومه أثناء مغيبه : ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾ [1] .

هنا توقف الحوار من هول الخبر ، وتترجم إلى فعل ، حيث أنهى السياق "موقف المناجاة هنا على عجل ويطويه ؛ ليصور انفعال موسى – عليه السلام – مما علم من أمر الفتنة ، ومسارعته بالعودة ، وفي نفسه حزن ، وغضب على القوم الذين أنقذهم الله على يديه من الاستعباد والذل في ظل الوثنية" [2] .

رجع إلى قومه غضبان أسفاً ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ ﴾ [3] .

بعد أن وصل موسى – عليه السلام – راجعاً إلى قومه أخذ يحقق مع الأطراف المعنية الثلاثة بنو إسرائيل ، وهارون – عليه السلام – ، والسامري .

بدأ حواره متدرجاً ، مُستفهماً ، وانتهى متوعداً ، محذراً ، انطلق من العام إلى الخاص ، ابتدأ بقومه وانتهى بالسامري ، حيث إنه لما قدم وجد الفتنة قد عمَّت بني إسرائيل ، فاستنكر عليهم ذاك الفعل ، وظهر هذا الاستنكار من خلال تكرار أسلوب

(١) سورة طه : الآيات ٨٣ – ٨٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/٢٣٤٧ .

(٣) سورة طه : الآيات ٨٦ – ٨٩ .

الاستفهام الإنكاري . ولعلّ السبب في ذلك هو غياب السبب المؤدي إلى عبادة العجل .

أمَّا سبب غياب تلك الاستفهامات الإنكارية في حواره مع السامري فإن ذلك راجع إلى انكشاف السبب ، فلذلك غابت تلك الاستفهامات مع أنه صاحب الفتنة . أمَّا حواره مع أخيه هارون – عليه السلام – فقد ظهرت حكمة هارون– عليه السلام– من خلال محاولته إيضاح الأمر ، حيث رأى انفعال موسى – عليه السلام – ، و لم يقتصر غضبه على الكلام فقط ، بل ترجم هذا الغضب إلى أفعال ، والإمساك بشعر رأسه ، وبلحيته ، فسلك هارون مع أخيه موسى – عليه السلام – مسلكاً آخر .

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾ [1] .

فأظهر السرد من خلال الحوار حنكة أخيه هارون – عليه السلام – ، فلجأ إلى تسكين غضبه من خلال اختيار أسلوب حواري يكون له الدور الفعَّال في إيقاظ مشاعر موسى – عليه السلام – "فهو يلمس في مشاعره نقطة حسّاسة ، ويجيء له من ناحية الرحم ، وهي أشد حساسية ، ويعرض له وجهة نظره في صورة الطاعة لأمره حسب تقديره ؛ وأنه خشي إن هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيعاً ، بعضها مع العجل ، وبعضها مع نصيحة هارون – عليه السلام – ، وقد أمره بأن يحافظ على بني إسرائيل ، ولا يحدث فيهم أمراً" [2] .

(١) سورة طه : الآيات ٩٢ – ٩٤ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٣٤٨/٤ .

وأخيراً اتجه إلى السامري الذي ضلَّ عن الطريق الصحيح بنص القرآن ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾ [1] .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : ما دام السامري هو الذي بدأ الفتنة ، وهو صاحب الشرارة الأولى ، فلماذا جاء التحقيق معه متأخراً مع أنه أولى بالتقديم ؟ .

والسبب في أن موسى – عليه السلام – لم يتوجه له بالتحقيق :

أولاً " لأن القوم هم المسؤولون ألا يتبعوا كل ناعق ، وهارون هو المسؤول أن يحول بينهم وبين أتباعه . إذا هموا بذلك وهو قائدهم المؤتمن عليهم . فأما السامري فذنبه يجيء متأخراً ؛ لأنه لم يفتنهم بالقوة ، ولم يضرب على عقولهم ، إنما أغواهم فغووا ، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأول ، ونصح نبيهم الثاني .

فَٱلْتَبِعَةُ عليهم أولاً وعلى راعيهم بعد ذلك ، ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيراً" [2] . الذي حكم عليه موسى – عليه السلام – بعدما أخبره بما فعل ، وما كان من أمر العجل من الطرد والإبعاد في الدنيا ، ووكل أمره في الآخرة إلى الله ، وأنهى هذا الحوار باتخاذ إجراءات صارمة ، واجتذاذ الفتنة من أصولها ، فقام بإحراق العجل ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [3] .

وبهذا ينتهي ذاك المشهد الذي حمل في طيّاته ألواناً من القيم ، وروائع الأسلوب .

---

(١) سورة طه : الآية ٨٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٣٤٨/٤ .

(٣) سورة طه : الآيات ٩٥ – ٩٧ .

و- حوار التيه :

سار موسى – عليه السلام – ببني إسرائيل ووصلوا إلى بيت المقدس وطلب منهم دخول الأراضي المقدسة ، فأبوا ذلك ، وجرى الحوار التالي :

﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۗ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [1] .

يطلب منهم موسى – عليه السلام – القتال في سبيل الله بعد أن ذكَّرَهُم بنعم الله عليهم فجاء ردُّهُم بالرفض المؤكَّد ، معللين ذلك بأن فيها أقواماً لا طاقة لنا بهم ، إنهم بنو إسرائيل ديدنهم الجُبْنُ ، والخور ، وموسى – عليه السلام – لا ينكر إحجامهم ، وخذلانهم ، فقد جرَّبَهُم في مواطن عدة خلال مسيرته معهم ، فبدلاً من أن يكونوا حماة لهذا الدين بعد أن أنقذهم الله – عزَّ وجل – من فرعون الذي أذاقهم ألواناً من العذاب ، "وهو أجبر من هؤلاء ، وأشد بأساً ، وأكثر جمعاً ، وأعظم جنداً" [2] .

وعايشوا تلك الآيات المعجزات ، ومع هذا كله يرفضون القتال ، وليس مجرد الرفض فقط ، بل التأكيد على هذا المبدأ من خلال المؤكدات المتوالية ، لينقلوا موسى – عليه السلام – من دائرة الشك التي هو فيها ، واحتمالات تراجعهم عن هذا المبدأ إلى دائرة الاستبعاد والاستحالة .

---

(١) سورة المائدة : ٢١ – ٢٦ .

(٢) قصص الأنبياء ص٢٨٦ .

انتهت كل المحاولات التي حضرت في الحوار السردي كمحاولة الرجلين ﴿ قَالَ رَجُلَانِ ﴾ من أجل ثنيهم عن هذا القرار الذي أدى بهم إلى غضب الله ورسوله ولكن باءت بالفشل ، أدى ذلك إلى تعجيل عقابهم ، حيث كتب الله عليهم التيه .

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

وهنا انقطع الحوار ، وغاب حوار الشخصيات سواء المؤمنة أو الكافرة ليظهر حكم الله في هؤلاء ولا غير وهو التيه في الأرض [1] .

ز- حوار موسى – عليه السلام – مع العبد الصالح :

القارئ عندما يقرأ الحوار الذي دار بين موسى – عليه السلام – والعبد الصالح يجد نفسه مشدوداً طوال القراءة ، وما ذاك إلاّ لأن تلك الحادثة قد شملت أحداثاً من الطبيعي أن تنكرها النفس البشرية ، (خرق سفينة) ، (وقتل نفس) ، (وقرية رفض أهلها إطعامهم) .

وهذه الأحداث تجعل القارئ يتابع الحوار ؛ ليعرف ما سر تلك الأحداث ، وهذا ما حصل بالفعل ، فقد كُشِفَت الأسرار للبطل والقارئ في آنٍ واحد [2]

وإذا عرفنا أن الغرض من هذه القصة هو إعلام موسى – عليه السلام – أن هناك من هو أعلم منه في الأرض تبيّن لنا السر من إطالة الحوار وسبب الغموض الذي صحب تلك القصة العظيمة ليحقق بذلك الحوار أهدافاً جاء من أجلها ، فإلى الحوار القرآني :

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن ٨١٧/٢ .

(٢) أشار إلى تلك الطريقة الفنية سيد قطب في كتابه (التصوير الفني في القرآن) ص١٨٣ ، وجعل هذه الطريقة (تنوع طريقة المفاجأة) من الخصائص الفنية للقصة .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [1] .

(١) سورة الكهف : ٦٠ - ٨٢ .

وبعد هذا التطواف مع عنصر الحوار والسرد يمكننا القول :

(١) إن مما يميز الحوار الداخلي غياب الأطراف ؛ حيث يصبح الإنسان في لحظة صفاء ، ونقاء ، وصدق مع النفس ، فيبدو التفسير أكثر دقة ، ومصداقية ، لذلك جاءت المقاطع الحوارية الداخلية في قصة موسى – عليه السلام – بمثابة نقطة تحول تنطلق بعدها القصة إلى سياقاتٍ أخرى .

(٢) يعود قلّة الحوار الداخلي في قصة موسى – عليه السلام – إلى أمرين :

(أ) الحوار الداخلي بشكلٍ عام يظهر غالباً عندما يكون هناك خوف من شخصية معينة (صراع فرد مع فرد) لذلك يظهر الحوار الداخلي في ظل غياب الأطراف – من هنا- يلجأ إلى حوار ذاته ... ولم يكن موسى – عليه السلام – خائفاً إلاّ في بدايات الرسالة -كما رأينا- بعد ذلك انجلى عنه الخوف ، وهذا مما أدى بطبيعة الحال إلى قلة الحوار الداخلي .

(ب) انشغال موسى – عليه السلام – بصراعات خارجية مع أقطاب عدة أدت بطبيعة الحال إلى انشغاله عن الحوار الداخلي ؛ وذلك لأنه خرج من الصراع الفردي إلى الصراع الجماعي فحصل هناك نوع من المشاركة في الصراع مما أدى بطبيعة الحال إلى الدخول معهم في حوارات خارجية .

(٣) مع قلة الحوار الداخلي في قصة موسى – عليه السلام –إلا أنه بإمكاننا من خلال بعض الجمل السردية أن نقدِّر اعتماد موسى – عليه السلام – على الحوار الداخلي كما جاء في موقفه مع السحرة والخوف الذي أوجسه في نفسه ومع ذلك لم يظهر على ملامح وجهه ؛ حيث إن طبيعة الموقف تفرض عليه مثل هذا الحوار ، ولكن مع هذا التقدير لا يسمح لنا بإدراجه في الحوار لكونه لم يرد في القصة ذاتها .

(٤) حقّق الحوار الداخلي، والخارجي في قصة موسى – عليه السلام – عدة وظائف ، لعلّ من أهمها : (كشف الأسرار ، وتطور الأحداث) ، مما يدفع القارئ والمتلقي إلى العيش في أجواء الحدث .

(٥) تكرر الفعل (قال) في حوارات قصة موسى – عليه السلام – بدون حرف عطف ، وأحياناً يأتي بحرف العطف (وقال) .

وهذا راجع في نظري إلى دقة أسلوب القرآن في اختيار اللفظ الذي يخدم السياق ، ويعين القارئ والسامع على العيش في أجواء القصة .

ولفظ (قال) بدون حرف عطف يمتاز بالدقة ، والتركيز ، وشد الانتباه ، وهذا ما جعله يكثر في حوار المجاوبات .

بينما لفظ (وقال) بحرف العطف يعطي القارئ والسامع نوعاً من التحفيز الذي يهيئ للانتقال الكلي لا على مستوى المتحاورين فقط ، بل على مستويات عدة (الشخصيات ، الأماكن ، الأزمنة) ، وهذا ما جعله يكثر في مواضع انتقال القصة من مشهدٍ إلى آخر ، ومن سياقٍ إلى آخر ، مما حدا ببعضهم إلى القول : "إن من أساليب القرآن إذا حكى المحاورات ، والمجاوبات حكاها بلفظ قال دون حرف عطف إلاَّ إذا انتقل من محاورةٍ إلى أخرى" [١]

(٦) رأيت أن أسلوب الحوار في قصة موسى – عليه السلام – يتراوح بين السلاسة والسهولة من جهة ، والاقتضاب والسرعة من جهة آخرى ، فإن كان هناك توافق بين الشخصيات كان أسلوباً سلساً ، وهذا ما لمسته في موقف موسى – عليه السلام – مع شعيب .

وإن كان هناك ما يؤدي إلى قلق الشخصية ، رأينا أن الأسلوب يميل غالباً إلى الاقتضاب ، وهذا ما رأيته في معظم حوارات فرعون مع موسى عليه السلام .

*****

(١) التحرير والتنوير ١/١٢٥ .

الخاتمــة

الخاتمـة

وبعد هذه الرحلة التي قضيتها مع أساليب عرض قصة موسى – عليه السلام – فقد توصلت إلى جملة من النتائج التي يمكن أن أختزلها في الآتي :

- ☑ أثبتت الدراسة أن القصة القرآنية من أشد أساليب القرآن الكريم إقناعاً للمتلقي.
- ☑ لاحظ البحث أن قصة موسى – عليه السلام – في القرآن جاءت متنوعة الأساليب ؛ مما أنتج ذلك التنوع جملة من الأسرار البلاغية ، والإعجازية التي جاءت ملائمة لقصة موسى عليه السلام .
- ☑ لم يقتصر الإيجاز في قصة موسى – عليه السلام – على حذف كلمة ، بل تجاوز ذلك إلى حذف مشهد بكامله.
- ☑ أكَّد البحث أن الحذف والإيجاز لا يقل دوراً في إبراز المعنى عن الذكر والإطناب ؛ لأن وجود ذلك الإيجاز يدفع بالفهم والعقل إلى التأمل والتساؤل ، ورسم الكثير من الصور ، والأحداث – لا سيما- في الفن القصصي .
- ☑ أكَّدت الدراسة أن أسلوب الإطناب أسلوب قد عمَّ قصة موسى – عليه السلام – مما تفرض علينا تلك العمومية أن نعُدَّ قصة موسى – عليه السلام – مرجعاً من مراجع هذا الأسلوب ، وميداناً فسيحاً يمكن أن يطبق عليها أنواع الإطناب .
- ☑ توصلت الدراسة إلى أن ظاهرة التكرار في قصة موسى – عليه السلام – لم تقتصر على تكرار الكلمة فحسب ؛ بل وقعت في الكلمات ، والجمل ، والعبارات ، والأحداث ، والأنباء .

- ☑ أثبتت الدراسة أنَّ أساليب عرض قصة موسى – عليه السلام – في القرآن الكريم تتفاوت حلقاتها بين الإيجاز والإطناب .
- ☑ بيَّنت الدراسة أنَّ البناء التصويري في قصة موسى – عليه السلام – على مختلف ألوانه ، ينقل المتلقي إلى متابعة أجواء القصة من خلال الصور التي ترسمها الكلمات والأبنية .
- ☑ كشفت الدراسة أنَّ الأدلة التي يسوقها فرعون لقومه من أجل إبطال دعوة موسى – عليه السلام – كانت قائمة على السحر والأساطير التي تناسب حالة قوم فرعون في ذلك العصر القائم على السحر .
- ☑ أثبتت الدراسة أنَّ القرآن قد يعبر أحياناً عن الاسم بالمهمة التي أتى من أجلها ؛ كي يثبت أو ينفي حكماً من الأحكام ، وقد برزت تلك الخاصية في حديثنا عن أسلوب التنكير.
- ☑ أشارت الدراسة إلى جملة من المفارقات التي قامت عليها قصة موسى – عليه السلام – منها : تفردها بالأحداث ، والشخوص ، والمواقف .التي تجعلنا أمام قصة من أعجب القصص القرآني .
- ☑ أبرزت الدراسة أن قصة موسى – عليه السلام – على مختلف أساليبها قد مزجت بين براعة الأسلوب وجمال الفن والتصوير .
- ☑ اتسعت قصة موسى – عليه السلام – للجوانب البنائية التركيبية ، وهذا الاتساع جاء متسقاً مع تكرار القصة ذاتها ، مما جعل من قصة موسى – عليه السلام – منجماً من مناجم علم المعاني الذي يجد الباحث فيه بغيته .
- ☑ ظهرت عناية القرآن في الإيقاع من خلال عدوله عن القياس إلى قياسٍ آخر ، من أجل خدمة القصة .

- ☑ البناء الإيقاعي على مختلف ألوانه ، وأشكاله ، واختيار ألفاظه ساعد القارئ على تفسير ما خفي من أسرار قصة موسى – عليه السلام – سواء كان ذلك بالأحداث ، أو المواقف ، أو الشخصيات .
- ☑ أكَّدت الدراسة أن قصة موسى – عليه السلام – الواردة في السور المكية ركزت على معالجة قضايا العقيدة بخلاف السور المدنية .
- ☑ أثبتت الدراسة أن مرحلة حياة موسى – عليه السلام – الأولى (الميلاد – البعثة) شاعت فيها الأحداث المعقدة ، بينما وجدنا في مرحلة حياته الثانية (البعثة – هلاك فرعون) شاعت فيها الأحداث البسيطة ، أما مرحلته الثالثة (هلاك فرعون – موت موسى – عليه السلام –) ، وجدنا أنها تأسست على أحداث مزجت بين المعقدة والبسيطة .
- ☑ انعكس الزمن المتصاعد المتتابع في قصة موسى – عليه السلام – على الأحداث فجاءت وفق تسلسل زمني منطقي على الرغم من وجود تقنيات كسرت الترتيب الزمني ، إلا أنها أعطتنا رؤية زمنية متصاعدة من البداية حتى النهاية .
- ☑ كشفت الدراسة أن ظهور الخوف على ملامح موسى – عليه السلام – من عدمه راجع إلى خدمة السياق من خلال الدفع بأحداثها إلى الأمام .
- ☑ لم تحفل الشخصية في قصة موسى – عليه السلام – بالصفات الجسدية ولم نلحظ تلك الصفات الجسدية إلا نزراً يسيراً يكاد يكون معدوماً ، وإني لأعزو تلك الظاهرة إلى المنهج الذي سلكه القرآن في سائر قصصه من حيث التركيز على ما يمكن أن تحقق في ذواتنا الخير والصلاح.
- ☑ سارت الشخصيات الرئيسة عبر خطوط متباينة ، حيث لاحظت الدراسة أن الشخصية التي تمثِّل الحق جاءت بارزة واضحة المعالم والأهداف ، من خلال أقوالها ، وأفعالها ، كشخصية موسى – عليه السلام – ، بينما

الشخصية التي تمثِّل الشر جاءت غامضة متباينة ، مضطربة كاضطراب الحق كما جاء ذلك في شخصية فرعون الماكرة .

- ☑ استطاعت الدراسة أن تستثمر ما توصل إليه النقد السردي الحديث في قراءة قصة موسى – عليه السلام – ، وأن تتوصل عن طريقه إلى دلالات جديدة ، أو معطيات دلالية تقوي بعض الدلالات التي انتهى إليها بعض الباحثين . أمثال سعيد جبار في كتابه : (التوالد السردي) ، وسعيد يقطين في كتابه : (قال الراوي) ، وهذا يعطينا دلالة على أنَّ النص القرآني ، خصب مليء بالدلالات ؛ لذا فهو يستوعب آليات النقد الحديثة ،كما يستوعب آليات النقد القديمة .
- ☑ أظهرت الدراسة أنَّ الحوار في قصة موسى – عليه السلام – على مختلف ألوانه قد يُترجم إلى أفعال كما جاء في حوار موسى – عليه السلام – مع أخيه هارون – عليه السلام – .
- ☑ مع قلة الحوار الداخلي في قصة موسى – عليه السلام – إلا أنه بإمكاننا من خلال بعض الجمل السردية أن نقدِّر اعتماد موسى – عله السلام – على الحوار الداخلي كماء جاء في موقفه من السحرة والخوف الذي أوجسه في نفسه ومع ذلك لم يظهر على ملامحه ؛ حيث إن طبيعة الموقف تفرض عليه مثل هذا الحوار ، ولكن مع هذا التقدير لا يسمح لنا بإدراجه في الحوار لكونه لم يرد في القصة ذاتها .
- ☑ أثبتت الدراسة أن أسلوب الحوار في قصة موسى – عليه السلام – يتراوح بين السلاسة والسهولة من جهة ، والسرعة والاقتضاب من جهة أخرى ، وهذا راجع – بطبيعة الحال – إلى توافق الشخصيات وعدمها .
- ☑ حقَّق الحوار الداخلي والخارجي في قصة موسى – عليه السلام – عدة وظائف لعل من أهمها : (كشف الأسرار ، وتطور الأحداث) ، مما يدفع القارئ والمتلقي إلى العيش في أجواء الحدث .

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

أولاً : المصادر :

- الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ، تعليق : د. مصطفى ديب البُغا ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط : ٢ ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .
- إعجاز القرآن ، للقاضي أبي بكر الباقلاني ، دراسة وتحقيق وتعليق : أ.د : محمود محمد مزروعة ، دار كنوز المعرفة ، ط : ١ ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمى بـ (تفسير البيضاوي) ، ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ، تحقيق : محمد صبحي بن حسن حلاق، ود. محمد أحمد الأطرش ، دار الرشيد ، دمشق، بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .
- الإيضاح في علوم البلاغة ، للخطيب القزويني ، تحقيق : عبدالحميد هنداوي ، مؤسسة المختار بيروت ، ط : ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .
- البحر المحيط ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسي ، ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد الزركشي ، دار الفكر ، بيروت، ط : ١ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- تفسير ابن عطية المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، للقاضي أبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي ، تحقيق : عبدالله بن إبراهيم الأنصاري ، والسيد عبدالعال السيد إبراهيم ، ط : ٢ ، (د.ت) .

- تفسير أبي السعود أو (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) للقاضي أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي ، وضع حواشيه : عبداللطيف بن عبدالرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط : ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .
- التفسير الكبير المسمى بـ (مفاتيح الغيب) ، للإمام محمد بن عمر الفخر الرازي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط : ٤ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
- تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ، ابن كثير ، علق عليه : محمد نسيب الرفاعي ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط الجديدة (٢/٥٠٥) ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م .
- الجامع لأحكام القرآن ، أبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، تحقيق : عبدالرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان ، ط : ٤، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
- الحيوان ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق : عبدالسلام هارون، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، (د . ط) ، (د.ت) ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
- دلائل الإعجاز ، عبدالقاهر الجرجاني ، علّق عليه : محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جدة ، ط : ٣٠ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .
- ديوان ابن المعتز ، دار صادر ، بيروت ، د. ط ، د. ت .
- ديوان أبي تمام ، شرح : د. محيي الدين صبحي، دار صادر ، بيروت ، ط: ١ ، ١٩٩٧م .
- ديوان الخنساء ، شرح : فايز محمد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٤١٦هـ .

- ديوان الشريف الرضي ، المطبعة الأدبية ، بيروت،١٣٠٧ هـ .
- ديوان زهير بن أبي سلمى ، دار صادر ، بيروت ، (د . ط) ، (د . ت) .
- ديوان عنتر ، خليل الخوري ، ط : المطبعة الجامعية ، بيروت ، سنة ١٨٩٣م .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لأبي الفضل شهاب الدين السيّد محمود الألوسي البغدادي ، تحقيق : الشيخ/ محمد أحمد الأمد، والشيخ/ عُمر عبدالسلام السلامي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط : ١ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .
- سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٢م — ١٤٠٢هـ .
- شرح ديوان كعب بن زهير ، أبي سعيد السكري ، دار الكتب والوثائق القومية ، ط : ٣ ، ٢٠٠٢م .
- صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري ، دار السلام ، الرياض ، ط : ٢ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٠م .
- العمدة ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق : الدكتور عبدالحميد هنداوي ، دار المكتبة العصرية ، بيروت ، (د . ط) ، ٢٠٠٧م — ١٤٢٨هـ .
- القاموس المحيط ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، تحقيق : مكتب تحقيق التراث ، مؤسسة الرسالة ، ط : ٦ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .
- قصص الأنبياء ، ابن كثير ، تحقيق : أبي الفداء أحمد بن بدر الدين ، المكتبة الإسلامية ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .
- كتاب الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، طبع برخصة نضارة المعارف برقم (٥٤) ، مطبعة محمود بك ، ط : ١ ، ١٣١٩هـ .

- الكشاف ، للزمخشري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .
- لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط : ٣ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .
- المثل السائر ، لابن الأثير ، تحقيق : د. أحمد الحوفي ، د. بدوي طبانة ، دار الرفاعي ، الرياض ط : ٢ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- مجاز القرآن ، الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، للإمام أبي محمد عز الدين عبدالعزيز ابن عبدالسلام السلمي الشافعي ، تحقيق : د. محمد مصطفى بن الحاج ، منشورات كلية الدعوة ، ط : ١ ، ١٤٠١هـ - ١٩٩٢م .
- مجموع فتاوى ابن تيمية ، جمع وترتيب : عبد الرحمن العاصمي، (د .ط)، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .
- مختار الصحاح ، للإمام محمد بن أبي بكر الرازي ، مكتبة لبنان ، طبعة مدققة ، إخراج دائرة المعاجم ، (د.ط) ، ١٩٨٩م .
- مختصر صحيح مسلم ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري ، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط : ٦ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- مفتاح العلوم ، للسكاكي ، مصر ، المطبعة الميمنية ، (د . ت) .
- مقدمة ابن خلدون ، للعلامة عبدالرحمن بن محمد ، اعتنى به مصطفى شيخ مصطفى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ، وضع حواشيه : عبدالرزاق غالب المهدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط : ١ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .
- وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان ، لأبي عباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت، ط : ٤ ، ٢٠٠٥م .

ثانياً : المراجع :

- أحسن القصص رؤية بيانية جديدة في قصة يوسف ، أ. ياسر محمود الأقرع ، تقديم : أ. عبدالإله الحوري ، دار الإرشاد ، سوريا ، ط : ١ ، ٢٠٠٩م .
- الأسلوب ، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ، د. أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط : ٧ ، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .
- إعجاز القرآن البياني ، دلائل مصدره الرباني ، د. صلاح عبدالفتاح الخالدي ، دار عمار ، عمان ، ط : ٣ ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م .
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي، دار الأرقم ، القاهرة ، ط : ٣ ، (د. ت) .
- الإعجاز القصصي في القرآن ، د. سعيد عطية علي مطاوع ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط : ١ ، ٢٠٠٦م .
- الأعلام ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط : ١٥ ، ٢٠٠٢م .
- البلاغة فنونها وأفنانها ، د. فضل حسن عباس ، دار الفرقان ، ط : ٧ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

- بناء الشخصية في القصة القرآنية ، د. مصطفى عليان ، دار البشير، عمان، ط : ١ ، ص٤٥ – ٤٦ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .
- بنية الشكل الروائي ، حسن بحراوي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩٠م .
- بنية النص السردي ، د. حميد لحميداني ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩١م .
- التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة، ط : ١٨ ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .
- تفسير التحرير والتنوير ، الطاهر ابن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، (د . ط) ، ١٨٨٤م .
- تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ، محمد الأمين الهرري الشافعي ، راجعه : هاشم مهدي ، دار طوق النجاة ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠١م .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، السعدي ، تحقيق: عبدالرحمن اللويحق ، الرشد ، الرياض، ط : ٢ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٣م .
- جامع الدروس العربية ، تأليف : الشيخ/ مصطفى الغلاييني ، راجعه : د. محمد أسعد النادري ، دار المكتبة العصرية ، بيروت ، ط : ٣٥ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .
- الجانب الفني في قصص القرآن الكريم ، د. عمر محمد عمر باحاذق ، ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، ط : ١ ، ١٤١٣ – ١٩٩٣م .
- جماليات التلقي في السرد القرآني، د. يادكار لطيف الشهرزوري ، دار الزمان ، دمشق ، ط١ ، ٢٠١٠م.

- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، أحمد الهاشمي ، تدقيق : سليمان الصالح ، دار المعرفة ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٤٢٨- ٢٠٠٧م .
- خطاب الحكاية بحث في المنهج ، جيرار جنيت ، ت: محمد معتصم وآخرون ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، ط : ٢ ، ١٩٩٧م .
- السرد القصصي في القرآن الكريم ، د. ثروت أباظة ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، (د.ط) ، (د.ت) .
- سورة الرحمن ، عرض ودراسة ، دكتور: شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، (د.ط) ، (د.ت) .
- علم المعاني ، د. عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية ، بيروت ، (د . ط)، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- علوم البلاغة والبيان والمعاني والبديع ، تأليف : د. أحمد مصطفى المراغي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (ب.ط) ، (د.ت) .
- فن القصة ، محمد يوسف نجم ، دار صادر، بيروت، دار الشروق ، عمّان، ط : ١، ١٩٩٦م .
- الفن القصصي في القرآن الكريم ، محمد أحمد خلف الله ، مؤسسة الانتشار العربي ، سينا للنشر ، (د.ط) ، (د.ت) .
- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، القاهرة ، ط : ١٥ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- القصة بين التراث والمعاصرة ، د. طه عمران وادي ، إصدار نادي القصيم الأدبي ببريدة ، ط : ١ ، ١٤٢١هـ .
- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، عبدالكريم الخطيب ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط : ٢ ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .

- لطائف قرآنية ، د. صلاح عبدالفتاح الخالدي ، دار القلم ، دمشق ، ط : ١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
- مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية، دراسة ، شارف مزاري ، منشورات اتحاد الكتاب العربي ، دمشق ، (د . ط) ، ٢٠٠١م .
- معجم المصطلحات البلاغية ، د. أحمد مطلوب، دار العربية ، بيروت ، ط : ١ ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبة، كامل المهندس، ساحة رياض الصلح ، مكتبة لبنان ، ساحة رياض الصلح ، بيروت ، ط : ٢ ، ١٩٨٤م .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، بحاشية المصحف الشريف ، محمد فؤاد الباقي ، دار الحديث ، القاهرة ، ط : ١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .
- معجم مصطلحات نقد الرواية ، لطيف الزيتوني ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ط : ١ ، ٢٠٠٢م .
- مقدمة لتحليل الرواية ، رويتر (نقلاً عن طريق تحليل القصة ، د. الصادق قسومة ، دار الجنوب ، تونس ، ط : ١ ، ٢٠٠٠م .
- من بلاغة القرآن، د.أحمد أحمد بدوي ، نهضة مصر ، (د.ط) ، ٢٠٠٥م.
- المنار في علوم القرآن ، د. محمد علي الحسن ، مطبعة الشرق ، عمان ، ط : ١ ، ١٩٨٣م .
- منهج القصة في القرآن ، محمد شديد ، مكتبات عكاظ ، جدة ، ط : ١ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
- النقد الأدبي الحديث (أصوله واتجاهاته) ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، د. محمد زغلول سلام .

- الوحدة الفنية في القصة القرآنية ، د. محمد الدالي ، (ب.د) ط : ١ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م
- وحي القلم ، مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

ثالثاً : الرسائل العلمية :

- الإطناب في البلاغة العربية ، دراسة فنية ، سفادغوا أحمد ، رسالة ماجستير ، إشراف : الشيخ عبدالعزيز بن عبدالرحمن الشعلان ، جامعة الإمام ، الرياض ، ١٤١٥- ١٤١٦هـ .
- الإطناب في قصص القرآن ، عائشة أحمد عرسان جرار ، رسالة ماجستير، إشراف : أ.د. خليل عودة ، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس ، فلسطين ، ٢٠٠٩م .
- الإيجاز في البلاغة العربية ، د. سليمان المنصور، رسالة ماجستير، إشراف : د. عبدالستار زموط ، جامعة الإمام ، الرياض ، ١٤٠٨هـ .
- بلاغة الإطناب في سور المفصل ، راشد الكعبي ، رسالة ماجستير ، إشراف : الشيخ عبدالعزيز بن عبدالرحمن الشعلان ، جامعة الإمام ، ١٤٢٥ — ١٤٢٦هـ .
- بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه د. محمد مشرف خضر ، إشراف : د. عبدالرحيم محمود زلط ، د. محمد عبدالمطلب ، د. مختار جبلي ، جامعة طنطا بصفحة الانترنت العالمية .
- مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء ، د. حامد صالح خلف الربيعي ، وهو بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

رابعاً : المجلات والدوريات :

- الإعجاز البياني في قصـة مؤمـن آل فرعون ، ماجد محمد الماجد ، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب ، المجلد الخامس ، ٢٠٠٨م .
- بنية السرد في القصص القرآني وأثرها في بناء الشخصية ، د. السيد عبدالسميع حسونة ، بحث منشور في مجلة الدراسات العربية ، كلية دار العلوم ، جامعة المنيا ،٢٠٠٣ م.

*****

فهرس الموضوعات

م	الموضــوع	الصفحة
١.	**الإهداء**	٣
٢.	**شكر وتقدير**	٤
٣.	**المقدمة**	٥
٤.	**التمهيد**	١٦
	المبحث الأول : مفهوم القصة في اللغة والأدب والقرآن الكريم	١٧
	المبحث الثاني : أسرار التنوع الأسلوبي لقصة موسى في القرآن	٢٢
٥.	**الفصل الأول** **قصة موسى – عليه السلام- بين الإيجاز والإطناب والتكرار**	٢٨
	المبحث الأول : الإيجاز	٣٢
	المبحث الثاني : الإطناب	٥٩
	المبحث الثالث : التكرار	٨٤
٦.	**الفصل الثاني** **البناء الفني في قصة مُوسى عليه السلام**	١٠٣
	المبحث الأول : البناء التصويري	١٠٦
	المبحث الثاني : البناء التركيبي	١٢٤
	المبحث الثالث : البناء الإيقاعي	١٧٩
٧.	**الفصل الثالث** **بلاغة السرد في قصة مُوسى عليه السلام**	١٩٠
	المبحث الأول : المشاهد ، والمواقف ، والأحداث	١٩٤

م	الموضوع	الصفحة
	المبحث الثاني : الشخوص والنماذج البشرية	٢١٣
	المبحث الثالث : الحوار والسرد في القصة	٢٣٥
٨.	**الخاتمة**	٢٦٤
٩.	**الفهارس**	٢٦٩
	– فهرس الآيات القرآنية	٢٧٠
	– فهرس الأحاديث النبوية	٢٨٨
	– فهرس الأشعار	٢٨٩
	– فهرس الأعلام	٢٩٠
	– فهرس المصادر والمراجع	٢٩١
	– فهرس الموضوعات	٣٠١